رواية

حنّا مينه

مأساة ديمتريو



دار الآداب

مأساة ديمتريو

حنا مينه

مأساة ديمتريو

رواية

دار الآداب ـ بيروت

مأساة ديمتريو

حنا مينه/روائيّ سوريّ

الطبعة الرابعة عام 2004

حقوق الطبع محفوظة

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861632(03) - (01) 861633

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

صوت ١

«لا يمكن

«لا يمكن

«لا يمكن

«يا ديمتريو، أقول لك لا يمكن، أتفهم؟ للمرة الألف، هذا الشهر، والذي قبله، قلت لك لا يمكن، أتفهم؟».

صاح ديمتريو الآخر: «أنت تكذب أيها الوغد، يا جوّاب الآفاق، تكذب وتعلم أنك تكذب، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن؟ حدّق بوجهك في المرآة.. ألا ترى وجهك؟».

عبر المرآة، حدّق ديمتريو بديمتريو، تحديقة خصمين متباغضين ومتلازمين. حسناً، قال أحدهما للآخر، اتفقنا أنه لا يمكن. يجب أن نجزم، هذه الليلة، وإلى الأبد، بأنه لا يمكن. لقد اقتنع كلانا باستحالة ذلك، ومن الغد تتحوّل هذه القناعة إلى سلوك، كالذي كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء.

وفي هذه اللحظة، شعّ شيء ما، في الجانب الأيسر من الصدر، وترك إحساساً بالاختلاج كما يحدث تحت تأثير نزق عصبي، عقب فكرة تمرّ بالبال، أو صورة تهزّ الخاطر، وللتأكّد من السلامة مدّ ديمتريو الواقف أمام المرآة، وكذلك ديمتريو الذي في داخلها، يده إلى الجانب الأيسر من صدره وانتزع لفافة ورقيّة على شكل قلب، فتحها، ثم تحوّل إلى المصباح ونظر فيها، وإذ لم يجد شيئاً داخله سرورو وراحة، فراح يطويها ليعيدها إلى مكانها، فلما فعل، لمح ظلالاً عليها. كانت في الورقة خطوط رفيعة لا تكاد تبين، تزداد ارتساماً كلما ازدادت اقتراباً من الجسم، وامّحاء كلما ابتعدت عنه، خُيِّل إليه، للحظة، أن الخطوط المستقيمة تنحني قليلاً وتتلاقى في زاويتين حادّتين جداً، ثم ترتعش الخطوط، وتتجّسم، ويرفّ من فوقها ألق ذكّره بما كان قد رأى، يوماً، على ثغر المجدليّة، وسمح الألق لنفسه بالانقسام، لتتشكّل من كل قسم شفة بلون زنبقة الحقل، تنفرجان عن أسنان مرمرية، كحصاة تحت رقراق بحيرة جبليّة، والحصاة تومض بهاء أبيض، حين تنشمر الشّفة العليا، مظهرة نتوءاً وردياً من اللحم الذي يصلها باللّثة، ثم تتكور، في تقوّس بَدْري، لتغدو، مع الشفة السفلى، محارة مرجانية تنشقّ عن تلك الحصاة اللؤلؤية.

صاح ديمتريو: «إنها هي! إنها هي!» وأغمض عينيه مستسلماً إلى النشوة التي بعثتها الرؤية، شاعراً، الآن، بالعجز، عن مقاومتها. لقد تضعضعت إرادته. والقناعة التي توهّم أنها حصلت تزعزعت، وسلوكه، من الغد، لن يكون كما كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء.

فتح عينيه خائفاً، كارهاً أن يرى ديمتريو الآخر في المرآة. سيصيح به: «أيها الوغد، يا عازف الكمان المتشرّد، أتحسب أنك قادر على التمويه إلى الدرجة التي تخدعني بقناعتك الكاذبة؟ إذا كنت صادقاً، فآمْحُ ما على ورقتك التي أخرجتها من صدرك، وعندئذ فقط يتحول سلوكك كما كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة».

نظر ديمتريو إلى ديمتريو في شكاة صامتة: لماذا تتهمني؟ أنت تعلم أنني لم أكتب شيئاً على هذه الورقة، ولم أرسم عليها خطاً، صدّقني، أقسم لك فصدقني.. حسناً.. أنت لا تصدقني، أنا نفسي لا أصدق نفسي، فما دام على ورقتي رسم، فلا بد أن يكون ثمة رسام، هذه بدهية يا توأمي، يا ذاتي، وأنا لا أجادل في البدهيات، لست سفسطائياً، ولا خيالياً، واقعي أنا، واقعي أكثر مما يجب. ولم يخطر لي أن أنقض المسلمات: واحد مع واحد، والخط المستقيم، والعلة والمعلول.. كل هذا صحيح، وقد عشت على الإيمان بهذه الصحة، ولكن الرسم، على وقتي، لم أرسمه أنا.. الألق المجدلي، الحصاة المرمرية، المحارة المرجانية، والشفاه التي بلون زنبقة الحقل، لم أرسمها أبداً، ولا أستطيع لو أردت، وصاحبتها لم ترسمها أيضاً، لا أنا ولا هي، كلانا بريء، كلانا يقول لا يمكن، والمنطق يقول لا يمكن، والعقل يقول لا يمكن، ومنذ أبصرتها قلت لا يمكن.

توقف ديمتريو عن دفاعه ليستزيد من قدرته على الإقناع. استشعر تصاعداً في طاقته المعنوية، وكمن يحلل نفسه، خيل إليه أن كشفه عن جذور عقدته قد وضع في يده إمكانية حلها. صار واضحاً الآن أن الحل رهن بانتصار إرادته على عاطفته، وكان معتداً بتلك الإرادة

فأضاف: «أؤكد لك يا توأمي أن الأشياء ستكون كما أريدها. وإذا كانت عاطفتي قد ربحت على إرادتي، فإن إرادتي لا تستسلم للهزيمة. إنها تصارع.. أنا أصارع، لأنني مقتنع. ومن الغد أحول قناعتي إلى سلوك، كالذي كان، قبل أن تكون هي، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتي بيضاء، كما كانت قبل الكتابة».

كانت أمامه، على الورقة، ابتسامة. تناول ممحاة واستعدّ لمحو الابتسامة، لكنه احتار من أين يبدأ. ما يريده هو إطفاء الألق المشع في تلك الابتسامة، وسيفعل بغير تردد، وكل ما عليه، لكي ينجح، أن يكتشف منبع الألق، وينقضّ عليه بممحاته، فيزيله ويستريح.

أيها السيدات والسادة، يا من عانيتم كما أعاني، هل تعرفون، في ثغرٍ شفتاه بلون زنبقة الحقل، وتكويرته اللوزية محارة مشقوقة عن حصاة لؤلؤية، من أين ينبع ألق الابتسامة؟ أنا واقعيّ يا أهل مملكتي، منطقي، أؤمن بالعلة والمعلول، والرسم والرسام، وأعرف مثلكم، أن الألق سراب، لكنني بخلافكم أبحث عن سره، فهل اهتدى أحد منكم إلى هذا السر، واستطاع أن يمحوه؟

تشيرون إلى الشمس؟ ألم أقل لكم إنني واقعي ومنطقي؟ لألاء الشمس لا يطفأ يا سادتي. ستنطفىء هي لذاتها يوماً. وهذا بعيد، بعد ملايين السنين، وأنا أسألكم عن شمسي، عن الابتسامة التي في ورقتي، من أين ينبع لألاؤها؟ بين الشفة والشفة وميض برق، فمن قبض منكم على وميض برق؟ ثغر دليلة كانت له شفتان أيضاً، بينهما لذة وسمّ، وثغر الجوكندا له شفتان، تنثّ منهما قداسة. شيء يدعو إلى الراحة والطهر، وهذا المرسوم على ورقتي، يختلف. لا سم ولا

ترياق، زاويتا قوسين شفويين. ينفرجان عن ابتسامة، وابتسامة تضيء، وأنا أبحث عن مصدر الضوء، عن سره.

«حسناً ـ قال ديمتريو ـ سأمحو الشفتين معاً، ما دام منبع الألق محصوراً فيهما».

قالها بتأكيد، وقد استشعر حاجة، كنداء الثأر، إلى محو الشفتين اللتين أمامه على الورقة، فلما رفع رأسه فجأة ونظر في المرآة، التقى ديمتريو الآخر، الذي سأله بهدوء وتهكم:

ـ ماذا تنتظر؟ تخاف؟ يا لك من جبان، آه يا توأمي العزيز، أنت تخدع نفسك في غير طائل، ولو أدركت أن ما تردده من عزم على محو الابتسامة وهمٌ ينشد عزاء مسكيناً لأرحتني واسترحت.. ألقِ بالمحاة من يدك. ألقها وامض غداً، كاليوم، كالأمس، في سلوكك المألوف، العاجز،التابع .فالذين يمحون أقدار البسمات والعبرات، يملكون أصابع غير أصابعك.

نكس ديمتريو رأسه معترفاً بصدق وعدالة هذا الحكم. لم يكن بحاجة إليه أصلاً، فهو يعيش منذ شهور، يبني الهيكل في المساء، وينقضه في الصباح، «آه يا آلهة اليونان ـ هتف ـ صخرة سيزيف أرفع؟أنا لم أفش سر النار، ولم أعشق آلهة من الأولمب. وما أنشده بسيط: قضاء ما تبقى من رحلة العمر في هدوء وسلام، بعد أن ودعت الصبا وحسبت ألاّ معاد، فالشجرة قد دبّ فيها اليباس. لست بستانياً، ولا أعرف أن الشجرة تخضرّ بعد يباس، وها هي الشجرة تخضرّ بعد يباس».

كم يدوم هذا؟ لا تسألوا. المعجزة تحدث أحياناً، وإذ تحدث،

في غير أوانها، تكون معجزة المعجزات. وعلى فراش الموت، قبل الغروب الأبدي، دعاني يوماً رجل وقال لي: «اعزف شيئاً من ألحانك يا ديمتريو، أحس أن زهرة جديدة تتفتح على غصني» قلت: «سمعاً يا سيدي» ولم أعزف، حسبته في هذيان النزع، وتهيبت دموع الأهل، لكنه مد يده النحيلة، الصفراء، المعروقة الأصابع، وأمسك بيدي وقال: «ديمتريو! الحطّاب آتٍ لقطع الشجرة. أسرع. ساعد زهرتي الأخيرة على التفتح قبل أن يفوت الأوان. أنا سعيد يا ديمتريو لأن شجرتي ستقطع وهي خضراء. كذلك أردتها وكذلك كانت وأتمنى لشجرتك أن تكون مثلها، كما أتمنى لك، من بعدي، طول البقاء ولكن أتمنى لك بقاء أخضر، يزهر حتى النهاية، فهل تعزف قليلاً كرمى لخاطري؟».

عزفت..

كماني تبلل بدموعي. ترطب الخشب وصار أرخم. صار أعمق. وأزهر الغصن، واللحن أزهر، ومضيت أعزف، دون انتقاء، دون عناء. أحسست أن زهرة ما، في داخلي، تتفتح أيضاً، وأن الربيع قد ألغى الشتاء، وأنه يجري في يدي وقوسي وكماني. وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت، على ملاقاته. صار الموت أنعم، مخملي الملمس، ومرّ بقربي، وحطّ على صدر صاحبي، وتسلّل إليه رفيقاً، هادئاً، كالنوم عقب النعاس، ولم أشعر بشيء. ولم أع ما حدث إلا عندما تقدّمت زوجته وربتت على كتفي قائلة: «توقف يا ديمتريو. قضي الأمر».. نظرت إلى الرجل.. كان يبتسم وقد مات. الشجرة الخضراء ظلت خضراء حتى قطعت.

وقد نسيت الرجل وأمنيته مع الأيام. لم أكترث لما قاله وهو على

الخط الدقيق الفاصل بين الحياة والموت. ذلك أن أمر الشجرة لم يعنني كثيراً. فحبي الأخير، كإيماني القديم، كغصني الذي كان مليحاً وانثنى، كصورتي يوم لا بياض ولا غضون، كمودّاتي التي سلفت، كولدنات يفاعتي التي يبكي عليها وقار كهولتي، انقضى، مضى، خلفني وحيداً أمام النار المنطفئة، أمام العدم القاسي الزاحف نحوي بعيون باردة. ولم أكن، يا إخوتي، صانع معجزات، ولا ساعدت، مرة، معجزة على الحدوث، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها، أنا الذي عرف الهوى حتى ملّه، لأنه أبداً لم يروّضني، لم يحتفظ بي أسيراً في قبضته، ولاجعلني أتألم حتى البكاء.

ولأني نشأت محروماً من نعمة الألم في الحب فقد نبذته، خيل إلي أنني تجاوزته، أو أنني لم أعرفه، لأنه، حين كان يأتي، خفيفاً كالصداع الذي يداوى بحبة مسكِّن، أو كالشهية التي تخمدها لذة وجبة، كنت أغمض عيني وأنام، وكان الصباح كفيلاً بأن يجعل في الماضي، ما كان مساء في الحاضر، حتى إذا بزغ نجم جديد، كان يكفي أن أدير له ظهري لأنساه، أو أدخل بيتي حتى لا يعود له تأثير فيّ.

وحين رأيت هذه الابتسامة، ذلك اليوم، حسبتها احدى تلك النجوم البعيدة، التي يضحك من حرارتها السائر في الصحراء. غير أني كنت مخطئاً، وأنتم تشهدون على خطئي، وأنا أرغب في محو هذه الابتسامة، وأنتم تشهدون على فشلي، فمن منكم يدلني على مادة كيميائية تعيد ورقتي بيضاء كما كانت؟ الزمن تقولون؟ لا.. الزمن يحيل الأشياء إلى ذكريات وأنا ألعن الذكريات، أمقتها، أمقت

ومضة الاسترجاع هذه، التي تعيش فيها الكفّ الخالية على وهم ما كان، وينضفر الجسم، في شراسة ليالي السهد، على أشباح أجسام.

وحتى لو ملكتم هذه المادة الماحية، وجربتم أن تساعدوني، لما غفرت لكم بقية عمري. . لا تصدقوني إذن، أنا ديمتريو الذي يعيش مأساته المروعة. إن ذاتي لا تصدق ذاتي وديمتريو الآخر لا يصدقني، يصيح بي: «كُفّ عن عبثك. تَوقّفْ عن محو ما في ورقتك، وأعدها إلى صدرك، ثم احمل كمانك واذهب إلى تلك السيدة واعزف لها أناشيدك».

توقف ديمتريو عن عملية محو الابتسامة. كانت يده، في أصابعها الثلاثة المضمومة، قد حكّت الورقة طويلاً فتصلبت شرايينها. ولم يعاود النظر في المرآة. أحس بعداء نحو توأمه الذي سيطالعه فيها. كان هذا التوأم بغيضاً بقدر ما كان حقيقياً، كان شاهداً لا يمكن حذفه ولا خدعه ولا إسكاته. . وفي فترة الاستراحة، ريثما يعود الدم إلى الأصابع المتيبسة، راح ديمتريو الآخر يتحدث. .

في ذلك الأصيل كانت السيدة تقرأ في كتاب. وكان زوجها يعالج طائراً مكسور الجناح. وكنت أنا أعلّم طفلها العزف على الكمان. . لقد استدعيت لأداء هذه المهمة وقبلت، وعبرت الصالون إلى الغرفة، وبعد الانتهاء عبرته إلى الباب، وحييت بأدب وخرجت. لم يبق في ذهني، ذلك الأصيل، من هيئة البيت سوى البوق من قرن الأيل، وموقد الحطب، والزوج الذي يعالج طيراً. وفي الدرس التالي، حين عبرت الصالون، كان الزوج في مكانه والزوجة على النافذة فأعطيت درسي وانصرفت.

انقضى على ذلك اسبوعان، فلما كان الثالث، سمعت، وأنا أهمّ

بطرق الباب، عزفاً على الكمان. كان النغم شجياً، ينداح تحت قوس رشيق، ليس لتلميذي بأية حال. تريثت في الدخول. فلمّا خفت وقفتي المتنصتة، طرقت الباب ودخلت. كانت السيدة تسرع في إيداع الكمان صندوقها، كأنها ترغب عن معرفتي بعزفها. توقفت على العتبة لأخلع الواقي المبلل، واستقامت السيدة من انحناءتها على الصندوق، ونظرت إلي مبتسمة متسائلة: هل سمعت عزفي؟

الوجه باسم، فيه مزيج من كبرياء ووداعة. ولونه الوردي يشف عن عذوبة جارحة. والعنق إلى طول، والشعر ذهبي، مرسل، وعيناها مضيئتان، وسطهما نقطة عسل أصهب.

كانت، هي الأخرى، في نهاية الصيف، في الزمن الذي ينضج فيه العنب ويعتصر. وكالخوخة الصفراء، في عزّ الاستواء، شهية ومثيرة، وشيء في المقلتين، كالرضاب، كالالتماعة في العين الشبقة، يغزل بوحاً ساكناً، صارخ الفتنة.

حسناً! كل ذلك رأيته، وربما تخيّلته، في تلك الليلة، وأنا تحت تأثير اضطراب لا أدري أكان مبعثه عزفها أم وجهها، هذان اللذان، في السمع والبصر، أيقظا احساساً مبهماً من الاعجاب والرغبة، وأحدثا ما يشبه الهزة التي تتشقق لها قشرة الأديم النفسي فتنبجس الأشواق في اندفاعة عفوية.

لقد سبق ورأيتها فلم أتأثر ولم أضطرب. طوال اسبوعين، وأنا أتردد على البيت لإعطاء الدروس، فكيف حدث ولم يلفتني وجهها؟ هل كان ذلك لأنها كانت مستغرقة في كتابها، حاجبة عني ملاحتها؟ ولماذا لم استلطفها في المقابلة الأولى؟ ألأنها لم تكن واقفة؟ ألأنها لم

تنظر إليّ، أو لأنها لم تبتسم؟ يا سيدتي لماذا ابتسمت إذن؟ أنا لا أتهمك؟ أسمعت يا ديمتريو، يا توأمي، أنا لا أتهم السيدة لأنها ابتسمت، فهي لا تستطيع إلا أن تبتسم، وأنا، كذلك، لا أتهم نفسي. أنا لا أفعل شيئاً يا ديمتريو، ولم أشعل قنديلاً على شجرتي الخريفية.

دعتني إلى أخذ حظ من دفء وكوب من شاي. وقال زوجها مؤيداً دعوتها: «نعم، هذا ما يجب» فقبلت شاكراً، شاعراً أن لطفاً كبيراً يحيطني، ثم سألتني عن أشياء، وأجبتها بأشياء، ولما أعطيت درسي وخرجت، تلفّتّ بعفوية إلى الباب. أحسست فراغاً قد حدث، ولهفة إلى العودة تشهّت، وطغت صورتها على موقد النار وقرن الأيل ولم يعد رعي الماعز في الفلاة تشرداً حراً ومرجواً لجوّاب الآفاق. لقد تدجّن الحيوان البري، وصار ينتظر موعد دخول المدجن بحنين لاهف. وفي الليل طفقت الابتسامة تطل، فأدركت بفرح وأسف، أن قدري يوشك أن يقول كلمته، وصحت في محاولة للردع، هذا لا يمكن، ومنذ تلك الساعة وأنا أصيح لا يمكن وسأظل أصيح، حتى النهاية، لا يمكن..

سكت ديمتريو الذي في المرآة، واستأنف ديمتريو الذي أمامه عمله في محو الابتسامة. كان يعمل، الآن، مدفوعاً برغبة لا تقاوم، في إزالة الابتسامة عن ورقته، لكي يعيدها إلى مكانها، ويذهب إلى فراشه فينام، كما في الأيام الخوالي، بغير قلق ولا انفعال.

ساعة. ساعتان. ثلاث.. كلّت يده اليمنى فجرّب اليسرى. عاد إلى اليمنى ثم إلى اليسرى... ظلت الابتسامة في موضعها من الورقة. هي لا تظهر، لا تختفي، لا تتحرك، لا تتثبت. يحسها إذ

يراها، ويراها إذ يحسها، ويعذب نفسه حتى التلف ليجنبها الوقوع في حب بغير جدوى.

تهالك أخيراً تحت ضغط إعياء شديد. دخل في الدائرة الحلزونية المقفلة للجنون الواعي، فتوقف، وهتف من أعماقه:

ـ وبعد.. لماذا لا أنتهي أو أموت؟

وأجابه صوت من المرآة:

ـ لأن الموت راحة، وبينك وبينه مراحل بعد.. لا تتعب، صخرة سيزيف لن ترفع بهذه الطريقة. لقمان الحكيم، أيها الغبي، هتف بتلميذه وهو يعالج الورم: عليك بالنار يا حمار.. اكوِ.. أحرق، الحق الأصل.

قال ديمتريو متوسلاً: «أعد علي ما قلت يا توأمي العزيز.. أنا لا أفهم.. أنا في حال لا تسمح لي بأن أفهم.. أسمع ولا أفهم؛ فترفّقْ بي وقل لي، ماذا أفعل؟ أين الأصل وأين الفرع، وما شأن حكيمك الفاني فيما أنا فيه من بلاء؟».

تحركت الورقة، أمامه، وندّ عنها صوت يقول: «أنا هو الفرع» وخشخشت ورقة ما، في رأسه، وندّ عنها صوت يقول: «أنا هو الأصل» فنظر ديمتريو إلى ديمتريو وتنفس بارتياح، كمن ألقى عن كتفه جبلاً من الصوّان. وقال متواضعاً: «الآن فهمت... شكراً.. لقد فهمت.. كان علي، منذ البدء أن أفهم، ولكن حالي كما ترى، اعذرني».

لف الورقة على شكل قلب وأعادها إلى مكانها. ماذا ينفع

الانسان أن يمحو إذا كـان ثمة من يكتب؟ الـدماغ يمـلي والقلب يملي عليه، وبدون إصلاح الدمـاغ لا يمكن إصلاح القلب. تلك بـدهية يا ديمتريو، وأنت مولع بالبـدهيات. تـأمل كيف فـاتك أن تـلاحظ مسألة بهذه البساطة. لا تضيع الوقت،اترك القلب وعـالج الـدماغ، أحـرق السرطـان الذي هنـاك، وعنـدئـذ يشفى الأصـل، فتشفى، بدورها، الفروع.

نـزع طاسـة رأسه، وأخـرج المخ الهـلامي، اللزج، فـوضعـه في صحن أمامه، وتركه معلقاً بالرأس بعرق كالمشيمة. كـان يتوقـع أن يـرى فيه نـدبـة مـا، بثـوراً، ورمـا، فيعـالجـه بمكـواة اللحـام التي استحضرها. سيبرهن للقمان أنه ليس حماراً مثل تلميذه، وأنه يعرف أن يحرق السرطان ويجرؤ على ذلك، ثم يذهب في اليوم التالي لتعليم تلميـذه، بسلوك كالـذي ذهب فيه للمـرة الأولى. غير أن مخـه كـان صحيحـاً. خاليـاً من كل أثـر، وكان عـلى قلبه أن يكـون صحيحـاً كمخه. هذا قانون الأصل والفرع، وهو قانون منطقي إلى درجة أن اختـلاله سيكـون اختلالاً للكـون ونهايـة لـه. مـاذا تفعـل الآن يـا ديمتـريو؟ حـذار أن تعبث بمخـك. قلّبـه، هكـذا، بلطف، بتؤدة. افعـل ذلك مـرة، ومرة، وثـالثـة. يئست؟ إذن أعـده إلى مكـانـه، وامض صباحاً كما رجعت مساء، حاملاً تعـاستك مـرسومـة بحبر لا يمحى. لا تقل بعد اليوم لا يمكن.. كل شيء ممكن حين نريـده أن يكون ممكناً.

صاح ديمتريو بديمتريو: «ولكني لا أريد، قلت لك مئة مرة، لمـاذا لا تصدقني؟ لقد تعذبت الليلة بما فيه الكفايـة، لأثبت لك بـأنني لا أريد، أفلا تسمع ما أقول؟».

قال ديمتريو: «بلى أسمعك، ولكني لا أصدّقك. أنت تريد ولا تعرف أنك تريد، هذه هي المشكلة، حدّق في مخك وأخبرني ماذا ترى فيه».

فعل ذلك ديمتريو فلم ير شيئاً.

ـ آه يا عزيزي! قال له توأمه. ما كل من له أذنان للسمع يسمع، وما كل من له عينان يرى. افتح ناظريك جيداً. فقد خلقا لكي يفتحا، وخوفك أغشى عليهما. اهدأ. تمالك أعصابك. حين يكون في المخ شيء فلا فائدة من تجاهله، الأجدى أن يعالج، أن يكوى، أو يستأصل. لقمان، قبل آلاف السنين، أدرك هذه الحقيقة وعمل بها، وأنت تجهلها أو تتجاهلها. لا أحد يصاب في مخه ويعالج من أطرافه فيشفى. إذا فسد الرأس فسد الجسم. عالج رأسك أولاً وإذا عجزت فاقطعه. هيا. . جرِّب مرة أخرى.

جرَّب ديمتريو ولم يفلح. لا شيء في المخ. ومع ذلك غدا واثقاً أن فيه شيئاً. قال بتسليم:

ـ أنا لا أجد شيئاً في مخي. فشلت في العثور على هذا الشيء وبحاجة إلى من يدلني عليه، فهل تفعل؟

قال ديمتريو الآخر: أن أدلك عليه فهذا بسيط. أحسب أنك تتكلم بشكل معقول الآن. يبقى أن العلة لا تزول بمجرد الاهتداء إليها. ولقد هديتك من البدء إلى علتك. بل إنك تعرفها بنفسك وتتجاهلها، تكابر في أمرها، فأي أحمق أنت؟

هز ديمتريو رأسه موافقاً، غدا أحمق في نظر نفسه، هو مضيّع ومعطّل عن مواجهة شؤونه ومباشرتها. وهذه الليلة، بالنسبة لعمره

كله، جديدة ورهيبة، ظنّه أن عالمه الداخلي جليّ، نقيّ، كغرفة مشمسة، كحديقة حسنة التنسيق،وما صدمه وأوقعه في هذا الاضطراب، أن هذا العالم مليء بالكهوف والسراديب،وأنه يجوس خلل ظلمات، فكيف حدث ولم يفطن إلى ذلك؟ كان عليه، في أعوامه الطوال، أن يفتح رأسه ويعرض خلاياه للشمس.

ـ حسناً ـ قال ـ أنا مستعدّ يا توأمي، فأخبرني أين هي العلّة في مخّي؟

ـ أنا لم أقل إن في رأسك علة.

ـ طيب، سرطان، ورم، تشوه.

ـ لا شيء من ذلك..

ـ وماذا هناك إذن؟

ـ انظر...

كانت على الجهة المقابلة من المخ، شفتان تبتسمان،فصاح ديمتريو: «يا الهي! ماذا أرى؟ ما ذنبي لديك؟ ولماذا إذن، أعذب نفسي؟» وباندفاعة مجنون، رفع قبضتيه وأهوى بهما على المرآة، ليتخلص من السخرية القاتلة في الوجه المقابل. عندئذ حدث ارتطام ضجّ له البيت كله، وتناثرت شظايا الزجاج مفرقعة على أرض الغرفة، وانبجس من أصابعه وراحتيه سائل مشع، ونفر من وجهه وعنقه وصدره وراح يتساقط قطرات على الطاولة والسرير والأرض، وأخذت القطرات تتفتح ابتسامات كالشموس الصغيرة، تشع فتبهر عينيه، وكلما حاول أن يطفئ إحداها، تناثر السائل فتفتحت عشرات الشموس من عشرات النقط، حتى حاصرته من

كل جهة، وتداخلت إذ تكاثرت، وتحولت إلى لهب شمسي غطى ما حوله ، وأنشأ يتدفق كالماء في قاع سفينة تغرق،ويتصاعد ويغمر جسمه.

هتف ديمتريو بديمتريو:

ـ يا توأمي يا صديقي.. أنا احترق.. أغوص في اللهب واحترق، أنقذني.

وكعادته، قهقه الآخر ساخراً ولم يفعل لأجله شيئاً. عاد يصرخ به:

ـ أيها المسكين.. انفقت عمرك في طلب هذا الشيء، فلما صار لك خفته، وكذلك يفعل العاجزون، يحبون ويخافون الحب، يتكلمون على البركان، ويضعون أصابعهم في آذانهم إذ يحدث، ويشتهون العاصفة، فإذا اقتربت ناحوا كطيور الزمّج.. أنت منافق مثل تاو، ذلك الذي كان يحب التنين، ويملأ بيته بصوره، فلما خرج التنين من الصورة، ولول واستغاث، واستنجد بخدمه لقتله.. بدمعك على أنين الكمان، كنت تسقي شجرتك، فلما اخضرّت خفت اخضرارها.. خفت هلاكك فيها.

ـ ولكنني أهلك.. أنا الآن أهلك..

ـ وستظل تهلك.. ستحترق كلك. هاك اللهب يحاصرك.. ها هو على رأسك، في الجانب الأيسر من صدرك، فوق كتفيك، تحت قدميك، يغمر قدميك، يغمر ساقيك.. اهرب.. اهرب..

صعد ديمتريو إلى السرير فتصاعد اللهب السائل وأغرق السرير.

قفـز إلى المكتب فاشـرأب اللهب إليه. لم تبق إلا الخـزانة، فـارتقى سـطحها، وإذ غـرقت بـدورهـا تعلق بـالثـريـا، وتـطوحت قـدمـاه كمشنـــوق، وتشنّجتا إلى أعـلى، في محاولـة مستميتة للنجـاة، ولكن ألسنة اللهب أدركته، فأطلق صيحة استغاثة وهوى، ثم قفز، بكـل قوته المتبقية، نحو الباب. . فتحه وفـرّ هاربـاً، تتبعه طـاسة رأسـه، وقطرات الدم المتناثرة، والشمس المتفتحة، والسائـل اللهبي. جعل يعدو وهي في أثره، وطفق يصيح، ويبكي، ويستجير، ولكن أحـداً في الشارع، والمدينة والمدن الأخرى، لم يسمعه، ولم يأت لمساعدته.

ظل يعدو هكذا أيامـاً. وإذ كان عـلى أحد المنعـطفات، واجهتـه مرآة مما يوضع لتجنب اصطدام السيارات، فرأى صورته فيها، رأى ديمتريو الآخر ينظر إليه شامتاً ساخراً كعادته، فاندفع نحـوه هاتفـاً:

ـ أنقذني! أنقذني!

وضج الفضاء بقهقهة كالرعد، وسمع صوتاً كالنذير:

ـ أيهـا الأبله! . . أين المفر؟ وكيف تهـرب بذاتـك من ذاتك؟ . . أنت تشتعل من الداخل، ومن الداخل تنطفئ. . عد إلى غرفتـك، وأقلع عن المحـاولـة. . دع الابتسـامـة في صفحتك، فقـد ارتسمت وانتهى الأمـر. ارتسمت لأنك أردتهـا، وهي باقيـة لأنك تـريدهـا، وخوفك منها لن يزيد إلا في تأججهـا. . أنت تصرخ بشفتيـك: «لا يمكن» وتضمـر في سـرك: «يمكن» ولهـذا فلن تتحـول قنـاعتـك إلى سلوك، كـالذي كـان، قبل أن تكـون هي، قبل أن يكـون اللقاء، ولن تعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة عليها.

صوت ٢

أنا هي المرأة ذات الابتسامة. اسمي راجعة، وهو اسم بـاهت، لو خُيِّرت لاخترت غيره. كنت أختار اسماً عصرياً، مزهراً، مـرناً. لكن والـدي أطلقه عليّ منذ ولادتي، فكـان عـليّ، كـالآخـرين، ان أحمل وزر غيري. ولكم فكرت: «لماذا؟ ألا يكفي أننا جئنا إلى هذه الدنيا بغير إرادتنا، وسنغادرها بغير إرادتنا، حتى نحمل اسماً لا يد لنـا في اختياره؟» الناس يأتون وأنـا أرجع. لـو سماني والـدي آتية كـان المعنى مفهـومـاً. الكـل يـأتي، والكـل يـذهب، ودورة الحيـاة، في اكتمالها، تضع حداً لهذه اليقظة بين نومـين، اليقظة التي هي سهـاد نـدعوه العمـر، ثم ينسرب من بـين أصابعنـا، فـإذا الأشيـاء، قبـل البداية وبعد النهاية، عدم. غمـوض، غموض، غمـوض. ويعمد والدي بعد هذا كله، إلى زيادتها غموضاً، بهذا الاسم الذي اختاره لي. لقـد أسماني راجعة، ماذا يعني ذلـك؟ الرجـوع، كما أعلم، لا يكـون، ولا يمكن أن يكون، لأنـه ما من أحـد قطع طـريق العمر، ورجع فيه إلى وراء.

والـدي كـان حكيـماً. هـذا لا شـك فيـه، كـان يقـرأ سقـراط وأفـلاطون وأرسـطو، كان يفضـل أرسـطو. يقـول: «فيـه شيء من عصرنا» ولما سألته عن هذا الشيء قال: «المادة والحركة» لم يتسـع لي الوقت، ولم يمتد به العمر، ليشـرح لي أهمية المـادة، وقيمة الحـركة، كل ما قاله إن أرسطو تخطى بهما عصره. حسناً! أرسطو كان حكيماً، وأنت تقدر حكمته، فما هي الحكمة، يا والدي، باسم راجعة هذا؟ ولماذ أصررت، كما أخبرتني والدتي، على تسميتي به؟

قال والدي:

ـ لأنك، بالفعل، راجعة.

ـ راجعة من أين؟

ـ من المجهول.

ـ أي مجهول؟

ـ لو عرفناه ما كان مجهولاً...

ـ أنا لا أفهم..

ـ ستفهمين..

ـ متى؟

ـ حين تكبرين..

ـ الكبر يعني الفهم؟

ـ يعني إمكانية الفهم.

ـ والفهم؟

ـ يتوقف على التجربة.

ـ والتجربة؟

ـ تتوقف على المعاناة

ـ وهذه؟

ابتسم ومسد شعري بكفه الحانية. قال: «لو أخذنا بلعبة تـوالد الأسئلة لما انتهينا. كنا نوغل، شأن الذين يسألـون عن الخلق، حتى نبلغ بـدايتـه. نصـل إلى السؤال الخـطير: من؟ وبعـد ذلـك انتفـاء الايمان. . لا. . لا أريدك سائلة ملحة في مساءلتها. التجربة أنواع، أعظمهـا. .» توقف وأضاف مبتسماً: «لكنك ما تزالين صغيرة. .».

كنت طُلَعـة بطبعي. وكانت المسألة، التي غدت طبعاً فيّ، تُشجع من قبل والدي، لكنني لا أذكر أنني أستطعْت، بعد كل حـوار، أن أدّعي الفهم الكـامل لمـا يريـده. كان يقـول أشيـاء تفـوتني، تعلو، خاصة في ايمائيتها، عن مستواي، لذلك قلت، وقد أثار فضولي:

ـ لماذا، يا والـدي، تومئُ ولا تفصـح؟ أنت تعرف أنني لم أعـد صغيرة إلى الحد الذي تخشى معه علي الافصاح. قـل: ما هـو أعظم أنواع التجربة؟

فكـر والدي قليـلاً، عـاد يـداعب شعـري. نـظر في عيني، لاح إشفاق في عينيه، وأمام إصراري، قال بنبرة حسم:

ـ الحب!

ارتعشت كأن شحنة كهربائية سرت في جسمي، كان قد قـال لي إن الحب مرض لذيـذ، لكنه لم يقـل إنـه مـرض خطير، وأنـه يشفق علي منه. ترى أمرض، أنا الأخرى، فأدخل أعـظم تجارب حيـاتي؟ والدي يخيفني أحياناً. يتكلم بالرموز، يقول أشياء تخصني، لكنـه لا يريد، لسبب أجهله، أن أفهم كـل ما يخصني. يحتـج بأني مـا أزال صغيـرة، مع أنني لست كـذلـك، او لست كـذلـك إلى الحـد الـذي

يتصوره. اليوم، لأول مرة، أفصح، سمّى الشيء باسمه. قال: إنه الحب!

أيها الحب، أيها المرض اللذيذ، تعال.. إنني بانتظارك.

قلت لوالدي:

- ومتى يأتي الحب؟

ابتسم لسذاجتي وقال:

- الحب موجود..

- أين هو؟

- أمامك.. تعيشينه.. ألا تحبينني؟

- ولكنني لست مريضة.. كيف لا أمرض إذا كان هذا هو الحب؟

- الحب أنواع.. حب الوالدين نوع منه.. اللون الأبهى والأسمى، لكنه ليس الألذ ولا الأخطر..

- أريد، إذن، الألذ والأخطر..

- انتظري تجدي.. الحب الذي تريدينه لا يأتي بقرار.. إنه، كيف أقول، قضاء ينزل بالناس..

- عدتَ إلى إخافتي؟.. لماذا إذا كان لذيذاً، يكون خطراً، أو يكون قضاء؟

- لأنه كذلك..

قالها وسكت. كنت أعرف، من تجاربي، أنه إذا سكت فقد أنهى

الحديث، أغلق بابه. . وماكنت أتوصل إلى معرفة ما إذا كان إنهاء الحديث عن تهرب أو عجز. والدي ليس عاجزاً. أراه يقرأ كثيراً. يقرأ في الفلسفة بغير انقطاع، والفلسفة اليونانية أحب الفلسفات إليه. يقول: «منها تحدّر كل شيء» لكنه يقرأ الفلاسفة العرب أيضاً، حدثني يوماً عن أبي سليمان المنطقي. قال إنه لم يؤلف كتباً، لكنه ساعد في تأليف الكتب. كان صاحب مجلس كلام، وقد تخرج فلاسفة كثر، وكتّاب كثر، من مجلسه: أبو حيان التوحيدي مثلاً. «ألهذا تحبه أنت؟» قال: «ربما» نقطة، وصمت! يخيل إلي أن والدي يود لو كان له، هو الآخر، مجلس من هذا النوع. هل لهذا يصر على الكلام معي، ويريد الكلام أن يكون حواراً؟ يعتبرني مجلسه؟ أنا لا أسيغ كلامه الجاف عن المنطق، لكن نظراته المتوسلة تحملني على الاصغاء. وإذ اتابعه، بكل حواسي، يبين الارتياح في وجهه. تراه يريد تعليمي، بصورة غير مباشرة، أشياء يعرف أن المباشرة تقتلها؟

اسمي الغريب. كلامه على الحب. قوله إنه مرض لذيذ. تأكيده أن الحب ألوان، وأن من ألوانه حب الناس. إنني أحبه. أحب الناس، لكنني لست مريضة؟ متى إذن أصبح مريضة؟ متى أحب؟ بودي أن أحب، لو أحب اليوم، غداً، بعده، وبأسرع ما يمكن، حتى أصل إلى التجربة بأسرع ما يمكن، وبعدها الفهم. . يقول إن التجربة فهم. . أنا أريد أن أفهم، لذلك أريد أن أجرب، أن أحب. .

ذات يوم تقدّم رجل لخطوبتي. سألني والدي عما إذا كنت أقبل. ترك لي حرية الخيار، قال:

ـ قرري بنفسك. . الزواج لا بد منه. .

ـ والحب؟

ـ هذا شيء آخر. .

ـ أريد هذا الشيء الآخر. . .

ـ لكنه قد يتأخر. .

ـ أنتــظره. .

ـ وإذا لم يأت. .

ـ كيف؟ يوجد إنسان لا يحب، أو لا يأتيه الحب؟

ـ الحب الكبير؟

ـ الحب الكبير، الحب الخطير كما تقول. .

ـ لا أدري. . أنـا لست معك كـل يوم. . وفي مجتمعنـا هـذا. . اسمعي: المـرأة لم تتوصـل إلى حمايـة نفسها بعـد. . الـزواج، لهـذا السبب، ضروري. .

ـ حتى دون حبّ؟

ـ كل راجعة، على مدى حياتها، تبحث عن راجع. . قد يكـون هـذا زوجها، وقـد يكـون حبيبهـا، الأفضـل، والأعـظم أن يكـون حبيبها.

ـ وما الفرق؟

ـ الجواب يحتاج إلى كتاب. . تعرفين أنني لا أكتب كتباً. .

ـ لكن كلماتك تصلح عناوين للكتب. .

ضحك:

ـ أسهل ما في الكتب عناوينها. .

ـ أنا لن أتزوج دون حب. .

ـ في هذه الحال قد يطول الانتظار. .

ـ ما همّ؟

ـ لكنني بلغت الشيخوخة يا راجعة . .

ـ لن أتزوج سوى راجع . .

ـ راجع قد لا يأتي . .

ـ كيف؟

ـ راجع ليس أي رجل . .

ـ وأنا لا أريد أي رجل . .

ـ راجع . . . . آه . .

ـ زدني إيضـــاحـــاً . .

ـ لا أملك أي ايضاح . . .

ـ لكنك تتكلم بألغاز . .

ـ الحياة لغز . .

ـ والموت؟

ـ لغز الألغاز . .

ـ والمجهول؟

ـ المجهول هو العدم . . هذا تعبير اصطلاحي . .

ـ قلت لي إن كل مجهول سيصير يوماً ما معلوماً . .

ـ ذلك أن حدود الماضي ترجع بنا إلى وراء كثيراً . .

صمت لحظة، وأضاف:

ـ ترجع بنا إلى وراء، فنكتشف التاريخ، نمعن في اكتشافه. لكن الزمن يسير بنا إلى أمام . . وهذا هو المهم . .

ـ إلى أين؟

ـ إلى ما لا نهاية . .

ـ ونحن؟

ـ نمضي مع الزمن. . الأفضل أن نمضي مع الزمن. . حذار من التخلف عنه. .

ـ معميات. . ما أكاد أفهم حتى تستغلق علي الأمور. . أنت لا تريد أن تعذبني، أليس كذلك؟

ـ طبعاً! لكنني أريد أن أشرح نفسي. . ليس لدي سواك من أشرح له نفسي. .

ـ اشرح لي إذن، لماذا أسميتني راجعة. . ومن هو راجع؟

عدنا إلى هذه النغمة؟ راجعة اسم. . اسم لا أكثر. . وراجع اسم، اسم لا أكثر. . هل فهمت؟

ـ لم أفهم. . أمس قلت غير ذلك. . قلت ما لم أفهمه، ما لا يفهم. . وتركت مصيري للقدر. .

ـ لا أحد يترك مصيره للقدر إلا إذا كان عاجزاً. .

ـ ولكنه القدر. .

ـ تقابله الإرادة. . اعطني إرادة أعطك قدراً. .

ـ لم أفهم أيضاً. .

ربت على كتفي، كان محاصراً، وربت على كتفي، قال لي بصوت هادئ، عميق، أرادة نافذاً، كأنما لأتذكره كل حياتي:

ـ ستفهمين كل شيء إذا احسنت التفكير. . ستعرفين الحقائق إذا كان لك الوعي. المجهول لن يبقى مجهولاً. . الأيام، ونحن، والمعرفة، قادرون على جلاء المبهم. . كل شيء سيصير في الضوء. السراج لا يوضع تحت مكيال. . الشمعة خلقت لتنير، لذلك توضع في مكان عال. الأيام تعلّم يا راجعة. .

ـ الأيام تشقي. .

ـ وهي نفسها تسعد . .

ـ لكن الشقاء يغلف الأيام . . أنت قلت ذلك . .

ـ يغلف أيامنا . . ومن يدري، لعله كذلك كي يعلمنا . . إننا بحاجة إلى علم، ومزيد من العلم . .

ـ لا أريد العلم مع الشقاء . .

ـ هذا ليس بيدك . . الجهل شقاء بدوره، لكنه شقاء قاتل . .

ـ أنا لا أهتم بالعلم أو بالجهل . . لا أهتم بالزمن وأبعاده، وبالمستقبل وطريقة توالده . . . بل إنني أضيق بكتبك الصفراء هذه، وبالاسم الذي أطلقته علي، وبأرسطو والمادة والحركة . . وبهذا البيت الذي هو وكر لأفكار لا أفقه منها شيئاً . .

هذا الحوار، بيني وبين والدي، تكرر، تكرر، تكرر، ماتت أمي وأنا صغيرة . والدي لم يتزوج بعدها، لم يرزق طفلاً غيري، هو الذي توفر على تربيتي، وعندما بلغت السابعة أرسلني إلى المدرسة، وبعد المدرسة أغرمت بالموسيقى، فقال لي:

ـ حسناً! سأدعو لك موسيقياً تتلمذين عليه .

جاءني بموسيقي، وعنه أخذت الموسيقى . كان الكمان آلتي المفضلة، وأتى اليوم الذي أتقنت فيه العزف . فقال والدي : «كفى!» ولفتني إلى الكتب، باذلاً جهده ليشرح لي ما فيها . ولما بلغ الشيخوخة، وتقدم واصل الدلجي طالباً يدي للزواج، وافقت، وسألت والدي :

ـ هل هذا هو راجع؟

رفع كتفيه بهزة خفيفة وقال :

ـ من يدري؟

فكـرت: «لماذا، يـا والدي، لا تـدري؟ ثم لمـاذا، من قسمـات وجهـك، من إشارات يـديك، من نبـرة صوتـك المتمـوج بـالـوهن والرغبة في التأثير، تشعرني أنك تدري ولا تميل إلى الجهر بما تدري؟ هـل هذا لأنـه سر؟ لأنه خـوف؟ وهل، وأنت الـذي تعـاملت مـع الرموز، حتى بدوت لي رمزاً، لا تـرضى أن تفارق طبيعتـك، فتقول الأشياء بتحديد؟ أي عالم هـذا الذي أولعت بـه، فأنفقت في سبيـل أن تحيط بـه شبابـك وإرثك من والـديـك؟ وبمـاذا أحـطت؟.. أبـو سليمان المنطقي مات.. أنت لم تسع حتى أن تكونه. وأرسطو لم يزد عـلى أن رسّخ فيـك الإيمان بـالمادة والحـركة.. المـادة أصل تقـول. الروح مشاعر، جملة مشاعر، مركزها الجهـاز العصبي. وهذا جهـاز مادي، والروح تجلياتها، وهذا مثل، هـذا قياس، وفي ضـوئه يمكن أن نرى إلى الأشياء ونـدركها.. ولكم تمنيت، أنـا ابنتك الـوحيدة، أن أرى، في حيـاتك العمليـة، مـواقف تفسيـريـة تـطبيقيـة، لهـذه الفكـرة.. ذلـك أنـــه لا يكفي، ولا يعنيني إن كفى، أن تقـول إن عليـك التفكـير، وأنـك لا تحسن غيـره، وأن الحيـــاة، في الصـراع الـدائر، تـزداد فهـماً لتفكيـرك، وعمـلاً بـه، وأن هـذا ليس فكـرك وحده، ولم يعد فكر الفلاسفة وحده، بـل غدا فكـر أفضل الـرجال والنساء في عصرنا. إنني أعرف فرحتك بجريدة صغيرة، تأتيك حيية كالمرأة التي تحتـرم نفسها، بغـير ألوان، بغـير إعلانـات ولا تزاويق، وأحسـب أن لـك، في بعض الليالي، زيـارات واستقبالات خـاصـة، لمجمـوعة تقـول إنها «طيبة كخبـز القمـح» لكنـك، عـدا ذلـك، لا تكتب، لا تنشر، لا تدعو الناس لفهم مقولـة «المادة والحـركة» التي تؤمن بهـا.. أنـا لا أبخسـك أشيـاءك، أنت، في بعض لياليـك، وعندما تنتهي من ذرع غرفة مكتبـك طولاً وعـرضاً، تنـاديني، تبدو

وكأنك تحتاج لمن تقول لـه ما في صـدرك، ولأنه ليس ثمـة غيري، فـأنت تشرع في كـلام غـريب، تحـاول، جهـدَ طـاقتـك، أن تجعله مفهوماً.

وحين تدلى الضجر عليّ من السقف، ذات ليلة، وارتسم وجوهاً صينية مقنعة عـلى الجدران وزجـاج النوافـذ، قلت لي، وكلك حنـان: «إن الحيـاة عجوز مضجـرة بطبعهـا، وأنـه لا منـاص، فـالمـرء، إذا اكتهل، غدت حركاته، أثقل واسمج، وأن هذا لن يدوم، وإنني، في شهر، في سنة، في سنتين واجدة من يؤنسني، ويدخل البهجة إلى قلبي» فلما اجبتـك، نافـدة الصبر، أن هـذا الشهر لن يـأتي، وهذه السنـة في عالم الغيب، رددت بـأن ثقل الـزمن هـو الـذي يبهـظني، لأنني، في فـراغ عواطفي، وفي انعـدام قضيـة تشغلني، أرزح تحت وطأة هذا الزمن، أحسبه، أعدّ نهاراته وليـاليه «لكن الحيـاة، قلت، تمضي، والزمن يسيل، وبأسرع مما نتصوّر، وأن من حظ البشرية أن ذلـك كـذلـك، وأنـه لا ثبات، ولا شيء ثـابت، وأن العـالم، منـذ نشوئه، قبل مئات ملايين السنين، دار به الزمن وما زال، وانتقل به من طـور إلى طـور، ومن نـظام إلى نظام، وأن مـا لا يحصى من السبارتاكوسيين قد دفعوا حيـاتهم ثمناً للتسـريع بـالنقلة بين القـديم والجديد، الجديد الذي يغدو قديماً بدوره، مفسحاً المجـال، لجديـد آخـر، ثم آخر، في انتقـالات لا تنتهي، وأن الإنسـان هـو الـذي، بعمله، يدفع ويسرع، في النقلة، بين الجديد والجديد الذي يليه».

ثم أنـا شاهـدة، إنك في وحـدتـك، لم تكن وحيـداً، كنت مـع كتبـك، وقلت لي، وأنت تمسـح عـلى رأسي، إن الكتـاب أفضـل صاحب، وأعظم معلم في هذا الوجود، وإنك، بفضله، تعيش مع

التاريخ، وتتوصل، بسعادة، إلى وصل ماضيه بحاضره، واستشفاف الآتي، هذا الذي هو أفضل دائماً. . لكن هذا لم يمنعك، يوم وضعت جارتنا طفلها عندنا، أن تحتفي به كأنك تحتفي بطفولتك، وكم كان عجبي كبيراً، حين عدت من المطبخ، بعد غيبة قصيرة فيه لإعداد الطعام، ورأيتك تدب على أربع، والطفل على ظهرك. يومها أحببتك، أحببتك، وكدت أبكي، وأنا أراك على هذه السعادة. بغير منطق، ولا فلسفة، برغم أنك أكدت ضاحكاً، أن فهم الطفولة، والاهتمام بها، فلسفة بذاتها.

وجاء اليوم الذي زوجتني فيه. باركتني. قبّلت جبيني. كففت دموعي وأنا أفارقك، وقلت لي:

ـ هذه سنة الحياة. .

بكيت. كان الدمع إفراز ألم. لم يكن دمعي. كان دمعك يجري من مآقي. كنت أعرف أن في قلبك ينفر جرح. كان جرحاً وحشياً بغير دم. كان أصم، أبكم، كاتماً لمعاناته، فيه من أيوب جزء، وفيه من قصة معاناته أجزاء، لكنك تحاملت. «هذه سنة الحياة». أيها الأب، يا أبي، يا فهيم المتبحّر، طوبى لجرحك الأخرس. أنا ابنتك راجعة، كنت أفهم ما وراء المظهر المتماسك، ما فوق وتحت الشجرة التي أوقفت، بإرادة أعرفها عنك، عصف الريح أن يلعب بغصونها التي ذبلت. أنت، في شبابك الغارب، كانت لك غصون خضر، مليحة، التوت مع الكهولة. صارت نهباً للريح، لكنك، يوم الوداع، أمرت الريح، يا سيد الريح، أن تكف عن العصف بغصونك التي لواها العمر، فائتمرت الريح. . سليمان! يا حكيم هذا الزمن، لقد انحنيت، بكل قامتك الطويلة، المهيبة، وشعرك

الأبيض، كضوء القمر في ليلة صيف، أمام سنّة الحياة، لأنك كنت تخشى، وأنت تسرع لركوب عربة قطار يسافر بك في رحلة لا عودة بعدها، أن تتركني وحيدة على رصيف المحطة. لم تنشد: «زوروني كل سنة مرة» ربما لم ترد، أو لا تحسن الإنشاد، ولكني قرأت في الأسودين من عينيك، أغنية سيد درويش التي تحبها. ناديتني، ببوح شوق معذب، ألا أهجرك. قررت من جانبي ألا أفعل. أن أزورك كل يوم، ولا أدع الكتب الصفراء تغتالك بحروفها الصدئة، المسنونة، في وحدة أصابعها المعقوفة خناجر وعملها اغتيال من بستسلم، لكن وحدتك كانت قدراً، كما كانت وفاة والدتي قدراً، وأغنيتك التي ماتت على شفتيك، كانت للضياع لا للتحقق، فسنة الحياة، هذه التي أذعنت لها، أسلمتني لرجل لف أصابعه الشيطانية على شعري، لمجرد أنه، بحكم مؤسسة الزواج الملعونة، قد صار مالكي. ولست أشك، بعد هذا العمر، وبعد أن وضعت حقيبتك، غب زواجي، في قطار العمر المسافر، ورحلت، أنك كنت تعرف أن واصل الدلجي، الزوج الذي تقدم لي، وارتضيته أنا، وباركت أنت زواجنا على حسرة، ليس راجع الذي حدثتني عنه، وأن هذا الراجع قد يأتي، يوماً، ويدق على صدري، لكن كيف أفتح له صدراً أغلقه مفتاح الزواج؟ كانت هذه هي المسألة التي بهظتك بعد زواجي، وهذ هو السبب في أنك كنت تسأل: «هل أنت سعيدة يا راجعة؟» ولم يكن لي أن أجيب في الشهور الأولى لزواجي، لكن فراستك اخترقت المجهول من مستقبلي، فأدركت أن واصل الدلجي رجل نفعي، وأنه خدعنا كلينا، لكن عزاءك، وأنت في مقرض الندم، كان يقوم على أن المنتظر الموعود سيأتي. . أن راجع سيأتي، وأنني سأعرف الحب، والفرح، والخشية من حبي ومن فرحي، لأن

الآتي لن يجدني في انتظاره كما كان يتوقع، أو كما كنت أريد، وأن علينا، هو وأنا، أن نقطع خيوطاً من أمراس تلتف حول عنقينا، وأن نتمرد على مؤسسة الزواج، وعلى المجتمع الذي أقامها وألزمنا بها، وكانت له في إقامتها مبررات، لن تلغيها إلا مبررات مجتمع آخر، قادم، أنت الذي بشرتني به طوال حياتي.

لقد خفت دائماً علي. . هل كنت، في المضمر من الغيب، فطنةً أو حدساً، تعرف أنه لن يكون لك أولاد غيري؟ منذ وعيت الوجود، وأنا أحس أنك تعاملني على أنني ولدك الوحيد. وربما، يا والدي، كنت تخاف علي لذلك، أو كنت، في الشوق المستحيل، تتمنى أن أبقى صغيرة، وأنت تقول لأمي: «لماذ يكبر الصغار؟ ليتهم يبقون صغاراً»(ثم تستدرك): في هذا الكلام أنانية منا، نحن الكبار. إن رغبتنا في أن يظل الصغار صغاراً تعبر عن رغبة ذاتية مضمرة، في أن ننسى جميعاً أعمارنا، ونبقى حيث نحن، فلا هم يكبرون، ولا نحن نشيخ» وكانت أمي التي لا ترغب، أو لا تقوى، على مجاراتك في هذه التأملات، تقول لك: «راجعة ستظل حلوة، حبيبة، زهرة البيت، في كل المراحل» فتهز رأسك من سلب، وأسف، وتجيب: «إنما زهور البيت هم الصغار».

لكنك، في تعاملك معي، كنت تضمر غير ما تقول، أحاديثك الفكرية، وأنا في الثانية عشرة من عمري، وفي الصفوف الإعدادية، كانت تتوجه إلي كأنها تستبق عمر الطفولة. وحتى عندما كنت تجلسني على ركبتيك، ما كنت تقص علي حكاية، كأنما الخرافة، هذه التي كنت أحبها، في حكايات أمي، كانت مجهولة، أو

منسيـة عندك، فـأنت تخاطبني بخـطاب العقل، وأنـا، وقتئذ، كنت أرغب في خطاب الخيال. هل هذا لأنني كنت وحيدتك، وأنيستك، وجليستك حين يفرغ مجلسك من الزوار؟

ومن حسن الحظ أنني تمردت. طفولتي تمردت، فكنت أنساب من بين يديك وأهرع إلى لداتي، إلى أطفال الحي، إلى رفيقات المدرسة، وكنت قادراً على تفهم هذا التمرد، وربمـا سررت بـه، لأنك كنت تقول لأمي: «عند راجعة طاقة تريد تصريفها» وبعد ذلـك، درجت عـلى أن تأتيني بـالألعاب، ومـرة، عـلى مـا أذكـر، سحبت أمي من المـطبخ، أرغمتهـا على تـرك تقشير البصـل، كي نلعب الكرة نحن الثلاثة. في هذه الأوقات كنت أحبك جداً، وأراك أقرب إلي، وأعزّ عندي، لأنك تشعرني بأنك، على تقدمك في السن، مـا يزال فيـك شيء من الطفولة، لكن هذه كانت في أوقات نـادرة، فأنت مشغـول عني بكتبـك، بمجادلاتـك، وتميل إلى أن تعلمني الحـوار، والخطابـة وتقـول لي: «تمرّني عـلى الإلقاء أمـام المرآة، طـالما أنـك، يا راجعـة تميلين إلى التجويد، والنـظم، والإنشاد، فلعلك، في مقبـل العمر، صرت محامية، وها أنا، أصبح موسيقية، وأتزوج رجل أعمال، ولا يبقى من كل تأثيراتك علي سوى حب الجدل، واحترام الحقيقة.

من كان يظن، أن العفريتة الصغيرة، المحرضـة في المدرسـة على التـظاهر، الخـطيبة في تـظاهرات البنـات، محرجـة معلميها بـالحوار والنقاش، تنتهي إلى زواج فيه الرقم سيد الحـديث، وفيه المـال سيد الوجاهة، وفيه الركض وراءه سباق هـو الريـاضة اليـومية الممـارسة والمسموح بها؟

إن زوجي عـاشق ملايـين. . وعاشق كـلام على المـلايـين، ومن

الصعب، بالنسبة إليه، أن يحلو حديث في شأن آخر. . أما أنا فما زال علي أن أقف أمام المرآة وأن أخاطب نفسي، بدل أن أخاطب نفوس الآخرين.

صوت ـ ٢

ليس كـل مـا تقوله راجعـة صحيحـاً. . إنني، في الـدفــاع عن نفسي، أدافع عن الواقع، وإليكم الحقيقة:

جاء المليون الأول من حيث لا يجب أن يسأل أحد، وماذا للناس لـديّ حتى يسألـوني؟ راجعة نفسهـا لا تملك مثـل هـذا الحق، ولـو ملكته لصادرته، فما يحسن، في التجـارة، هو الكتمـان، لا لأن ثمة مـا أواخذ عليـه، بل لأن روح العمـل، مقتضياتـه، ، تتطلب، من التـاجر، أن يبقي دفـاتره بعيـدة عن الأنظار. ومـع أني أقرأ في عيني راجعة شيئاً من قلق، وشيئـاً من تساؤل، فـإن قلقها وتسـاؤلها غـير مبررين، وغير مبررة نظرتها المتعالية هذه التي تصدر عن عينين شبـه محتجّتين أبداً، كأن فيهما عتباً على الدنيا. كان الأجدر أن أعتب أنا، فالنعيم الذي تتقلب فيـه نسج يـدي، ويدي هي ذاتي، وقـد كانت جديرة بالتقبيل، وأنا أقبلها حين تأتي النعمـة، أفعل ذلـك شاكـراً،

كما يفعل الآخرون، وكما يفتتح، الأوربيون أنفسهم، وجبة طعامهم بصلاة شكر قصيرة.

أنا لست بروتستانتياً حتى أفعل ذلك، أنا أورثوذكسي مستقيم الرأي. والدي، نعيم الدلجي، كان مستقيماً أيضاً، لكنه يقول لي دائماً: «يا واصل لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت.. هذا كلام من التوراة. أترجمه، أنا أبوك، بقدر فهمي، أعني أعطي للصلاة وقتها، وللتجارة وقتها. مدبغة الجلود الصغيرة، أدرتها بهذا الفهم، وبه نجحت، برغم الطريقة البدائية، أوائل الحرب العالمية الثانية التي دبغت بها الجلود». لا تظنّوا والدي صناعياً إنه حرفيّ لا أكثر. كان يدبغ الجلود ويبيعها، ولديه ثلاثة عمّال. ولم يكن، وقتذاك، قانون عمل ولا ما يحزنون، كان يشتغل، تقريباً مع عماله يداً بيد، وفي آخر الأسبوع، يضع في أكفهم ما تيسّر، خالي البال مما يرتبه القانون، الذي جاء فيما بعد، غبّ الاستقلال، من تحديد ساعات العمل، والأجور، والعطلة الرسمية، والتعويضات أو ما صاروا يسمّونه، بعد ذلك، التأمينات الاجتماعية. لهذا، يمضي الآن وقته، مترحّماً على أيام زمان. إن أيام زمان تعني، بالنسبة إليه، الشباب، وتعني طلاقة اليد من أغلالها، هذه التي صارت، من مستلزمات النقابة، ومن قرارات اللجنة المختلطة للأجور، وما لست أدري من تفرعات، ضاق بها ذرعاً، فأغلق المدبغة، وأنشأ معملاً صغيراً للنسيج، يشتغل فيه بضعة عمال، يسرّحون قبل نهاية الشهور الثلاثة، ثم يعادون إلى العمل وبذلك لا يترتب لهم حق ولا تعويض.

ما عدا هذا، كان والدي رجل تقوى، وبنفس القدر رجل كأس

وفخذ. كان يصلي، ويسكر، ويزني، ويقامر، بترتيب ليس أدق منه ترتيب توالج الفصول. فنحن لا نحس به كيف يقسم وقته، لتستوعب كل هذه المتع، ولا أذكر أنني رأيته متعتعاً، وإن كنت قد رأيته منتشياً، يترنم بأغنيته المفضلة: «عاليانا يانا من غرامهم يانا» وكان يؤثر، من مقاطع هذه الأغنية، ذاك الذي يقول: «آه يا قميص النوم لا تلطم بزو/ تفاح شامي والهوى بيهزو/ يا سعد مين لو محبوب وبعزو/ على السرير وفقّش الرماني». وأعترف، أنا ابنه واصل الدلجي، أن تفقيش الرمان على السرير، أيقظ غرائزي الجنسية في وقت مبكر، وأحسب أنه فعل ذلك بإخوتي وأخواتي.

المهم أن والدي كان ذا دخل طيّب من معمله. أنفق منه بسخاء على تربيتنا وتعليمنا، ولما كبرت،أنا ابنه البكر، اقتادني إلى المعمل، في أيام العطل المدرسية، كي أبدأ تمريني على إدارة العمل تحت إشرافه. وكانت وصيته لي، وهي غير مكتوبة طبعاً، هي التالية: «لا تأمن للعمال ولو قالوا نزلنا من السماء»، وصارحني أنها مأخوذة من بيت في مجراوية الزير سالم، وأنه بدل كلمة النساء بكلمة العمال، وكان، في طبعه، لا يأمن للصنفين.

هكذا تيسّر لي، بسهولة الماء الجاري، أن أجيد حرفتين معاً: الصناعة والتجارة، وأن أشبع نفسي من هوايتين: كرة القدم والخمرة، وأن أبدأ، منذ نبت شعر إبطي، بالبحث عن «الرمان» وتفقيشه على أي سرير.

لقد كانت الصراحة من طبعي. ولم يكن هذا الطبع مسيجاً بأية محرمات. ولكنني لم أتبذّل،ولم أبذر، وحرصت، في كل خطوة، على

اتباع نصيحة والدي في «جمع الحجارة وتفريقها» غير أن العمل حتى في أفضل مواسمه، كان يدر قليلاً، وكنا، لذلك، في الميسورين فقط، نملك معملاً صغيراً، وبيتاً، وبعض عقارات صغيرة، وهذا كل شيء. فالغنى هذه الأيام، لم يكن معروفاً فيما قبلها، وخاصة الغنى في السنوات الأخيرة.

إن هذه السنوات، الدائمة إن شاء الله، هي سنوات ذهبية، اغتنى فيها كثرون، كانوا نركة فصاروا في المعروفين، كانوا لا يملكون شيئاً فصارت أملاكهم أوسع من أن تحد. لذلك، إذا كان لا بد من مساءلة عن الإثراء فهم أحق بها مني، ومع هذا لا أحد يقول لهم كلمة. وأنا لست ضد ذلك. بأي حق نقول لإنسان من أين لك هذا؟ هذه تهمة. مجرد أن تسأل فأنت تتهم، ومجرد أن تتهم فأنت تنوي الإدانة، ولو طبقنا هذه القاعدة الاتهامية، فمن ذا الذي يتبقى فوق الغربال؟ كل إنسان ارتكب، على نحو ما، خطيئة ما، ولو قدر لنا أن نقرأ في قلوب الناس خطاياهم لأثرنا فضائح لا نهاية لها، ولكان علينا أن نوجه اتهامات بلا عدد، وأحكاماً بلا عدد، فمن لم تزنِ يده زنت عينه، أو لسانه، أو سريرته، ومن لم يغشّ في التجارة غشّ في الوظيفة، أو في المهنة، أو في العاطفة، وكله غش، وربما كان غش التاجر أهونها، لأنه يتناول المادة لا الروح.

كل هذه الأفكار يجب أن تُقال، أن تُعرف، أن يكتبها حملة الأقلام في كتبهم. لكن هؤلاء، لا يرون إلا التجار. لا يرون إلا الرأسماليين، كأنما الرأسمال جريمة، مع أنه، في اقتصاد العالم، يُعطى الدور الأول، والفضل الأول، وتعرف قيمته، ويكرم أصحابه، وبلغ الأمر، في الاهتمام الذي أثاره، أن ماركس، وهو

من كبار المفكرين، كتب له كتاباً في مجلدات، كتاباً سمعت عنه ولم أقرأه، وليس لدي الوقت لقراءته، وبودي أن أفعل ذلك يوماً، ولو استطعت لنقدته، فهو، كما بلغني، ينفس على الرأسمالي ماله، وهذه ضغينة، وصاحبها ناشر ضغائن، مثير فتن، وينبغي أن يحاكم، لأنه يهز القناعات المترسخة في عقول الناس، ويعكر صفو الانسجام القائم بين الطبقات ، ويحل محل هذا الوئام الانساني، صراعاً لاإنسانياً، عنيفاً، دامياً، بلغ من شأنه أن ألقى شعوباً برمتها في برك من الدماء.

لكن المؤسف أن عمي، والد راجعة، فهيم المتبحر، ليس من رأيي في هذه المسائل، كنت وأنا أجالسه، أمتلئ غيظاً، أكاد أصرخ في وجهه: «كفى! ما تقوله كفر، فالله خلق الناس درجات ولو شاء، سبحانه، لخلقهم درجة واحدة، إنما لحكمة جعل الرزق على قدر السعي، والذين يسعون وينالون، ينبغي أن يتمتعوا بما نالوا في جو من الهدوء، من الطمأنينة، إذا هم أدّوا ما عليهم من ضرائب، ولم يغلّوا أيديهم إلى أعناقهم، ولم يبسطوها بسطاً كاملاً أيضاً.» لكن اندفاعي كانت توقفه ابتسامة ساخرة على شفتيه، وددت أن أمسحها مسحاً، مرة واحدة وإلى الأبد. لماذا يحسبنا بعضهم، فهيم المتبحر مثلاً، في الأغبياء، ولماذا، في اتهام الغباوة هذا، لا يزيد عن ابتسامة ساخرة؟ أفضل، بدل مثل هذه الابتسامة، شتيمة، ضربة، عراكاً، لكن الذين لا يوافقون على ما تقوله، يصرون على نقضه بابتسامة، وأنت لا تبالي، أو كان يجب ألا تبالي، لكن الابتسامة المسمومة تنشب، كمخالب، في لحمك، وعندئذ إما أن تسكت، وتغادر أو تخرج عن طورك، وتقول ما لا تريد.

لم أكن استطيع المغادرة، وما كان، هو، يطيل اجتماعاته بي. سألني يوماً: «تقول درست في الجامعة الأمريكية ببيروت؟» قلت: «لم أكمل... درست التجارة سنتين فقط» قال: «لم يذهبا سدى»، ترك جملته ناقصة، مبتورة، غامضة، فما عرفت ما يريد. قال عبارته المبهمة وانسحب إلى مكتبه، وصرت أعرف، كلما التقيته، أنه، حين لا يرتاح إلى شيء، ينسحب إلى مكتبه، دون أن يدخل في نقاش معي، حتى كان يثيرني ويضطرني إلى الصياح في وجهه، «مالك؟ الا أستحق النقاش، حتى تلوي بوزك في وجهي وتمضي؟».. لكن راجعة، خطيبتي، نفت شكوكي، أو أرادت، آنذاك... أن تزيلها كي لا ينشب خصام بيننا، ومن حسن الحظ أن الخطبة لم تدم سوى شهور، تزوجنا بعدها، وأقللت من التردد على عمي، وكابر هو، فلم يزرني إلا مرة واحدة، حين جاء لعيادة ابنته المريضة.

أفكر في حكمة الدهر: كيف يقرّب ما هو بعيد، ويبعد ما هو قريب؟ كيف يُجمع ناس، من تفكير مختلف، في علاقات مختلفة؟ وما هو السر، في حياتنا هذه، الذي يدفع أحدنا إلى الآخر، فيكون نسب، لو فكرت فيه، لأنكرته، لكنك انسقت إليه، مُسَيّراً غير مخير؟ يقال: «مكتوب على الجبين» أميل إلى هذه الحكمة. يبدو أنه كان مكتوباً على جبيني أن أتعرف إلى فهيم المتبحر، في تلك الليلة من ليالي آذار، في النادي العربي، حين كنا نحضر أمسية، وكان صديقي ربيع يتحدث إليه، وإلى ابنته، فما أن رآني حتى رغب أن يتعرف أحدنا إلى الآخر، قائلاً في مودة: «عجيب يا واصل، ألم تسبق لك معرفة بالأستاذ فهيم... إنه أستاذنا، ومجلسه العلمي لا يُفَوَّت» وقلت مأخوذاً بإكليل الشعر الأبيض على رأسه، والملاحة في

وجهه: «يسرني هذا التعارف» ثم استدركت، كأنما أعتذر عن بعدي وجهلي بالثقافة، والمثقفين، وانقطاعي عن الحياة الاجتماعية والثقافية كليهما: «أنا مقصر يا سيدي، اعترف بذلك. معملي الصغير، أنا صاحبه ومديره في آن. أعمل بيدي أحياناً.. أرجوك، لا تحسبني في الصناعيين.. ما أنا إلا مالك لورشة نسيج صغيرة، فيها بضعة عمال، ومع هذا فإن المعمل يستغرق وقتي كله.. سقى الله تلك الأيام، في الجامعة الأمريكية، يوم كنا نشتعل حماسة لمثل هذه الأمسيات، وكنت أشترك في تحرير مجلة الكلية».

قلت العبارة الأخيرة وأنا أتوجه بالكلام إلى ابنته. لا أدري لماذا توجهت إليها، إليها دون سائر من ضمّت الحلقة، وجدتني أندفع لاكتسب تقديراً في عينيها، بعيداً عن الغزل والنسيج وشؤونهما.. ذلك أن الملاحة التي ورثتها عن أبيها، وذلك الشعر الأسود والعينان طويلتا الأهداب، والجبين الناصع، شدني إليها. وقالت هي ببساطة: «خسارة يا سيد واصل، الفن، حين يقيض لنا أن نستمتع به، يعطي نشاطاً مضاعفاً في العمل» وقال ربيع: «الآنسة راجعة عازفة ماهرة على الكمان.. وقد حضرت لها أمسية.. «فوجدتني أضيف: «جميل.. جميل والله.. الكمان يأسرني.... باغانيني؟» سألتني: «تعرف باغانيني؟» ما كنت أعرف سوى اسمه، لكنها لم تطلب تفصيلات مني، وهذا ما أنقذني من ورطة.. اكتفت بابتسامة شفّت عن أسنان بيض، جميلة، وراح ألق يتجلى في ارتسامة ساحرة على شفتيها، قالت: «آه! باغانيني.. لقد قرأت كثيراً عنه، وأنت؟» لم أشأ الكذب أو ادعاء شيء ليس لي، لذلك أجبت: «قرأت عنه كتاباً صغيراً.. فتنتني سيرته الغريبة.. الغرابة تفتنني دائماً.. سير

المشاهير في التاريخ تشعل حماستي. . » فقال والدها ضاحكاً: «هذا يسمح بالاستنتاج انك ترغب في الشهرة. . ترغب في سيرة كهذه أليس كذلك؟» فقلت وقد ضبطت متلبساً: «حلمت يوماً أن أكون. . ولكن أنظر يا سيّدي، ما أنا إلاّ صاحب معمل صغير للنسيج» فأجابني: «لا بأس. . حتى في النسيج وأموره هناك مشاهير. . هناك ملوك، في التطور العاصف للصناعة، صار لكل شيء ملك. آمل ألا تخيب في الوصول إلى لقب ملك النسيج، ولو على نطاق بلد صغير كبلدنا».

ماذا كان يقصد بذلك؟ إنه لا يقرأ الغيب على كل حال، وهذه الإشارة إلى لقب ملك النسيج كشفت جوهر طموحي، عرّتني كما يقال. لكم عربي، في هذا المقام، كان يطيب لي. هذه هي حقيقتي، أريد الشهرة، أسعى إليها، ولو كان، في بلد كسورية، من الممكن أن يصبح صاحب مصنع نسيج ملكاً، لتمنيت أن أكونه. غير أن الدنيا مراتب، فإذا لم أكن ملكاً للنسيج فلا أقل من أن أكون وزيراً، أميراً، مالكاً كبيراً، لذلك قلت للأستاذ فهيم: «إذا كانت القناعة كنزاً لا يفنى، فإن بعض الطموح حق. . . على الإنسان أن يكون طموحاً، أليس كذلك يا سيدي؟» فابتسم لي وهو يروزني وقال: «الطموح لا ينقصك على كل حال يا سيد واصل» وربت على كتفي، من تشجيع أو استحسان، لست أدري، كل ما أعرفه، وأذكره، أن وقفة التعارف تلك، لا تنسى. كان فاتحة التعارف، فاتحة شيء بهي كالموسيقى. كانت فاتحة موسيقية من نوع ما، وقد تعلقت بصديقي ربيع ونحن نخرج من النادي، وسألته، بإلحاح قدري، أن يحدثني عن السيد فهيم وابنته، وكنت، في قرارتي، أريد أن استفهم عن ابنته خاصة، ولكم كان سروري

كبيراً حين علمت أنها غير متزوجة، وأنها ذات سمعة جيدة وصيت بعيد في الرزانة، والدماثة، وحب الموسيقى، وحسن التربية، وأنها وحيدة والدها، يتيمة الأم، وأن حياة فهيم المتبحر وقف على ابنته راجعة.. هذا الاسم الغريب، الفريد، الذي لم أسمع بمثله من قبل. طرحت، فوراً، على نفسي هذا السؤال: «يمكن هذا؟ أنا واصل الدلجي، وبعد هذا الانتظار الطويل، أتوفق بزوجة مثلها؟» لقد استهواني، في الحقيقة جسدها. تظاهرت، باهتمام مبالغ فيه، بأنني معجب بذكائها، بموهبتها الموسيقية، بكونها ابنة فهيم المتبحر، لكنني، في الواقع، كنت مستشاراً بعنقها. كان عنقاً جميلاً، وكان ينبئ دون أن يكشف، عن مفاتن كتفيها، وأنا إنسان مغرم بالعنق، بالصدر، بالكتفين، فكيف بامرأة على قوام متسق، طويل، رائع، وتهذيب شديد، وابتسامة ماسية كالتي رأيتها؟ طلبت من صديقي أن يجمع لي أكبر قدر ممكن من أخبار هذه العائلة الصغيرة، العائلة النادرة، المؤلفة من شخصين، وعلى هذا القدر من الانسجام، ومن الهواية العلمية والثقافية. لقد خشيت، نعم خشيت، أن يحول بيني وبين راجعة أنني تاجر، وأدير معملاً للنسيج، لا علاقة له بالثقافة، ولا صلة له بالموسيقى، وأن راجعة، في عمرها الذي قدرته بخمسة وعشرين عاماً، بينما أنا في الخامسة والثلاثين، قد ترفض زواجاً لا يستند إلى حب، ولا إلى توافق فكري، أو هواية مشتركة. بتّ ليلتي مسهداً، بت ليلة عاشق، أنا الذي عرف الحب، عرف الجنس، لكنه لم يعرف العشق.. ولقد أفادتني تلك الليلة الأرقة. أفادتني كثيراً، إذ توصلت، قبل أن يلم الرقاد بجفني، إلى فكرة نيّرة، مؤداها أن عليّ، إذا كنت راغباً حقاً، وأنا كذلك، بالزواج من راجعة، أن أستميل قلبها. لقد هداني

حدسي العملي، إلى أن رجلاً عالماً مثل فهيم المتبحر، يحترم إرادة ابنته، وحيدته، وأنه لا يستطيع، أو لا يريد إذا استطاع، أن يملي عليها رغبته، ناهيك بقراره في شأن زواجها. تظاهري بحب الموسيقى، قد يكون سبيلي إلى رضاها، ثم عليّ، كياسة، أن أطلب، أول ما أطلبه، سماع عزفها، عليّ، مهما يكن جهلي بالموسيقى، خاصة الكلاسيكية منها، أن أبدي الإعجاب، بل الإعجاب الشديد، وأن أعلن أنني، إذا لم أكن عازفاً، فإنني متذوق للعزف، وأن بيتاً صغيراً، لزوجين متفاهمين، متحابّين، ذا دخل معقول، يكفي لحياة هنيئة، وأن حياتي، حياتي كلها، ستكون وقفاً على تهيئة مثل هذا البيت، وإنشاء مثل هذه الأسرة وإسعاد الزوجة التي أنعمت بها علي ليلة القدر.

حين أفضيت بأفكاري هذه لربيع المياس، صديقي، لم يستقبلها بما هو خليق بالصداقة من فرح للصديق. أعرفه رقيقاً، مثقفاً، منذ كنا على مقاعد الدراسة، ولدي حكايات عن شغفه بالموسيقى والرسم، ولعله معجب براجعة، لكنه يعرفها قبلي، ولو فكر بزواجها لأقدم على ذلك. هو، إذن، صديق لها ولوالدها لا أكثر، ولا مصلحة له في عرقلة زواجي منها، فلماذا استقبل ببرود رغبتي في التقدم لخطبتها؟ قال لي: «شفتاك دنستان» قلت: «ماذا؟ أية قبلة تعلق على أية شفة في هذا الكون؟ الاغتسال، يا ربيع يذهب بكل شيء». قال ربيع: «لماذا أنت، يا واصل، نغل بهذا المقدار؟ شطارتك، في التجارة، قد تبيح لك أن تخدع زبائنك، أن تقطع نصف غيمة، وتحملها على الأمطار فوق أرضك وحدها، لكنني، أنا، لست زبوناً، ولا غيمة، فعلام تفسر كلامي وفق هواك، وتقلبه على وجهه السطحي؟ شفتاك دنستان لأنك دنس كلّك، قلباً وعقلاً

وجداناً، ولا ينفع الغسيل أو الاغتسال في تطهير القلب. . أنت نرغب في راجعة لسببين: جسدها وثروتها. . » قاطعته معترضاً: «ومن أين لي أن أعرف أن لديها ثروة؟» قال: «هذه أشياء لا تفوت التجار عند الزواج. . أنت، يا لعين، تاجر من رأسك إلى أخمص قدميك. . والتاجر يدخل في حسابه، إضافة إلى الجمال، وقبله بالتأكيد، المال، النفوذ، الوضع العائلي، المكانة الاجتماعية، وقد تضاعفت الآن هذه «المشهيات»، في زمن النفعية، زمن الإثراء السريع».

جرحتني كلماته. صدقها لا نبرتها. عبست، تظاهرت بالزعل، كدت أزعل حقيقة، لكنني أخفيت ذلك، تظاهرت بأنني لا أحملُ كلامه على محمل الجد، خشية أن يدس عليّ لدى راجعة ووالدها. سألته فقط: «لماذا تقول عني ذلك؟» قال بغير تردد: «لأنك بورجوازي صغير. . » سألته: «هل هذا لأنني تاجر؟» قال: «لأنك ذبابة.. تعرف جيداً كيف تقع على طبق العسل، وقد استخدمت ذبابيتك جيداً في انتمائك الحزبي. . واستغللت ذلك في تجارتك. . أنا أعرفك. أنت لا تؤمن بأي مبدأ، ولا بأي حزب. . أنت تاجر من زمن هولاكو. . ابتعد عن راجعة، وهذا أفضل».

لم أبتعد عن راجعة. ازددت اصراراً عليها. ربيع فتح عيني على أشياء مفيدة في زواجي هذا. هو لم يرد ذلك، لكنني استخلصته من حديثي معه. في أول زيارة لبيت فهيم المتبحر أدهشني ما فيه من ذوق، وتنسيق، وعناية بالزهور، والخضرة، والمكتبات الخشبية، الصقيلة، العنابية، اللامعة، ذات الزجاج الذي وراءه رفوف الكتب، وبعض التحف. كما أدهشني الهدوء. . وكل ما فيه مما

يبهر: من المقاعد، إلى مائدة الطعام، إلى طلاء الجدران، إلى مجلس الأب، في مكتبه، والمهابة هالة على رأسه. قلت في نفسي: «يا ربي، أكاد لا أصدق أن في وسعي ولوج هذه الحياة، ونيل حظوة لدى راجعة، والحصول على موافقة الأب». لقد تفحّصني، أو خيل إلي أنه يفعل ذلك، وأفهمني بصراحة، باقتضاب، أنه لا يمانع، أو لا يريد أن يمانع، إذا وافقت راجعة، مع أنه لا يقر، وربما كان لا يوافق، لو كان الرأي له، أن يتقبل زواجاً بغير حب، وبغير تجانس في المشارب، لكنه، ككل أب، يتمنى السعادة لابنته، السعادة التي نستطيعها على الأقل.. في مجتمع.. وكدت اضطرب وهو يهم بإصدار حكم على المجتمع، لكنه لم يفعل.. وخرجنا إلى الصالون الصغير، واستأذن، بعد دقائق، وعاد إلى مكتبه.

بقينا، راجعة وأنا، جالسين، كنت أتملى مفاتنها، كانت تتفحص شكلي كوالدها. كنت على رشاقة، وشيء من وسامة، وعلى ثقة من أنني سأخرج من امتحان اللياقة ناجحاً، وكان لي لساني... إنني أملك لساناً، لا لأنني تاجر فقط، بل لأنني خلقت هكذا، وجاءت التجارة فصقلت اللسان.. صارت الكياسة جزءاً من العمل، والآن، في حضرة المرأة، صار العمل والتهذيب والكياسة وذرابة اللسان وكل الجوانب المغرية فيّ، مستنفرة للتعبير عن نفسها. وقد أدّيت كل ذلك بنجاح، وحظيت بمعزوفة صغيرة، وبوعد في قبول دعوتي للعشاء.. جرى كل شيء على هذا النحو، على هذا النحو تماماً، ولمست في الوالد أمنية لم تتحقق. تساءلت: «ما هي؟» قال لي: «هل اشتركت، وأنت على مقاعد الدراسة، بتلك النشاطات التي يشترك فيها الطلاب؟» قلت: «مثل ماذا يا سيدي؟» قال:

«النشاط المدرسي أو الجامعي بصورة عامة؟» ذكرت له أنني لم أتم الجامعة، وأن نشاطي كان قليلاً، لكوني مرتبطاً بالعمل مع والدي، في إدارة المصنع، وأخفيت عنه. ما كان يريد أن يعرفه: موقفي الفكري، نشاطي السياسي، لكنه، في اللقاء الثاني، قوّمني على هذا النحو: «أنت، يا سيد واصل، عملي بكل شيء، وهذا يتفق تماماً مع كونك صاحب معمل للنسيج، وتاجراً بالتالي» وقلت في نفسي: «لقد كشفني......» وسألت الله، ألا يحدِّثني عن الكتب، ولم يفعل.. هل أدرك أن المطالعة ليست هوايتي؟ من المؤكد أن ذلك لم يغب عنه، وأنه لم يعطني علامة جيدة في هذا الحقل، لكنه، مع مبره غوري لم يعارض، حين وافقت راجعة على خطوبتي منها، بل بدا لي أنه مضطر إلى ذلك، برغم أنني لم أفهم سبب هذا الاضطرار، في ذلك الوقت.

أنا لديّ مرآة كسائر الناس، وأرى شخصي في مرآتي مثلهم تماماً. ولقد أكثرت من ذلك وأنا أخطو باتجاه راجعة. ارتحت إلى شكلي. ليس من عيب ظاهر أو مستتر في تكويني الجسماني. وإذا كان للمرء أن ينظر بعين الرضى إلى ذاته، فإن هذه العين ضاعفت رضاي. وكنت وسيماً، صناعياً، تاجراً ولي بيت في المزرعة، ولي حساب صغير في البنك، وكل هذه مؤهلات كافية كي أطرق، وأدخل أيضاً أبواب الأسر العريقة في دمشق. وكانت مصاهرة أسرة غنية نتيجة منطقية لإنسان مثلي، وكان صديقي ربيع قد لفتني، من حيث لا يدري، أن فهيم المتبحر يملك ثروة صغيرة أيضاً، وأن ابنته هي وريثته الوحيدة، وهذا ما جعلني أرى أن راجعة إلى جانب جمالها، ثقافتها، تملك، هي الأخرى، مؤهلاتها المؤاتية، وبذلك اكتملت

متطلباتي في عروس المستقبل. إنني أستطيع، براجعة، أن أتقدم إلى أمام، أن أعرضها، دون خوف، في المجتمعات، وأكسب من الإعجاب بها في تعزيز مكانتي الاجتماعية. ومع أنني كنت، سابقاً، متشوقاً لمعرفة شيء عن حياة من سيكون عمِّي من الناحية المادية، فإن الحذر، مع فهيم المتبحر، كان واجباً. لم أشر أيما إشارة إلى هذه الناحية، وبطريقة عملية، افترضت أنه لا يملك سوى بيته وبعض المدخرات، وأن هذه الملكية كافية، وهي ليست، بعد، أقل كثيراً من ملكيتي، إذا ما أخذت في حسابي أنني ما أزال في المعمل والتجارة، شريكاً لأبي، وأخاً لعدة أخوة وأخوات، وأنه في حال تقسيم الإرث، فإن نصيبي منه لن يكون كبيراً، إلى الدرجة التي تجعلني أطمح إلى مصاهرة الأسر الغنية، العريقة في محتدها وغناها، وفوق أنني أحببت، والحب وحده، لو وضع في كفة ميزان، كان يعادل ثروة بكاملها.

وهكذا، على بيِّنة من أمري، خطوت. كنت أريد زوجة جميلة. كان الجسد، الجسد وحده، ذا تأثير علي، وراجعة ذات جسد جميل، وخلق جميل، وسوف أعمل لإسعادها، وسيكون لي، أجل سيكون لي، ما أطمح إليه من ثراء، ما دمت أعيش لهذا، وما دام، كما قال فهيم المتبحر، هناك ملوك للنسيج، أو هناك، على الأقل، مشاهير في هذه الصناعة. إن عزمي، وكفاءتي، وقدرتي على التلاؤم، وعلى التصرف أيضاً، إذا واتى الحظ، ستضمن لي الشهرة، أو الغنى الذي هو أساس الشهرة، ومنطلقها، وليس عليّ، في هذا الصدد، أن أخشى شيئاً، وأن أتهيب اقتحام الميادين بشباب كامل. وزوجة جميلة كاملة، وإرادة لا تلين في أنني سأكون، ومهما

واجهت من مصاعب، وجهاً بارزاً وصناعياً وتاجراً ناجحاً إلى أبعد حد.

كل هذا ظل حلماً في نفسي. ظل طية في سريرتي. لم أفصح عنه لأحد، ولا لراجعة.. على العكس، حدثتها عن مستقبل ملون، فيه وقت رحب لإشباع ما حرمت منه، وهو الثقافة. ولإظهار طيبتي، إنسانيتي، تقدميتي، رحت أتحدث في السياسة كما يتحدث الآخرون، وقد أصغت إلي راجعة بانتباه تام. كنت، دون معرفة بعلم النفس، أملك، بحسي العملي، تجربة ما في فهم نفوس الآخرين. وقد فهمت أن راجعة تريد الاطمئنان إلى هذه الأشياء، فطمأنتها، دون أن أكذب، ودون أن أصدق، فالمشاعر رهن الظروف، وهذه المشاعر التي أبديتها رهن ظروفي المقبلة، وإذن فأنا لا أخدعها، وهي وثقت، أو أضمرت أملاً، في أن ما قلته سيتحقق كله.

تمت الخطوبة بعد ذلك. قلت في نفسي: «هذه أول معجزة على أول الطريق». في الحقيقة كانت معجزة كبيرة. وكانت خطوبتي عائلية، بسيطة، واتفقت مع عمي على عدم إطالتها، وأبديت رغبة عن التجهز والجهاز ما دامت الحياة العصرية، في تلاحق الموضات وتقلبها، لا تستدعي ما كان آباؤنا وأجدادنا، ينفقونه من مال ووقت في سبيل تجهيز العروس، وإنهاء استعدادات العرس. الحق أنني كنت مدفوعاً بشهوانيتي، أو بتلك الاستثارة في جسدي لامتلاك جسد زوجتي المقبلة. ورغم انني لم أكن محروماً جنسياً، إلا أن مفاتن راجعة أثارتني، وكدت، أكثر من مرة، أرتكب حماقة لا تغتفر خلال الخطوبة، باندفاعي الحسي نحوها، ومحاولتي عناقها وتقبيلها، ومحاولة إقناعها أن هذا من العصر، وأنه، بعد الخطوبة، يصبح حق

الخطيبين مشروعاً في مثل ذلك، وأنه لا ضير من بعض الغـزل، من بعض القبل، والعناق، حتى قبل ليلة الزواج.

أخيراً تزوجنا، أقمنا عرساً بسيطاً وسافرنا إلى بحمدون. هناك دخلت على زوجتي، وكانت، كما رجوت، باكراً. هذه البكارة، أساسية بالنسبة لي، لا لأن التقاليد تتطلبها، أو لأن الشرف يقتضيها، بل لأنني، كتاجر، كنت أريد تسلم بضاعة غير مغشوشة، بضاعتي كانت سليمة، وأحسست، منذ تلك اللحظة، أن ملكيتي ازدادت. صرت مالكاً لزوجة أيضاً، وصار خوفي إلى اطمئنان، ولم يعد شبح فهيم المتبحر، بعينيه النافذتين، يبعث تلك الرعشة في أوصالي. الآن كل شيء في يدي: المال، والجسد، والزوجة، والأمر والنهي، ومن حقي أن أكون رأس راجعة، كما الإيمان رأس الحكمة، وهذا شيء جيد ولو لم أمارس الرئاسة على أحد. إنك تبتهج، حين تمتلك حقاً، ولو لم تمارسه، وتبتهج أن تكون لك سلطة، حتى دون أن تتسلط، المهم أن تجمع الخيوط في يدك، وقد جمعت كل الخيوط في يدي، وتقت، منذ العرس، أن أعيد إنشاء راجعة على كيفي، أن أشكلها وفق منظوري، أن أعيد بناءها، كما لو كانت بيتاً خاصاً لي، بيتاً أريد جعل كل ما فيه في خدمة أسرتي. ولم أقس عليها فيما لا تريد. أدركت أن مصدر الخطر، على مشاريعي البيتية، هو عمي، فأضمرت الاقلال من زيارته. ومن طيب الريح أنه هو، فهيم المتبحر، لم يكن راغباً في هذه الزيارات، وهذا ما أراحني وأزعجني، ووجه الإزعاج فيه، أن الوالد لم يكن، في أعماقه، سعيداً بزواجي من ابنته، لسبب جهلته، لكنني لاحظته، وازددت يقينية منه مع الأيام. ذلك أن فهيم المتبحر، لم

يخف، مع تقدم الأيام، كرهه لمفاهيمي السياسية والاجتماعية والاقتصادية على السواء، رفضني إذ رفض هذه المفاهيم، ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن تزوجت راجعة، وصار كل ما يستطيعه هو الندم، يكرّهُ كمسبحة، وأنا أرى إليه وأفهم مصابه، وأكره أن يعتبر ذلك مصاباً، وأتلذذ في أنه يتعذب به. ماذا يظن فهيم المتبحر هذا؟ أيحسبني دون ابنته ثقافة؟ يفاخرني بأنها بنت عالم، بينما أنا ابن دباغ جلود؟ حسناً! دبغ الجلود، في دنيا الواقع، أفضل من قراءة الكتب والتعلق بالخيال. أن تكون دباغاً فأنت تعمل، أما أن تقرض الكتب، كجرذ كبير، فهذا خيال، هذا كسل يجعلك مساوياً للجرذ في ضرره، وتصبح مكافحتك واجبة. بالنسبة لي، أكره جميع القوارض. هو يقول إن لكل شيء فائدته، فما هي فائدة الجرذ؟ إن ضرره، حتى مع التقزز الذي يبعثه في رائيه، محتمل، أما ضرر قارض الكتب، فإنه بالغ بسبب ما يفسد من عقول الناس.

ولقد تفجر الموقف بيني وبين والد زوجتي في إحدى الليالي. كان في زيارتنا، وكان كذلك صديقنا المشترك ربيع المياس. وكان هذا، بصفته رساماً، يكثر من الحديث عن الفن: الأدب، الموسيقى، الرسم، وما كنت أدري أن اهتمام فهيم المتبحر يجاوز الاستمتاع الآني بهذه الأشياء. أنا لا أقول إن اللوحة لعبة لون. هذه اللعبة لها فائدتها التزيينية، لهذا كنت أفضل الطبيعة الصامتة في اللوحة، أما ربيع فيرى أن الانطباعية التي خلقت لنا طبيعتها الصامتة، كانت مدرسة في خدمة البورجوازية الأوربية، ماذا تريد يا سيد ربيع إذن؟

قال ربيع:

- أريد الإنسان.

قال فهيم المتبحر:

ـ الإنسان موجود في الطبيعة أيضاً.

وافقه ربيع:

ـ عندئذ تكون طبيعة مؤنسنة يا سيدي.

قال عمي:

ـ رأيت، في إحدى اللوحات، شجرة ضخمة جداً، والعاصفة تعصف بها بشدة، فتميل غصونها وفروعها حتى تكاد تذهب بها، لكن جذع الشجرة كان صامداً. هكذا هو الإنسان. الشجرة، هنا، متحركة. المدخنة، في لوحة ليس فيها سوى بيوت، إذا أطلعت دخاناً، فهي تعطي إحساساً بوجود الإنسان، إنها الحركة.. لست ضد الانطباعية، إذا كانت طبيعتها الصامتة تتكلم.. تومئ، تعطي إحساساً بالحركة، بعنصر المادة المتحرك، المتغير على الدوام.. أنا هكذا أفهم الطبيعة المؤنسنة.

قال ربيع:

ـ ما أجمل ما تقول يا سيدي.. كأنك تترجم عني، لشد ما هي واسعة ثقافتك..

كان ربيع يمالئ، أكره الممالأة، أكره شروحات فهيم المتبحر. أكرهه هو بالذات، قارض الكتب هذا، الجرذ الضار الذي يذكرني بما صنعت الجرذان بسد مأرب..

قلت:

ـ لا تحشروا الإنسان في كل شيء.. الطبيعة هي الطبيعة، فالشجرة، في الغابة، تحمل قيمتها بذاتها، تحمل «أناها»..

رد ربيع معارضاً:

ـ لا شيء يحمل «اناه» دون «الأنا» الآخر. . الشجرة، في الغابة، ليست دون صلة بالإنسان. الإنسان كان في أصل وجودها. .

فكرت: «الوغد يدجل. . يزيـدني سوءاً في عيني عمي. كـلاهما جرذ. . الجرذان ، معاً، يتبادلان المساندة. يتعاونان علي. هذا يأتي برأي، والآخر يسرع للموافقة عليه. تفو. . أي صنف من الرجـال يكونه هؤلاء الخياليون؟ الحمد لله أنني واقعي. .

قلت:

ـ أنا أؤمن بواقع وحيد هو: أنا، أنا. .

قال عمي:

ـ لكنك، في معمل النسيـج، وفي التجارة، لست «أنـا» فقط. . في معمـل النسيج هنـاك الآخر. . العـامل. . وفي التجـارة، هنـاك الآخرون: المستهلكون. .

بـادر ربيع إلى النهش. . الـذي خجل عمي أن يقـوله تكفـل به هو، قال:

ـ صحيح، . . هناك العامل الـذي تستثمره. . والمشتـرون الذين تسلخ جلودهم. .

امتـلأت غضبـاً. صـار الغضب ريحـاً في دمي، ربيـع صـديق، وأعرف آراءه السخيفة هذه، لكنه، مرة واحدة، لم يتهمني من قبل. الآن، أمام فهيم المتبحر، يريد أن يسجـل علي نقـاطاً. . ماذا يريـد هذا الوغد، رأس المغرز، ابن العـاهرة؟ أضـربه؟ أطـرده من بيتي؟ أفضح خفيقته التي يزعمها بوهيمية، وهي تشرّد متصل؟ وراجعـة، التي تسمـع الاتهام الكـاذب يمزق لحمي، مـا بالهـا سـاكتـة؟ ألسنـا شريكين، في السراء والضراء؟ ألم يقـل لها الكـاهن، عند زواجنـا:

«اتركي أمك وأباك واتبعي زوجك؟» ألا تعرف كلام المسيح هذا؟ نسيته؟ أنساها إياه أبوها؟ ولماذا تصمت والكلب ينهشني؟ ثم وجهها.. عيناها، شفتاها، ملامحها، لا تدل على غضب بل راحة.. مستريحة هي؟ معجبة بربيع المياس؟ تحبه؟ لماذا لم تتزوجه إذن؟ تزوجتني لتكون عشيقته؟ نعم.. هذا هو. الفنانون لا يتزوجون.. يعشقون زوجات أصدقائهم.. حقارة!

جالت كل هذه الخواطر في بالي: كنت أغلي، كنت أحترق كالشمس. لكنني تمالكت نفسي، لست لقيطاً حتى أخاف الاتهام، تعلمت مع الأيام أن أضبط أعصابي، ابتسمت. قلت محولاً التهمة إلى مزحة:

- أنت تعرف، يا ربيع، أنني لا أستثمر أحداً، في معمل صغير، يعمل فيه رب العمل يداً بيد مع العمال، لا يكون استثمار، أما كتاجر، فأنا أبيع بالجملة، الذين يسلخون الجلود هم تجار المفرق. ثم لا تنس، في أي حزب أنا..

- انت اشتراكي. قال ربيع..

- وأكثر..

- وتؤمن بقول المسيح..

- تمجّد اسمه..

- إذن بع املاكك واتبعه على طريق الجلجلة..

- سأفعل ذلك يوماً..

- وطبقتك؟

- مالها؟

- الإنسان ابن طبقته.. أنت لست إلا بورجوازياً صغيراً..

اجبته بحسم:

- الإنسان لا يخرج من جلده..

هنا وجد عمي منفذاً إلى كبدي، قال:

- على كل منا أن يسير، لا مع الطبقة التي ينتمي إليها، بل مع الطبقة التي تبدو قضيتها أفضل..

- إنما أنا مثلك، يا عمي، طبقتنا واحدة.. ألست بورجوازياً أنت أيضاً؟

- كنت.. ولدت في طبقة بورجوازية.. ثم غيّرت موقعي..

- وراجعة؟

- هي الآن زوجتك.

قالت راجعة، لأول مرة في هذه الجلسة:

- نحن زوجان في رأي الكنيسة، لكن أفكارنا تختلف.. لا أدين زوجي، ولكنني، في الانتماء، على شريعة والدي..

- برافو (قلت) هكذا تكون الزوجات..

وبعد صمت:

- الأفضل أن تعزفي لنا قطعة موسيقية..

- أي قطعة تريد؟

- لا يهم.. الموسيقى، بعد كل شيء، نغم.. نغم يضيع في الهواء.. مثل الكلام..

قال عمي:

- الموسيقى الكلامية ليست إلا شكلاً ترتديه الصلاة في أنفسنا.

- لم أفهم..

- الموسيقى نغم لا يضيع.. له هدف..

- والرسم؟

قال ربيع المياس:

ـ والرسم كذلك.. الرسام لا يمجد «اناه» وحدها.. يمجد «الأنا» الآخر أيضاً.

ـ لست مذنباً إذا كانت «انا» ي منفصلة عن الآخر..

قالت راجعة لتحرجني:

ـ وحتى عن زوجتك؟

رغبت في مناكدتها فقلت:

ـ حتى عن زوجتي.. ما دامت «أنا» زوجتي منفصل عن «أنا» ي.

قال عمي محاولاً قطع الطريق على ملاسنة منذرة بيني وبين راجعة:

ـ لندع الفلسفة.. كنا نتكلم في الرسم.. ما رأيك في الرسم..؟ هل له منفعة..؟

ـ أهذا امتحان لعقائدي؟

قال مبتسماً:

ـ لا تخف على عقائدك..

وقال ربيع:

ـ منذ متى صارت لك عقيدة؟

قال عمي:

ـ واصل أكثرنا تجذراً في عقيدته.. وإلا فما معنى هذه «الأنا» المنفصلة عن كل ما عداها؟

ـ هذا ما يسمونه استقلال الشخصية..

ـ لا شيء مستقل في هذه الدنيا بصورة مطلقة.. لا الموسيقى ولا الرسم..

ـ أفسدتم كل شيء.. اخضعتموه للإعلان.. للدعاية الخسيسة..

قال عمي صارماً:

ـ أنا لا أخاصمك.. نحن نتحدث.. أنت، كما علمت منك، تحب الطبيعة الصامتة.

ـ أنا أحب الموسيقى الخالصة، الرسم الخالص.. البراءة.. هذه التي أريدها..

قال ربيع:

ـ البراءة لا تتعارض مع الحقيقة.. البراءة في الرسم عفوية.. عفوية واعية.. الإنسان لدي...

قاطعته:

ـ الإنسان في لوحاتك يبدو مكشراً أبداً، كأن يداً خفية تضربه على أنفه.

تساءل عمي:

ـ ألا تحب الإنسان في الرسم؟

ـ أحبه، لكن لا أريده داعية.. أن نرسم إنساناً، يعني أن نجلوه في حالة من حالاته.. رسّامونا، وخاصة ربيع، لا يرون في الإنسان إلا جانبه الرافض. إذا تواضعوا رسموه متمرداً.. لكنهم، غالباً، يرسمونه ثورياً. يفسدون الرسم بتشنجات كاذبة..

قال عمي:

ـ وكيف تريده أنت؟

ـ أريده طبيعياً، في مسلكه اليومي، في بحثه عن الهدوء، عن الوئام مع صاحب العمل.. أريد الإنسان أخاً للإنسان..

صاح ربيع :

ـ هـذا تبشير. . دعـاية. . كيف تـزعم أنك لا تـريـد دعـايـة في الفن؟

ـ التبشير بالإخاء واجب مقدس. . الثورة الفرنسية نفسها اتخذته شعاراً لها.

ـ الثورة الفرنسية لم تكن تقصد الإخاء بين العامل ورب العمل، بل بين الثوار أنفسهم.

ـ ونحن. ؟ ألسنا ثواراً كلنا؟

حدق فيّ ربيع ولم يقـل شيئاً. أعيـاه الجواب، ربمـا أحرجـه. أنا سألته ببراءة. ولم يكن في نيتي أن أنقل جوابه إلى أحـد، لكنه هـو، رازني بدهاء، والتفت إلى راجعة قائلاً:

ـ زوجك يتقدم بسرعة. .

قلت:

ـ كلنا نتقدم بسرعة. .

قال ربيع :

ـ ولكن ليس في طريق واحدة. .

ـ هل هذا لأني رب عمل وأنت رسام؟ .

ـ بل لشيء آخر تعرفه. .

قالها ونهض، وأصر عمي عـلى الانصراف أيضـاً، رافضاً البقـاء لتناول العشاء معنا. ولم أشأ أن أتمسك به. . كانت زياراته ومناقشـاته تزعجني، تزعجني إلى حد أصبح لا يطاق. .

المهم أن عمي لم يعش طـويـلاً. . بعـد سنـة وبضعـة أشهـر من زواجنا توفي. رغب أن يختلي بابنته قبل الوفاة. لم تقـل ما دار بينهـما

في الخلوة. حسبت أنه اطلعها على أشيائه الخاصة، على ماله وما عليه، لكنها، بعد سنوات، قالت لي إنه حدثنا عن شعور لا يدري مأتاه، شعور بأن الزيجة كانت غير مريحة بالنسبة إليه. وأنه لم يقل ذلك صراحة، لكنه أوصاها بالصبر، ولا أدري بماذا أيضاً. وانتهت مراسم الدفن وتقبُّل التعازي، فأغلقنا البيت، تركناه مهجوراً دون أن ألمح إلى رأيي في بيعه، فلو بيع لوضعت راجعة قيمته في البنك، وكانت هذه القيمة باضت قيمة ما. ولم تشأ، كذلك، أن تخليه وتؤجره، وهكذا بقي دون فائدة، ولم يكن هذا التصرف يروق لي، فليس من العقل في شيء أن يبقى عاطلاً، مجمداً، الأمر الذي لا يتفق، بأية حال، مع وجهة نظري في تصريف الأمور، لكن راجعة تشبثت برأيها، ولم أستطع، بكل كياستي، أن أزحزحها عنه، وكان ذلك قميناً بإثارة سوء تفاهم بيننا، نجحت في تلافيه، ولم تلحظ هي شيئاً.

نحن، في هذه الحياة، نلعب لعبة الاستغباء، أنا أستغبيه، وهو يستغبيني، ونحن الإثنان، نستغبي غيرنا، مع أن كلاً منا يفهم موقعه، طبقته، مصالحه، ويدافع عنها جيداً، لا شك أن فهيم المتبحر، وربيع المياس، يستغبياني، وأنا استغبيهما، لكننا، جميعاً، نفهم جيداً، في أعماقنا، ما نريد، وندافع عن مواقعنا بغير قليل من اللجاجة، وأحياناً بوقاحة، وفي غيرها ندافع بغير القلب واللسان.
عمي، فهيم المتبحر، أذكى من ربيع، وربيع أذكى من راجعة، لكنهم، ثلاثتهم، يقفون في صف واحد، صفّ رصد الآخرين، بينما أنا أقف مدافعاً عن الواقع، لأن عقيدتي، ومصلحتي، تقتضيان ذلك، انني لن أهاجر كالسنونو، أو السمان، أو الطيور الموسمية، سأبقى

في صفي، طبقتي، لأن الآخرين، لا يهاجرون من صفهم، وطبقتهم، وهم يحسبون الحق معهم، ويقيسون الأشياء بمعيار أشبارهم، بينما نقيسها نحن بمعيار الحقيقة.

يريدون الفن محارباً على جبهتهم، ونريده محارباً على جبهتنا، وهذا كل ما في الأمر، لكن الفنانين، جميعاً، وكذلك الأدباء، والموسيقيين، يستهويهم الرفض، بينما يستهوينا القبول. نريد أن نعيش بسلام، في وقت يريدون، هم، أن نعيش في حرب، ولهذا يرفضون الاخاء بين الواقع والمواطن، بين رب العمل والعامل، ويشوهون واحداً من أجمل مبادئ الثورة الفرنسية.

إنهم يحسدوننا، ولكنهم لا يتذكرون، أو لا يوافقون ولو ذكرناهم، كيف صعدنا السلم درجة درجة، وبكثير من العرق والكدح. أنا ثري، هذا صحيح، ولكنها ضربة الحظ، ضربة الجهد، لقد جاهدت كثيراً، وسأعترف لكم صادقاً كيف أثريت:

بعد عامين من زواجنا فاتحت والدي بالاستقلال عنه، أعطاني البيت الذي أسكنه في المزرعة، وبقي المعمل شراكة مع العائلة، وهذا ما غلّ يدي عن حرية التصرف. قلت في بالي، سيأتي اليوم الذيَ أستقل فيه بالمعمل كما استقللت بالبيت، لكن ذلك يحتاج إلى مال، وفي سبيل الحصول عليه رحت أدخر، لكن الادخار لا يرسمل شيئاً، حتى على المدى الطويل، وإلا لكان أي موظف، يدخر قليلاً، قادراً أن يغير وضعه، وهذا نادراً ما يحصل. من هنا يفهم الموظف الشاطر، أن السبيل المستقيم ليس أفضل السبل، لا علينا، أنا لست موظفاً، ولم أكن موظفاً، ولا أحب الوظيفة، الادخار تقتير، تخبئة القرش الأبيض لليوم الأسود، أما أنا فقد كنت

أريـد شيئاً آخـر، أريد ضـربـة حظ، وهـذه لا تـأتي لحـالهـا، تـأتي بمساعدتنا، وكي أساعد ضربة حظي استأجرت بيتـاً، وعرضت بيتي للبيع، فلم يدفعوا فيه أكثر من أربعين ألفاً، لم أبعه. كـان ذلك عـام ١٩٦٨، وفي عـام ١٩٧٥، شقت المحافـظة شـارعـاً، أخـذ بيتي في طريقه، فقبضت قيمة استملاك ٢٠٠ ألف ليرة. كانت هذه ضربـة الحظ الأولى، أما الثانية فقد جـاءت بعد وقت قصـير، وعلى شكـل صفقة غزول. صحيح أن الصفقة لم تسلم كلها. إذا لم تدفع التسعة لا تحصل على العشـرة، في الصفقة دفعت اثنـين في العشرة، وبقيت الثمـانية لي، خـرجت من صفقتي هذه بثـلاثمئة ألـف، فصـار لدي نصف مليون.

مـا أن مضى العام الثـالث على زواجي، حتى صـار لي طفل هـو الركن الأول في المساعدة، ذلك أنني من محبي المال والبنين، هـا هو المـال يصـير، والابن يـأتي، وحلم الغنى، حلم أن أصبـح شهيـراً، ملكـاً للنسيج ولـو في دائرة معينـة، يسـير نحـو التحقق، وهـذا كله جدير بأن يفرح راجعـة، أن يبعث السرور فيهـا، أن يجعلها تحبـني أكثر، تعشقني أكثر، تعبدني، على المرأة أن تعبد الـرجل. وإذا كـان الأمر غير مطلق، ولا بد من الإجابة عـلى هذا السؤال: أي رجـل؟ فالجواب أعطيته من خلال نجاحي: أنا هو الرجل! لكن راجعة، لا تنظر، واأسفاه، إلى الأمـور من الزاويـة التي أنظر منهـا. تريـد، كما تقـول، بعض الخصال في الرجل، أحسب أن من خصاله، بـل أول خصاله، أن يكون كوالدها. وماذا كان والدها؟ هنا يجب، كما كـان يقول هو نفسه، أن تكون النظرة موضوعية. لقـد اعتدت، عمـري كله، أن أولي الوجاهة حقها، فماذا، في تبحّر والـدها، عـلى فرض

أنه كان عميقاً وشاملاً، مما يصنع وجاهة في زمننا هذا، زمن القيمة المادية لكل شيء؟ العلم؟ هذا على رأسي، وسأكون معترفاً به، وخاضعاً له قبل الجميع، إذا كان علماً عملياً. لو أن فهيم المتبحر أفاد من علمه في اختراع نول جديد للنسيج، في تركيب آلة تسرع في الانتاج، في طبخ وجبة صابون لا سابق لها في السوق، لكان العلم الذي أفهمه، ولترك، من جرائه، ثروة كبيرة لابنته. أما أن يتبحر في علوم نظرية، كأن يبرهن أن المادة لها الأولوية، وأن الحركة هي قانون المتغيرات، كما كان يقول لي، نقلاً عن أرسطو، فهذه فلسفة، والفلسفة لا تطعم خبزاً إلا في حال واحد: أن نصنع بها كتباً تباع وتروج في البيع، أو نعتمدها في التدريس. وبما أن فهيم المتبحر لم يفعل الاثنين، فإن علمه لم ينفعه في شيء ولا انتفعت به ابنته في شيء أيضاً. وأما حجتها في أن العلم، والأدب، والفن، وكل هذه الألوان التي هي ترف وحلية وبهرج لخدع السذج، تصوغ وجدان الذين يخترعون ويصنعون، فهذا كلام لا أقبضه أبداً. إن رجل الأعمال هو رجل الأعمال. أنا الآن رجل أعمال. رجل يساوي نصف مليون، لأن معه نصف مليون، فماذا، في دنيا العمل، يساوي والد راجعة إذن؟ لا شيء. قيمته قيمة البيت الصغير الذي تركه، ومئات الكتب التي خلّفها، والغرور الذي رسخه في ذهن ابنته. لقد ذهب هو الآن إلى رحمة ربه، لم يعد يفيد أو يؤذي، وما كان في حياته مفيداً، ولا أدري إذا كان ضاراً، بل أظن ذلك، من ناحية نشر الإلحاد على الأقل، وهذه أشياء أقولها جهاراً، أمام ابنته، كي تفهم، أخيراً، ماذا كان والدها. أنا لا أناكدها. لست من محبي النكد، ولكنني لا أسكت عليه، حتى من أقرب الناس إلي، يكفي، قلت لراجعة، تفاخراً بما لست أدري من

فضائل والدها. لقد ذهب بخيره وشره.. إذن نقطة على السطر. نحن أولاد اليوم، واليوم هو يوم المال، وكل شعر الدنيا لا يساوي ربطة غزل. ربما كنت أبالغ. هذه أشياء تضمر ولا تقال. تضمر لأن الجهر بما يضع المرء في خانة غير حميدة، وغير مستحبة، لرومانسية مثل راجعة، ولكني اضطر إلى قوله، حين لا تترك مناسبة إلا وتستغلها في القدح من روحي العملية، ومدح روح والدها الرومانتيكية، وحتى هذه الكلمات، التي تكثر من تردادها، والتي أحفظها عنها دون أن أكترث بمدلولاتها، صارت تزعجني، فالزوجة التي أنعم الله على زوجها ينبغي أن ترفل بالنعيم، تتمتع به، وتقوم بالواجب الاحترام لجالبه، أو تصمت على الأقل. لكنها تريد أن تعرف مع ورود المال، كيف ورد، من أي مصدر، وبأية طريقة. نحن، في التجارة، في الجمارك، مع المصارف، نتعامل بسندات الاعتماد، والشيكات، والبوالص، والبيانات والتصاريح، وهذه شهادات لا علاقة لها بحسن السلوك. سلوكها الحسن يتوقف على صحتها، وعلى دقتها، على القدرة في تصريفها، تمريرها وبعد ذلك يأتي الناتج، وهو المهم، وبه تقاس موهبة الصناعي والتاجر، لا بشيء سواه.

حين صار لدي نصف مليون، تكتّمت على الأمر جيداً. أن ترى المرأة الصندوق الحديدي في بيتك فهذا من حقها، أن تقدر أن هذا الصندوق ليس تحفة بل خزنة فهذا من فراستها، لكن أن تطلع على ما بداخله، فهذا لين من رب البيت، حتى أمام زوجته، كما أنه تفريط من ربّ العمل، أمام عماله. الصندوق هو الصندوق. ليس نملية طعام، أو براداً، وهو مدعاة فخر، وإنني أفاخر به، وأسمعه

متكلماً حتى في صمته، وهو إلى يميني في مكتبي، أو في غرفة عملي في بيتي. هذا الصندوق، بالنسبة للصانع، والتاجر، وصاحب المال، هو الجهاز، الفتاة رأسمالها شرفها، والزوجة وفاؤها، وربة البيت منظر بيتها، والمعلم مكتبته، أما أمثالنا فرأسمالنا هو مالنا، والصندوق الحديدي رمز هذا المال، شهادته، وواجهته أمام الغير.

المصارف مؤممة في سورية، أنا لا أحتج على تأميمها، كنت أتمنى، تسهيلاً للعمل، لو لم يكن، إلا أنه كان، فما العمل؟ نقف مكتوفي الأيدي؟ في كل تدبير قانوني، مصرفي، وفي كل لائحة تجارية، تبقى ثغرة، ومنها يمرق الذين لا يستطيعون حيال القانون أو اللائحة شيئاً. أنا، بكل ما يتيحه لي العرف، وشرع السوق، وحق المهنة، دخلت من هذه الثغرة، فكرت: ربع مليون مبلغ كبير. حولت مئة ألف ليرة منه إلى دولارات في «تم» سوق الحميدية. هنا مصارف لا تخضع للتأميم، كوى متحركة لتبديل العملة. الصيارفة لهم ثغرات ينفذون منها أيضاً. أمموا المصارف، هذا حقهم، مؤقتاً على الأقل، ولكن للصيرفيين، في سوق الحميدية، حقوقهم أيضاً، ونحن نفيد من حقوق هؤلاء، وهذا شأني وشأن الآخرين. حملت الدولارات، والمئة وخمسين ألف ليرة سورية إلى بيروت. هناك متسع كبير، وحرية نقل الأموال مضمونة، وهذه نعمة كبيرة، وإذن فأنا لم أرتكب أية مخالفة في نقل أموالي. حملتها إلى بيروت، وهناك جمدتها، في أحد البنوك دولارات بفائدة ١٧,٢٥ بالمئة. عدت مرتاحاً. مليئاً بالراحة، وبأشياء كثيرة لمراجعة والطفل ناهض والبيت، لكن زوجتي رغبت في أن تعرف لماذا سافرت إلى لبنان، وماذا صنعت هناك، وحين رغبت في إسعادها، أو إشراكها في سعادتي، أفسدت

علي بهجة الجو. حجتها أن إخراج المال من سورية، حتى ولو كان مسموحاً به، ليس علامة جيدة، تقول: «إذا فعل الجميع ما فعلته، وهذا من حقهم كما هو من حقك، فماذا يبقى في سورية؟» الحجة وجيهة، لكنها ملكية أكثر من الملك، فما دامت الحكومة تسمح بذلك، فهي أدرى بوضع البلد المالي، وليس علي، أو على أمثالي، لوم ولا تثريب. . ولكن راجعة لم ترتح لذلك، وأنا أريد راحتها، لهذا أخذت عهداً على نفسي ألا أطلعها على شيء، أو أفاتحها بشيء. لا أريد لغواً في شأن تجارتي. الحزم! هذا هو القانون، تماماً كما في شؤون التربية، الحزم بندرتيسي، لكن ذلك فتح مجرى للشك بي. وصارت تحركاتي، مع الأيام، موضع شك كلها، وهذا ما دعاني إلى التساؤل: راجعة ساذجة أو غبية؟ وماذا صنع فهيم المتبحر بعقل ابنته؟ الطب نفسه يقول: من المستحسن، لبدن الطفل، ألا يوضع في جام. تعرضه للشمس، في الصغر، يجعل مناعته أفضل. عمي الفاضل وضع ابنته في جام، جعل داخلها أبيض كالثلج، وأعدها، ربما، للزهد، لا للحياة العملية، وهذا منشأ عدم التلاؤم، أو اختلاف وجهات النظر بيننا.

ينبغي أن أعترف أنني أحب راجعة. قل اشتهيها، . وما الفرق؟ هي تقيم وزناً لمثل هذه الفروق. تريد الأشياء في شاعريتها، ترفض أن تسمى بأسمائها، تأبى أن يذكر عضو جارح للأذن، مع أن ذكر هذه الأشياء، في لفظها العاري، يبعث على المتعة، وكل شيء مباح، في شرعي، إذا ما ضمت رجلاً وامرأة غرفة واحدة. خارج هذه الغرفة يحسن التحفظ، التجمل، المداراة، أما داخلها فلماذا التستر، جسداً وكلاماً؟ أين، إذن، نكون نحن ومباذلنا، إذا لم يكن في غرفة نومنا؟ أحسب أنها تريد ما في الكتب في الواقع. قلت لها

أكثر من مرة: «أنت، يا راجعة، لست واقعية أكثر مني، لكن الكتب، وخاصة كتب والدك، ضعيها خارج حياتنا الخاصة. انزلي من عليائك، فكري أننا بشر ولسنا ملائكة» أجابتني: «لست ملاكاً، ولكن بعض صفات الملائكة، شكلها، صورها، طهرها، يعجبني، مع الواقعية لا بأس بشيء من الشاعرية، بشيء من الكلام الجميل، من السلوك «المودرن» الذي يحتفظ، في كل الأحوال، بحد أدنى من «الجنتلمانية» في مثل هذه الأحوال، عند هذه المحاورات، يعتادني القلق، أخاف أن يكون اختلافنا، من هذه الناحية، سبباً في نفور ما بيننا. إنني قادر على التجاوز، لا يضيرني شيء أن تبقى محافظة على رفعة مشاعرها، بل إن هذا يبعث الطمأنينة في نفسي بأنها ستبقى على براءتها الأولى، وكرجل، ورجل شرقي، هذا أدعى إلى راحتي النفسية، لكن المثل يقول: «من يخجل من زوجته لا يأتيه أولاد» وأنا أريد الأولاد، وأريدهم بكثرة، وأريدهم في جو من الحب المتبادل مع أمهم، ولا أقبل تحفظاً، أو عفة، أو خجلاً في غرفة نومنا. هنا، في هذه الغرفة، نحن زوجان، وهي، بعد كل شيء، زوجتي، وأنا حر بالتصرف بها كيف أشاء، وقد أفهمتها ذلك صراحة، وفرضت عليها الطاعة، وحاولت أن تستجيب، لكن تربيتها، وتلك الكتب، وذلك الأب، والموسيقى، كل هذه حالت بينها وبين أن تستجيب بغير كره، وعندئذ أكرهتها على ما لا تحب، ولم يكن لها خيار، «فأذعنت» أو تظاهرت بذلك، وقلت في نفسي: «لا بأس!.. مع الأيام ستعتاد...» وانتفى قلقي، أو بعضه، من هذه الناحية.

انصرفت، بكل همتي، إلى عملي، قسمت يومي إلى قسمين:

النهار للعمل، والليل للتسلية، لي أصدقاء كثيرون. أقربهم إلى نفسي لا يتجاوزون أصابع اليد، هؤلاء اصطفيتهم بداعي المزاج، ومتطلبات الشغل. إن الدكتور طامح، طبيب القلب، من زملائي في السفر، وخاصة إلى بيروت، أديب حواصلي، تاجر الأراضي، ولاهف السمسار، وآخرين، ألتقيهم مرة أو اثنتين في الأسبوع، نشرب، وأنا أجد في الشراب متعة، ثم إن العمل يتطلب أن أقدم شيئاً لضيوفي. أقول في نفسي إن البذخ، في مثل حالي، ضروري. أنا أسعى، وكي تتكلل مساعيّ بالنجاح، لا بد من الرشوة، هذه ذنب؟ إذن أنا مذنب، لكن دون ذلك لا تمشي الأمور. ولقد كنت مستعداً، لو كان في الدين متسع، أن أتزوج امرأة أخرى، وفي اثنتين ارتوي، أكون، في تلك المرحلة، قد شبعت، ترى أشبع؟ خوفي ألا أشبع من ثلاثة: المرأة، والكأس، والعمل.. لكن ما هو العمل؟ بعد كل شيء، أنا لست طبيباً، أو مهندساً، أو مدرساً، أنا تاجر، وعلي، للنجاح، أن أفهم مهنة التجارة، أتقنها، عليّ أن أصعد، بعد إتقانها، دائماً إلى أعلى، دارساً، بكثير من الدقة، موطئ قدمي، ليس معنى هذا أن المجازفة غير واردة. أن تكون تاجراً فأنت مغامر، مضطر إلى المغامرة، وأن تكون تاجراً في مثل ظروفنا، في مجتمع يدعي أنه يسير إلى أمام، بينما نحن.. كيف أقول؟ كلمة البندقة قبيحة، لكنها الكلمة المعبرة. حين يمشي الناس في طرق مستقيمة، يكون عليك أن تستقيم، وعندما يمشون في طرق ملتوية عليك أن تلتوي. لا أقول إن التجار يسيرون في طرق ملتوية، لكن ماذا يفعلون إذا كانت الطرق الملتوية مفتوحة؟ أنا أقل الجميع سيراً في مثل هذه الطرق، لكنني أسيره. هم اضطروني إلى هذا السير، لأنهم هم الذين وضعوا القوانين التي لا تنفع معها الخطوة الشريفة.

المهم أنني، وفق خطة مدروسة، وضعت نصف رأسمالي في الخارج، وبالنقد الأجنبي، وأبقيت معي النصف. هكذا يفعل الآخرون. أنا لن أكون أكثر آدمية منهم. السوق لا ترحم. المزاحمة لا ترحم. الوقوف يعني الجمود، وهذا الموت. . لا أحد يريد أن يموت، وليس من تاجر يقبل أن يخسر، وعليّ إذن أن أخوض في النهر الذي فيه يخوضون. تقول إنه نهر عكر. لا يهم، إذا انتظرنا نقاء الماء متنا من الجوع، أفلسنا بأقل تقدير. عملت بالمبلغ الباقي في التجارة. أبقيت المعمل واجهة. صرت أتاجر بالغزول والأقمشة، أعقد صفقات مثل غيري، وأربح مثلهم أيضاً، وكل ربحي، أو قسمه الأكبر، أشتري به عقارات، أو أضعه في المصارف الخارجية، التحويل من دمشق ممنوع. أقاموا جداراً في وجهنا، خطاً حصيناً، لكنهم فتحوا لنا ثغرة باتجاه لبنان، ومن هذه الثغرة تسرب الجميع، وأنا منهم. يوم الخميس، بعد الظهر، أنزل إلى بيروت، أفعل ما يفعله آلاف التجار والأطباء والمهندسين وتجار الأراضي وتجار العقارات وأصحاب المعامل الخاصة. نتوجه أحراراً إلى لبنان، فنضع ما تحصّل معنا خلال الأسبوع، ونعود أدراجنا يوم الجمعة صباحاً. كانت عودتي، قبل ظهر الجمعة، مؤكدة، إلا في حالات الطوارئ، لأن علي، ظهراً، أن أكون في النزهة المعتادة إلى الزبداني أو بلودان، وفي الموعد المحدد، في مطعم الكرمة، ومثل الساعة السويسرية أوميغا، التي زينت بها معصمي، بدأت سفراتي المكوكية منتظمة بين دمشق وبيروت وبالعكس، مع المحافظة على السرية التامة، السرية التي اقتضتني أن أحفظ رقم الحساب، عن ظهر قلب، فلا أترك، لا في مكتبي، أو في بيتي، أثراً يدل علي.

صوت ٤

نبـوءة والـدي، وهو عـلى فراش المـرض، كانت صـادقة. زواجي بواصل الدلجي كان فاشلاً. أقول فاشلاً كيلا أتجاوز. إنني غصن في شمس، أنا جدول انتهى إلى بركة، فتحت كـل نوافـذ بيتي للريح، وكل أشرعة قاربي للهواء، لا الريح دخلت بيتي، ولا قاربي أبحـر، ليّل الليل عـليّ. نزّ الحزن من الجدران، تسـرطنت الكلمة فصـارت قبيحة، قبيحة، قبيحة.

زوجي يمعن في قهري. هو يدري أنه قهر، لكنه يـريده. يعتبـره تـرويضاً للفـرس الأرنة التي هي أنـا، أواه عـلى الفـرس التي كنتهـا يـوماً!. الأصـح أواه عـلى المـرأة الـوادعـة، المتفتحـة للحيـاة بقلب أخضر. لم تنته هذه المرأة، ولكنها في الطريق إلى ذلك، فالمارد الذي كنت أتـوقع أن تنفـج عنه مغـارة أحلامي السحـرية، انقلب، بعـد الزواج، إلى كيس نقود، وحقيبـة سفر، ليس وراءهـا سوى الاتجـار ببيـع القمـر نفسـه، كسلعـة يـركض واصـل للقبض عـلى ضيـائهـا واستثماره.

يقول إنـه تاجر، وإن هذا مسلك التجار. ربما كان ذلك كذلـك، لكنني أنـا، راجعة فهيم المتبحـر، لم أخلق لأكون زوجـة شـاه بنـدر التجار نفسه، إنني أكره اصطياد الغمامة لتحويلها إلى ورقة نقـدية. الغمـامة، والصبـاح، والمساء، والغـابة، والبحـر، أشيـاء للمتعـة، وزوجي يريدها، في ركضة وراء البحر، إلى كلمات مدونة على جلد دفتره خداعاً.

يذهب كل أسبـوع إلى بيروت، ويعـود منها، ويستحـل الحرام، ويغش في كل شيء، إذا كان كل شيء من متممات لعبته التجارية.

قلت له، في البدء، نصوحة:

ـ يا واصل، أنت تلعب لعبة خطرة، مشبوهة.

قال بدهاء مـزوّق باللطف:

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أدري عـلى الضبط، ولكن انـظر. . أنت تكـثر من التنقـل، وأموالك تتسرب إلى الخارج.

ـ ولماذا حرموا علي أن أتصرف بمالي كما أريد. . المنع، التحريم، التـدخل في حـرية التجـارة، وحريـة التحـويـل، هـو الشيء السيّئ المرفوض.

ـ لكنها الدولة تفعل ذلك. . إنها تراعي المصلحة العامة.

ـ ومصلحة الأفراد؟ أليس للفرد مصلحة أيضاً؟

ـ بـلى! لست معتـرضـة عـلى مصلحــة الأفـراد، ولكن. . دعني أذكرك بالمصلحة العامة، بينما أنت فرد. .

ـ لـو كنت فرداً لكنت محقـة. . أنا لست وحيـداً. أنا واحـد من

كل. . وهذا الكل يريدون إخضاعه لمصلحة كل آخر. . هنا المشكلة. . إنه صراع. . هم الذين اعتدوا. . حق الملكية مقدس، فمن الذي انتهكه؟ لو كان والدك تاجراً لكان رأيه من رأيي. .

ـ والدي كان يرتضي المصلحة العامة، أو بتحديد أكثر، مصلحة الشعب.

ـ هذه كلمة مطاطة. . الشعب، دون تحديد، كلمة مطلقة. . أسألك: نحن من نحن؟ ألسنا من الشعب؟ كيف تريدين أن يعيش نصف الشعب على حساب موت النصف الآخر؟

ـ لكن التجار ليسوا نصفاً آخر. . إنهم أقلية. .

ـ التجار ليسوا أقلية. . التجار، بعد كل شيء، أصحاب ملكية، فإذا اجرينا إحصاء لأصحاب الملكية، تجارية أو نقدية أو عقارية، صارت الأقلية التي ترينها أكثرية. . ثم المسألة ليست مسألة عدد. . لولا الفعاليات الاقتصادية مات البلد. . من الذي يحييه إذن؟ قولي أنت، أو كفّي عن هذه الأفكار التي تسمم الحياة.

حين يحتدم النقاش على هذا النحو، كنت أكف. كان ينقصني الإيمان؟ تنقصني الحجة؟ لا أدري، لكنه في كل مرة، كان يحاول غسل دماغي قليلاً. صحيح أنه يفعل ذلك مقابل بعض التعب، بعض التنغيص، لكنه كان يرى أن واجبه، كزوج، يقتضيه ذلك. كان يقول: «لقد أدخل والدك في روعك أشياء رهيبة. نعم هذه هي الكلمة المناسبة: رهيبة! تتكلمين على مصلحة الأكثرية ومصلحة الأقلية، أليس هذا كلام الهراطقة؟ وهل من هرطقة أفظع من إثارة الناس، بعضهم على بعض؟ أبوك، كما صرت موقناً، تجاوز الفلسفة إلى الإلحاد. . إنه ملحد، وقد كان عليّ، منذ البدء،

أن أعرف هذه الحقيقة، أن أكتشفها في الوقت المناسب، غير أنني أتساءل: ماذا لو اكتشفتها غداة تعارفنا؟ هل كانت تحول بيني وبين خطوبتك؟ وهل كنت أفسخ الخطوبة، لو تبين لي أن فلسفة الوالد انتقلت بهذا الشكل إلى البنت؟ أرغب عن فتح الدفاتر العتيقة. ما تم قد تم.. خطبت وتزوجت وأنجبت، صرت في وضع كان من المفروض معه أن تزدادي هياماً بي. المرأة، بعد كل شيء، تحب الرجل الناجح، وقد حققت نجاحاً يتطلب حباً يبلغ درجة العبادة، لكنني لا أرى ذلك في عينيك.

بعد هذه الخطبة المكررة عن النجاح، وبعد الانفعال الشديد، يهدأ، ويحاول ملاطفتي:

ـ ماذا تريدين يا راجعة؟

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟ .. ألست سعيدة؟

ـ سعيدة..

ـ لكن السعادة لا تشع في عينيك. لا تضوّي في ابتسامتك. لا ترن في كلماتك.. ولماذا لا تجنّين من الفرح لنجاحي؟

ـ أنا أقوم بواجبي..

ـ الزوجة، حين تقوم بواجبها، تكون زوجة لا حبيبة. كيف يستطيع المرء أن يحول زوجته إلى حبيبة؟ هل الذنب ذنبي، إذن، في آخر الأمر؟ وماذا عليّ أن أفعل؟ أنا لا أستطيع قطاف نجمة تتعشقينها؟ ثم ما هي النجمة هذه؟ خيال شعراء.. بوهيمية لعينة مفسدة. الجو الأبوي أفسدك. جاءت الموسيقى فطفح الكيل. لست أمانع في أن تعشقي الموسيقى، أن تعزفيها، أن تحضري حفلاتها،

غـير أنني أتأذى حـين تصادرك الموسيقى. لا أسمـح لشيء، في هذه الدنيا، أن يصادرك. فعل المصادرة أقوم به أنا. هـذا حقي ، أنت زوجتي، وأنا أؤدي واجباتي. أقول لك: هـذه الصفقة عـادت علينا بكذا ألف، فتبتسمين بـاقتضاب، ابتسامة مبتسرة، كأنك غير مبالية، وآتيك بالحلي، فتتقبلينها شاكرة، كأنما أقـدم إليك قـدحاً من المـاء. الذهب غير الماء، لا بد أن تفهمي هذا. والماس غـير الذهب. لكن أنفك لا ينشمر من غبطة كما أتوقع. . . مـاذا تريـدين إذن؟ ها هـو الزوج الغني، والطفـل الجميل، والبيت الـواسع، المفـروش بأجـود الأثاث. ما يغيظني أنك مكتفيـة بذاتـك، تقبلين على اللذة وكـأنك مشـدودة إليها شـداً، وتدعـين أنك بلغت منهـا مـا يكفي، دون أن ألمس الدليل في عينيك، في يديك، حركـاتك، كلمـاتك، حتى بتّ أخاف أن يحل فتور بيننا، مصدره أنت، وأن يتحول الفتور إلى جفاء فقطيعة.

أقول له:

ـ أنت مشغـول، الـوقت كله بتجـارتـك، بعملك، بعمـالـك، بـأصحابـك، وليس لـك هـوايـة، ولست، كـما تـوقعت، متـذوقـاً للموسيقى، للشعر، للأدب، للفنون. . حياتنا جافة، جافة كقـرمة يابسة، ما نفع المال، إذا لم نعرف أن نستمتع به؟

يقول:

ـ كيف أتفاهم مع امرأة تجحد نعمة الله؟

يضيف:

ـ اسمعي يا راجعة! المال بذاته متعة. . ثم إنني، يوم الجمعة. .

ـ إلى الجحيم بيوم الجمعة هذا. . .

ـ ماذا تريدين إذن؟ أنا لن أتحول إلى فأر قارض للكتب، ولست أفعى حتى تخرجني موسيقاك من وكري.. إنني صاحب معمل، وصاحب تجارة، وعملي يستغرقني. ثم عليّ واجبات.. ألا يكفي انني أوفر لك الوقت، والراحة، وأدعو ضيوفي، مرات في الأسبوع، إلى مطاعم المدينة، حتى لا أرهقك بتقديم الضيافة لهم؟

ـ ومن هؤلاء الضيوف؟ بمثل هؤلاء لا تقوم حياة اجتماعية..

ـ الحياة الاجتماعية تقوم من هنا، من بيتنا، من الألفة بيننا. ثم إنك تكرهين زوجات أصدقائي، تزعمين ألاّ نفع فيهن، وأنهن تافهات..

ـ حين لا يعرفن من الحياة سوى الطبخ والنفخ وتربية الأولاد، ومن الحديث سوى الكلام على الفساتين والمجوهرات، أشعر بأنني عاجزة عن مجاراتهن.

ـ هذا لأنك غريبة، ولأن الكتب سممت أفكارك.. ولأن والدك..

ـ كفى! دع والدي..

ـ إنني لا أسيء إلى ذكراه.

ـ مجرد ذكره إساءة..

ـ اسمحي لي، إذن، أن أصارحك: إن حياة والدك كانت إساءة في إساءة! اللعنة على الفلسفة.. اللعنة على فلسفته التي لم أستطع فهمها.. إنه صاحب فتنة.. صاحب فتنة لا أكثر. لكن الله رد كيده إلى نحره، فمات دون أن يستطيع إشعالها..

ـ أتشمت به لأنه مات؟ وهل ستخلد أنت؟

ـ لا أشمت.. استغفر الله.. أنت التي دفعتني إلى هذا الكلام..

ثم يميل إلى المصالحة:

- اسمعي يا راجعة! لدينا طفل هو قرة عيوننا، ولدينـا المال، . . وسآخذك في رحلة إلى أوربا هذا الصيف. .

- سـافرت معـك ورأيت. . أنت ترحـل للعمل. . لا تعـرف أن تستمتع. . لا ترى أهميـة لشيء، باريس مـدينة تجـارة، هذا كـل ما تعـرفه عنهـا. وحـدي زرت المتـاحف والكـاتـدرائيـات. . وحـدي حضـرت الباليـه والسينما، ووحـدي قضيت الليـالي. . لقـد كنت، هناك، أسيرة الفنـدق. . وحتى الطعـام رغبت أن نتناولـه في محلات الخدمة الذاتية، على الواقف. . .

- وماذا يعني لو اقتصدنا المال والوقت؟

- ولماذا نقتصد؟

- ولماذا التبذير؟

- أن نعيش فليس معنى هذا أننا نبذر. .

- لكنك مبذرة. .

- تراني مبذرة لأنك مقتصد. .

- وهذا المال الذي بين يديك؟

- إنه في صندوقك. .

- وماذا ينقصك؟

- لا شيء. . لنتعلم أن نعيش فقط. .

- وكيف يعيشون؟

- أقول لك لنتعلم. .

- وهل العيش علم؟ ماذا هنـاك غير الـطعام والشـراب واللباس والبيت؟

ـ لا شيء.

ـ لنشرب إذن كأساً من الويسكي، سنكون على ما يرام.. ستتحدث في شؤوننا.. ثم ننام.

بعد ذلك يغادرني دون أن أقول شيئاً. يفهم أني أصمت لإنهاء النقاش. أنا أريد أن أنهيه فعلاً.كفى!! إذا كنت قد أخطأت في الزواج فإنني أنا، أنا وليس غيري، من يستطيع تقويم كل شيء عند اللزوم.

أعرف أنه عنيد. أخبرني بذلك كثيراً، حين يتحدث عن نفسه يسرف، يقول: «كنت عنيداً في صغري، والدي قال لي: ما رأيت مثل عنادك.. لكنه، شهادة الله، عناد مفيد، أعني يخدم مصلحة هذا البيت.. أنت يا واصل لم تطلب شيئاً إلا نلته.. تعرف كيف تندفع، لكنك تعرف كيف تتراجع.. ابن أبيك!» من أجل ذلك كنت أثيراً عنده، ومن أجل ذلك رغبت أن أحقق الحلم الذي فشل هو في تحقيقه: أن أصبح صاحب ملايين.. والآن، حين صار الموسم على البيدر، علي أن أعرف، كالمزارع الشاطر، أين أضع الحنطة وأين أضع الزؤان، علي أن لا أترك شيئاً في العراء. الذين يدعون بيادرهم عرضة للأمطار، لا ينفعهم الندم حين يأتي السيل ويجرف هذه البيادر، من أجل ذلك لا أريد أن أندم، قد أكون ساذجاً في أشياء، لكنني فهلوي في أشياء أخرى. هذه تتعلق بتجارتي، وأنا بها خبير، ولن أتأثر بأيما نقاش، أو نكد، أو خصام بشأنها. المرأة موضع اعتبار، ولكن ما أسهل أن يحصل المرء عليها، والولد عزيز، لكنني قادر أن أنجب، أما عملي فإنه إذا تهدم مرة فمن الصعب أن أبدأ من جديد.. إنه كلام جميل ذلك الذي يقولونه، تشجيعاً لمن أفلس، إن عليه أن يبدأ من جديد، وقولة المفلس: «سأبدأ من جديد» فيها عزيمة، لكن الشجاعة، العزيمة،

بعـد النظر، هـو ألا نفلس، هو ألا ننتهي، لكي نبـدأ من جديـد. ليس من العبث أنني، في الجـامعـة الأميـريكيـة ببيــروت، اختـرت «الاقتصــاد السيـاسي». لم أكمــل الـدراســة؟ هـذا شيء، وحسن الاختيار شيء آخر، لقد أفـدت من السنتـين الدراسيتـين في تجارتي، لا اللغة الإنكليزية وحدهـا، ولكن فهم طبيعة العمليـة الاقتصاديـة معها. . . والآن، تأتين يا راجعة، يا عـزيزتي، لتهـدمي كل شيء، باسم الفضيلة. السوق لا تتعامل بالفضيلة، ولا تحتاجهـا. ولا أنا، ولا سواي، بحاجة إليها. . لندعها ترقد الآن، بسلام، ما دام أحد لا يـربح منهـا. لست مع الـرذيلة، ولكن مـا دامت «الـرذيلة» هي فضيلة هذا الزمان. . . أقول «الرذيلة» بمفهومك، لكنها، بمفهومي ، ليست كذلك، التجارة، بعيدة عن هذه المشاعـر النسويـة الرقيقـة، وأكثر بعداً عن مشاعر والدك الخاطئة.

يجيء بـالويسكي. . وينشط في الشـرب يرفُه عن نفسه، يحسب أنـه أرضاني بكلمـة «عزيـزتي» التي تصدر عن شفتيـه لا قلبـه، وفي حـال كهـذه أنسحب إلى غـرفتي، وأبكي والـدي الـذي يسيء يـوميـاً إلى ذكراه.

كان بيتنا في شارع المالكي، كـان بيتاً كبيـراً، اشتراه واصـل بمئة ألف ليـرة فأصبـح ثمنه مليـوناً، هـذا الربـح العقاري، كـان ربحاً إضافياً، ربحـاً، حسب تعبير واصـل، هبط نعمة من السـماء، وقد قـال ذات ليلة: «كم هو جميـل أن يصبح المـرء مليـونيـراً عـلى هـذا النحو. .» ثم أضاف: «ما هو مـزعج، أن كـل المالكـين، في شارع المالكي هذا، صاروا أصحاب ملايين. . . أين الفرادة إذن؟»

إنـه يشرب الـويسكي كل مساء، الويسكي بـالكـولا. . . وكنت

ـ لا شيء.

ـ لنشرب إذن كأساً من الويسكي، سنكون على ما يرام.. سنتحدث في شؤوننا.. ثم ننام.

بعد ذلك يغادرني دون أن أقول شيئاً. يفهم أني أصمت لإنهاء النقاش. أنا أريد أن أنهيه فعلاً.كفى!! إذا كنت قد أخطأت في الزواج فإنني أنا، أنا وليس غيري، من يستطيع تقويم كل شيء عند اللزوم.

أعرف أنه عنيد. أخبرني بذلك كثيراً، حين يتحدث عن نفسه يسرف، يقول: «كنت عنيداً في صغري، والدي قال لي: ما رأيت مثل عنادك.. لكنه، شهادة الله، عناد مفيد، أعني يخدم مصلحة هذا البيت.. أنت يا واصل لم تطلب شيئاً إلا نلته.. تعرف كيف تندفع، لكنك تعرف كيف تتراجع.. ابن أبيك!» من أجل ذلك كنت أثيراً عنده، ومن أجل ذلك رغبت أن أحقق الحلم الذي فشل هو في تحقيقه: أن أصبح صاحب ملايين.. والآن، حين صار الموسم على البيدر، علي أن أعرف، كالمزارع الشاطر، أين أضع الحنطة وأين أضع الزؤان، علي أن لا أترك شيئاً في العراء. الذين يدعون بيادرهم عرضة للأمطار، لا ينفعهم الندم حين يأتي السيل ويجرف هذه البيادر، من أجل ذلك لا أريد أن أندم، قد أكون ساذجاً في أشياء، لكنني فهلوي في أشياء أخرى. هذه تتعلق بتجارتي، وأنا بها خبير، ولن أتأثر بأيما نقاش، أو نكد، أو خصام بشأنها. المرأة موضع اعتبار، ولكن ما أسهل أن يحصل المرء عليها، والولد عزيز، لكنني قادر أن أنجب، أما عملي فإنه إذا تهدم مرة فمن الصعب أن أبدأ من جديد.. إنه كلام جميل ذلك الذي يقولونه، تشجيعاً لمن أفلس، إن عليه أن يبدأ من جديد، وقولة المفلس: «سأبدأ من جديد» فيها عزيمة، لكن الشجاعة، العزيمة،

بعد النظر، هو ألا نفلس، هو ألا ننتهي، لكي نبدأ من جديد. ليس من العبث أنني، في الجامعة الأميريكية ببيروت، اخترت «الاقتصاد السياسي». لم أكمل الدراسة؟ هذا شيء، وحسن الاختيار شيء آخر، لقد أفدت من السنتين الدراسيتين في تجارتي، لا اللغة الإنكليزية وحدها، ولكن فهم طبيعة العملية الاقتصادية معها. . . والآن، تأتين يا راجعة، يا عزيزتي، لتهدمي كل شيء، باسم الفضيلة. السوق لا تتعامل بالفضيلة، ولا تحتاجها. ولا أنا، ولا سواي، بحاجة إليها. . لندعها ترقد الآن، بسلام، ما دام أحد لا يربح منها. لست مع الرذيلة، ولكن ما دامت «الرذيلة» هي فضيلة هذا الزمان. . . أقول «الرذيلة» بمفهومك، لكنها، بمفهومي، ليست كذلك، التجارة، بعيدة عن هذه المشاعر النسوية الرقيقة، وأكثر بعداً عن مشاعر والدك الخاطئة.

يجيء بالويسكي. . وينشط في الشرب يرفّه عن نفسه، يحسب أنه أرضاني بكلمة «عزيزتي» التي تصدر عن شفتيه لا قلبه، وفي حال كهذه أنسحب إلى غرفتي، وأبكي والدي الذي يسيء يومياً إلى ذكراه.

كان بيتنا في شارع المالكي، كان بيتاً كبيراً، اشتراه واصل بمئة ألف ليرة فأصبح ثمنه مليوناً، هذا الربح العقاري، كان ربحاً إضافياً، ربحاً، حسب تعبير واصل، هبط نعمة من السماء، وقد قال ذات ليلة: «كم هو جميل أن يصبح المرء مليونيراً على هذا النحو. .» ثم أضاف: «ما هو مزعج، أن كل المالكين، في شارع المالكي هذا، صاروا أصحاب ملايين. . . أين الفرادة إذن؟»

إنه يشرب الويسكي كل مساء، الويسكي بالكولا. . . وكنت

أجلس قبالته أتأمله. إن شيئا يشلني في هذا البيت، كان أكبر مما يجب، وفي كبره كنت أضيع، أحس بحاجة إلى ملء الغرف حتى تضيق. أحنّ، دون انتباه، إلى كوخ. الكوخ يلائمني، يكون بحجمي، فاتحته بما أشعر به فقهقه: «أنت لا تقدرين النعمة.. بيت كالقصر، وتشعرين بالضجر؟» قلت: «كبره هو الذي يشعرني بالضجر. أجده أكبر مما أريد، أكبر مما نحتاج، هل تفهم ما أعانيه؟» أجاب:

ـ وكيف كانوا، في الماضي، يسكنون القصور؟

ـ لا أدري..

ـ أنت تحنّين لبيت والدك..

ـ لا أنكر ذلك.. كان بيتاً صغيراً وجميلاً..

ـ هذا، عدم المؤاخذة، هراء.. إنني، يا راجعة، لا أستطيع حتى المقارنة بينهما، بيت بمليون..

قاطعته:

ـ لكن الملايين لا تصنع سعادة..

ـ أفهم.. المال يحتاج إلى بنين.. وها نحن، والحمد لله، قد صار لنا ولد.

ـ الولد بعض السعادة، وليس السعادة كلها..

ـ هذا مؤكد، الولد نصف السعادة، والمال نصفها الآخر، نحن نملك المال أيضاً، بيتنا وحده بمليون..

«أقول له: إلى الجحيم بالبيوت والملايين كلها؟»

ستة أعوام مضت على زواجنا. كنا، في البدء، نسكن بيتاً صغيراً في المزرعة. كان واصل تاجراً صغيراً. كل التجار، في شارع

المالكي، كانوا صغاراً، كبروا بسرعة. في أيّ زمن يكبر التجار بسرعة؟ اشترى هذا البيت، انتقلنا إليه، صرنا من الطبقة الثرية. فرشنا البيت جيداً: ثلاثة صالونات، غرفتان للنوم، غرفة للضيوف، غرفة عربية. شرفتان كبيرتان، سجاد، آلات كهربائية. مطبخ ايطالي. القهوة تبرد، إذا نقلت من المطبخ إلى الشرفة، كانت المسافة كبيرة. كان البيت مفخرته. ثروة ثابتة كما يقول، لكنه يأسف «إنها ثروة لا تبيض» وعندئذ، يطيب له الكلام، لا على ثروته فقط، بل على توالدها أيضاً. الليرة تبيض، والألف تبيض، والمليون يبيض، وفي ممازحة يسألني:

ـ وأنت، يا راجعة، متى تبيضين ولداً آخر؟

كان هذا التعبير يشعرني بالدونية، كانت رومانتيكيتي تتأذى كأنك دلقت على ثوبي الأبيض فنجاناً من الزيت، لذلك أرجوه:

ـ أليس لديك كلمة ألطف؟ أنا، بعد كل شيء، لست دجاجة..

ـ كل امرأة دجاجة.

ـ وكل رجل ديك؟ أليس كذلك؟

ـ لا أقصد هذا.. الكلمة في حدودها.. البيض هم البنون، والدجاجة أم البنين.. وفي هذه الحال تكتمل البهجة.. يموت الإنسان مرتاحاً..

ـ يعرف أن ثروته إرث لبنيه.

ـ يعرف أن الغرباء لن يسطوا عليها.. اسمعي يا راجعة: هذه، الثروة، شغلت بال الناس منذ وجدوا. البنون، حين يرثونها،

تصبح محفوظة. . لذلك أنتظر، بقلق وشوق، يوم تبيضين ولداً آخر.

أقف كأني صفعت:

ـ كفى! اللعنة على هذه اللفظة. . أكاد أراجع تقززاً. . إنك بارع في تجريد الأشياء من بهائها. . لا أريد سماع لفظة كهذه. .

ـ كيف يقولون ذلك فلسفياً؟

«يا للسماجة»

ـ اسأل الفلاسفة. .

ـ لا بد أنك سمعت شيئاً من هذا القبيل من والدك. .

ـ والدي كان ينتقي ألفاظه. . لم يكن سوقياً. .

ـ لذلك عاش بائساً. . بدّد الثروة الصغيرة التي تركها له والداه. . لم يعرف كيف يجعلها تبيض.

أفرّ إلى غرفتي، أفكر: «المصيبة أن هذا الإنسان، بكل بيضه الزنخ، سيلقي بنفسه علي، حين يتقدم الليل». كانت هذه الخلوة الليلية، هذا التعاطي المجرد من الشاعرية، يرهقني كأنني. حسناً! كنت أشعر بالاشمئزاز من التجويفة السوداء داخل فمه، ومن شفتيه اللتين تقطعان نتفاً من لحمي، فلا يكاد ينتهي حتى أهرع إلى الحمام، وبكثير من العنت أتوصل إلى غسل نفسي.

ومع أنه لم يكن قبيحاً، ولا تنقصه الوسامة، إذا أخذنا الأشياء بموضوعية، وأن سمرته الخاصة، وشعره الأسود، المجفف بالسشوار، وعينيه المستديرتين، تعطي طلعته صورة رجل مقبول، فإنني اكتشفت فيه عيباً مغيظاً بعد الزواج: كانت ذقنه، في استدارتها التحتية، صغيرة، مضمومة إلى الداخل. وقد جربت ألاّ

آبه لذلك، لكنني لم أستطع نسيان هذه العيب. ومع مضي الأيام، ازداد غيظي من نهاية ذقنه المضغوطة، وازداد انزعاجي من لجاجته في طلب الجنس، وانصرافه إلى عمله، لا بدافع من الجهد البشري الواجب حيال العمل، بل بحرص الإنسان الساعي إلى الكسب، ولا شيء غيره، حتى أنه، في بيته الأنيق، لم يفكر بلوحة لأحد الرسامين، ولا بمكتبة، سوى الأنسكلوبيديا بريتانيكا، ومجلات اقتصادية، وصحف يهتم منها بجداول البورصة وأسعار العملات.

كان قد اغتمّ كثيراً في نهاية الستينات، حين صدر قانون التأميم، لكن هذا القانون لم يشمل معمل النسيج الذي يملكه، وإن كان خوفه، من تشميله، ظل قائماً، وما برح قائماً، حتى بعد أن تأكد، مع الأعوام، ألا تأميمات جديدة، وأن معامل الغزول التي تأممت، ليست ذات تأثير ضارّ عليه. بالعكس، فقد عرف، مع أمثاله من أصحاب المعامل الصغيرة، كيف يتعامل معها بذكاء، تطور إلى شطارة، وغدا القطاع الخاص، الذي يعدّ واصل نفسه واحداً من ممثليه، نعمة جادت بها السماء. كان، قبلاً، يشتري الغزول من السوق، ويخضع لتموجات الأسعار، أما بعد التأميم فصارت له كوتا من الغزول، محددة السعر، ينسجها ويبيعها بسعر غير محدد.

في البدء، قال لي، فكرت في الهجرة، قلت في نفسي: «هذا بلد لم يعد يعاش فيه». . ولكن. . كل عقدة لها حلال. . أنا تاجر أباً عن جد، وقد وضعت رأسي إلى جانب رؤوس أمثالي وفكرنا: «القانون. . من ناحيته التشريعية، لا يمكن الطعن فيه. . إذا رفضنا ارتطمنا بجداره، وإذا قاومنا، صرنا وراء هذا الجدار . أخيراً اهتدينا إلى الطريقة السليمة. .

لم أعلّق، كنت قد مللت حساباته وأحاديثه التجارية، فأضاف هو بلهجة فيها غير قليل من الزهو:

ـ ركبنا جدار القانون. .

ـ ولكن القانون لا جدار له. . إنه كتابة على الورق. .

ـ ليكن. . أنا أضرب مثلاً. . أرادوا، بقانونهم، وضعنا أمام جدار فماذا نفعل؟ الجدار لا ينطح. أنت مثقفة. . والدك كان يعرف أن الجدار. .

قاطعته:

ـ والدي لم يكن يهتمّ بالجدران. .

ـ ولكنه كان يحفظ الشعر. .

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شك أنه يعرف مصير قرنيْ الوعل الذي أراد مناطحة الصخر. .

ـ وبعد؟

ـ نحن كنا أذكى من الوعل. . ومن هو الوعل؟ إنه، في آخر الأمر حيوان، وأنا تاجر. . تاجر من دمشق.

ـ لدستويفسكي رأي غير جيّد في التجار. . لا يضعهم في خانة الأذكياء. .

ـ ربما، ربما. . هل كان دستويفسكي هذا. . فيلسوفاً؟

ـ ديستويفسكي كان روائياً. .

ـ ليكن كما تقولين. . لكن ذكاء التجار لا يعرفه الفلاسفة أو الروائيون. . إنه، بكلامنا العادي، شطارة. .

ـ وما هي شطارة التجارة التي تعتبرها نوعاً من الذكاء الخاص؟

ـ البراعة.

ـ قل الحيلة. .

ـ وما الفرق؟

ـ الحيلة لا تستقيم مع الأخلاق. .

ـ للتجارة أخلاقها. . كل فئة لها أخلاقها. . لا تجـرّديني من أنبل صفة فيّ. . .

ـ العفو. . أنت نبيل وكل التجار نبلاء.

ـ أتسخـرين!؟

انتصب على قدميه في ارتفاع حاد إلى أعلى، ساعده على استقامته أن جذعه كان في نضج الرجولة، قال وهو يقطع الصالون بخطى بطيئة، جيئة وذهاباً، وسيكارة تحترق على مهل في زاوية فمـه: «أي نـوع من البشر كـان والـدك؟. . إنـه، بعـد كـل شيء، مهـووس بـالكتب، وها هي الكتب، في البيت الـذي خلّفـه، يـأكلهـا العثّ والغبار. . أنا لن أهتم لها، اللعنة على جميع الكتب. . زميـلي فريـد كان رفيقي في كلية الاقتصاد، افترقنـا منذ زمن، ذهب إلى اميـركا، درس الاقتصـاد السياسي، كتب ذات يـوم: «إنني لا أرى في محافظ أبناء الفقراء الـذين يذهبـون إلى المدارس كتبـاً ودفاتـر. . أرى فيها متفجّرات ضد النظام الاجتماعي القـائم». كان والـد فريـد ملاكـاً عقارياً كبيـراً، بكلمة أخرى كـان إقـطاعيـاً، لكن هذه الكلمـة التي كان لها بريقها ذات يوم، غدت سبّـة الآن. لا بأس! أرسلت، أنـا الذي لا أحب المراسلة، كتاباً إلى فريد هنأته فيـه على مقـاله. . إلى الجحيم بكـل الكتب، وبكل مقتنيهـا وقـرائهـا، لقـد سمّم والـدك أفكارك بكتبه. . من الخـير أن هذه الكتب مـا تزال هنـاك، في بيت الأبوة القديم، أعـرض عليك أن نبيعهـا. . بينها مخـطوطات. . قـد

تكون مخطوطات ثمينة. . من المؤكد أنها ثمينة، وسيُدفع بها ثمن غال. . لا أريد مكتبة في بيتي، سأعارض في نقلها إليه. وماذا نفعل بها؟ إذا رغبت اشتري لك مجلات مسلية. يجب أن تعرفي من أنا، ومن أي بيت، وأية عائلة. .

يظل، كذلك، يذهب ويجيء مهتاجاً. إنه في حيرة من أمره: يراضيني، أم يستمر في مناكفتي ويذهب إلى فراشه وحيداً؟ بعد قليل يخرج من مكتبه «راجعة، يقول، أنت فتاة عاقلة، أكثر ما يضجرني فيك عقلك، هذه نتيجة سموم الكتب، لديك ثلاثة تلفزيونات، وبرادان، ومسلجتان، وغسالة كهربائية، وماذا تريدين أكثر؟»

يتوقف، تتنازعه رغبتان: المصالحة والمغاضبة. يقول:

ـ كل التجار نبلاء في رأيك إذن؟

ـ ألا ترضيك هذه الصفة؟

ـ ولكنك قلتها باستهزاء. . . ما اسم كاتبك الفاسق الذي شكك في ذكاء التجار وقال عنهم ما لست أدري؟

أجبت بنبرة فيها قسوة ولا مبالاة:

ـ قال إن بعضهم أغبياء. .

ـ إذن أنا بنظرك غبيّ؟

ـ أنت ذكي بطريقة خاصة. .

ـ ما هي من فضلك؟

ـ أنت تعرفها ولن أزيدك بها علماً. .

ـ لن أناقشك فيها. . لتكن ما تكون، المهم. .

قاطعته:

ـ المهم أنك تغتني أكثر فأكثر.

ـ أليس كل هذا لأجلك؟

ـ من يـدري. . أنا، في هـذا البيت، مثل المسجلة، والتلفـزيون والمكواة الكهربائية.

ـ وكيف كنت عند والدك؟

ـ دع والدي. . كان يحيا حياة أخرى. . تماماً. .

ـ كان رجلاً خرفاً. .

ـ يجوز. . .

ـ تتحدينني؟

ـ افهم الأمر كيف شئت. . والدي كان عالمـاً يؤمن بقيمة الفكـر والأخلاق. ولم يغتر بك كرجل أعمال ناجح. ولا قدرك بثروتـك، لكنـك خدعتـه بكلماتك المعسولـة، بتـودداتـك الصغيـرة. وكـان مضطراً.

ـ كان مضطراً إلى ماذا؟

ـ إلى أن يزوجني قبل وفاته. . كان يستشعر دنوّ الأجل. .

ـ وما هي العيوب التي ظهرت فيّ بعد الزواج؟

ـ أنت لا عيب فيك!

ـ ما من إنسان إلا وفيه عيب. .

ـ عيبك أنك تركض وراء المال. .

ـ هذا قانون. . التجارة منافسة. مبـاراة. ركض وراء الربـح. . التـوقف فيهـا يعني الجمــود. . والجمـود التـراجـع. . أبقى وراء الآخرين؟ أدعهم يأكلونني؟. . افرضي التجار سمكاً. .

ـ السمك حيوان بحري؟

ـ ونحن. . من نحن؟ حيـوانات بـرية. . أمـا قرأت، أولم يـذكر لك والدك، في جملة الأشياء التي ذكرها، أن الإنسان حيوان. .

ـ ليس حيوانا كما تظن. . قيل عنه، مجازاً، إنه حيوان اجتماعي. .

ـ ليكن كذلك. . الحيوان الاجتماعي حيوان أيضاً. . وإلا ما معنى العبارة؟

ـ معناها أنه لا يستطيع العيش وحده، بمعزل عن الآخرين. .

ـ والآخرون وحوش أيضاً. . لست من محبي الفلسفة. . أنا لا أتعاطى هذا اللون. . الإنسان حيوان. . ويحتاج إلى العيش مع حيوانات. . وليكن الجميع حيوانات اجتماعية. . ماذا يبدل هذا الأمر من حقيقة أنهم يتنافسون ويتصارعون كحيوانات الغابة، والأقوى هو الذي ينتصر؟ أنا ضربت لك مثلاً بالأسماك. حتى في السرب الواحد، وفي الصنف الواحد، إذا كبرت سمكة عن الأخريات، أكلتهن. . أحسب أنك تعرفين المثل القائل: «السمك الكبير يأكل الصغير» إذا كانت مثل هذه الحقائق غير موجودة في كتب والدك، أو في الكتب التي قرأتها، فهي موجودة في الحياة. . الحياة هي المعلم الأول. . أنا تاجر. . حياتي تجارية، وأنا غير مخيّر في جهل قوانينها، أو في التقصير في تطبيقها. . افهمي إذن. . افهمي يا راجعة. . إنني أتعب، ولكن من أجل مَنْ بعد كل شيء؟ من أجلك، من أجل بيتنا. . حاولي أن تفهميني. ابتسمي قليلاً. . إذا ذكرت والدك بكلمات غير لائقة فأنا أعتذر. . أعرف، أؤمن، أنه كان رجلاً محترماً، كان شيخاً جليلاً. . وقد ربّاك خير تربية. . لكنني أريد مصارحتك بشيء كان خافياً علي. . علمته فيما بعد.

ـ وما هو؟

ـ والدك كان عضواً في جمعية سرية. .

قالت مغاضبة:

ـ هـذه من خصوصياته، فـما شـأنـك أنت بـه؟ . . ثم هـذا هـو السر؟ . . يا له من سرّ إذن!

ـ يـا ربي. . كلما حاولت مـراضاتـك استشعرت إهـانـة وازددت غضباً . . أردت، وهذا معروف عن الذين يتعاطون الفلسفـة. . أنه كان هرطقياً . . وله صلات مشبوهة.

ـ أهذه تهمة جديدة؟

ـ أبداً . . ما أردتـه أنه كـان يتردد عـلى أناس مـاديين. بينـما أنا، واحفظي هذا جيداً، اؤمن بالروح.

تـأملته مليـاً. فكرت فيـه، في سلوكه، في أقـوالـه، في الـطبيعـة اليقينية للصح الذي يعمله، في وجدانه المغسول جيـداً بماء معـطر، في ذقنـه المضغوطـة، في شخصيته المنسجمـة مع نفسهـا، في التلاؤم العجيب بينه وبين الفساد، في اطمئنانه، كتاجر، إلى حسن الوسائل ما دامت تبرر غاية الربح التي هي عنده غاية حياة كـاملة، وقلت في نفسي: «واصل معذور في كل شيء. الغلط الكبير الـذي اقترفـه أنه تزوجني ، هذهـغلطتي أيضـاً . . ثم من المسؤول عن كـل هـذا . ؟ والدي هو المسؤول لكن والـدي كانت تـرعبه فكـرة أن يموت وأبقى وحيدة. كيف خانه بعد النـظر، في موضـوع خطير كهـذا؟ أم تراه، وهو الزاهد في الدنيا، أرادها رغيدة لي؟ ثم أليس هذا أمـل كل أب بالنسبة لمستقبل ابنته؟ واصل كان تاجراً، وكـان يتاجـر بشرف، إذا أخذنا النسبـة في الشرف، وجـاءت قاذورة الفسـاد، فتحها إبليس، وتدفق ماؤها العكر، فغرق فيه الناس. . وكذلك غرق هـو. أصبح يرشو، ويتملق، وينافق، ويستبيح كـل المحرمـات، وهذا مبـرر من وجهة نظره، وعليّ أن أفهمه كـما هو، لا كـما أريده أن يكـون، عليّ

أن أكفّ عن قـول ما لا يجـوز، ولا أسمح بـه لنفسي كزوجـة، لهـا ولد، وحامل، وزوجها كـل من بقي لها، وهـو، برغمهـا، يسير في الطريق الملتوي الذي يسير بـه كل الآخـرين من أمثالـه. إنه يتكلم بمنطق تاجر. . أنا أرفض هـذا المنطق، والـدي كان يرفضـه، الـذين كـان يجتمع بهم يـرفضونـه. . كانـوا يفهمون الـروح بشكل أجـلى، أنقى، أمضى، كان اعتبارهم المادة اعتباراً لواقع الحيـاة، اعتباراً بـأن الحياة تمضي، وستظل تمضي، وأنها في سيرورتها تتغير. . وأنها تغيرت في بلاد أخرى، تغير فيها منطق التجار نفسـه. . المثل الـذي ضربـه واصل عن السمك صحيح. . التاجـر الكبير يـأكل الصغـير، كلهم يركضون كي يكونوا كبـاراً، كي يكونـوا ذئابـاً، هذه حـال غابتنـا، وعلينا، إلى أن يسود قانون آخر، أن لا ننكر هذا القانون. الاقتناع به شيء ورفضه شيء آخر. . لا بدّ من التعاطي، في حياتي الـزوجية التي فـرضت عـليّ، دون مشـاكسـة زوجي. . إنني محكـومـة. . محكومة. .وهذا الجنـين الذي في بطني قيد جديد في يـدي. . والدي علّمني الـوفاء. . ولكن لمن؟ قـال إنني سألتقي راجـع. . هـل كـان يقصـد الـوفـاء لـراجـع؟ ومن هــو راجـع هـذا؟ متى يـظهـر؟ متى يـأتي؟. . . وهـل إذا أتى أستـطيـع أن أخلص شعـري من أصـابـع واصـل الأخطبـوطية؟ هـل أستطيـع أن أترك بيتي وأولادي وأتبعـه؟ وإلى أين؟ إنني أواجه مجهولاً، ظلمـة، مصيراً غـير محدد، وهـذا ما يفرض عليّ أن أرتضي مصيري المعلوم هذا. . أن أدع واصل وتجارته ومنطقه، أن أكون زوجته، وأطيعه دون أن أشاركه قناعاته. . . وإذا كـان لا بد، بحكم الـواجب الزوجي، أن ينـال جسدي، فهـو لن ينال سوى جسد ميت. . . »

يـدخل واصـل مكتبه لإنجـار بعض حسابـاته، ظللت وحيـدة.

كنت أحس بالغربـة. الألفة تـأتي من التفاهم، من وحـدة الأفكار، من العاطفة المتبادلة، وهذه كلها مفقودة، وليس من شيء حبيب إلي في هذا البيت سوى الكمـان الذي أبثه أشجاني. . أعزف عليه تلك المقطوعة التي ليست لي، ولكنهـا ليست غـريبـة عني أيضـاً. ربمـا سمعتها يومـاً، لا أتذكـر أين. وقد يكـون عقلي البـاطني هو الـذي ألفهـا، ومن يدري، ففي بؤرة المجـوع، داخـل الإنسـان، تكـون ذكـريـات هـاجعـة وتستيقظ. . هـذه المعـزوفـة كـانت هـاجعـة واستيقظت. لا يمكن أن تكون ولدت معي، لكن منذ متى استقرّت في مخيلتي؟ ألم يقل والدي إن الطفل، في نشـوئه، يمـر بكل المـراحل التي مرت بها البشرية؟ هذا كلام نظري في التربية. . لكنه، كما أكد والدي، صحيح من الوجهة التربويـة. إنني في طفولتي، مـررت بكل الأطوار، ومنها الطور الموسيقي. . «البشـرية، في الأصـل نغم» قال والدي، سألته كيف؟ شرح لي: «النغم ولـد مع الخليقـة، وبه عبّـر الإنسـان البدائي عن نفسـه» سكت والدي ففكـرت: «هـل هـذا نزوع غريزي يعبر عن نفسه دون إرادة. . وهذه المعزوفة، التي هي نغم بدائي، هل ورثتها عن الطور البدائي في طفولتي؟».

أخـرجت الكمـان من صنـدوقـه، كـان البـاب مغلقـاً. . هي ونفسها. . هي وروحها. . وتذكرت قول والدهـا: «الروح مجمـوعة المشاعر التي في الإنسـان، وهذه مصـدرها الجهـاز العصبي» ستوقظ مشـاعرهـا الآن، تنفخ في روحهـا شيئاً من عـزاء وشيئـاً من فـرح، عليها، وهي تحرك، كنسمة مسائية في أيلول، غصن روحها الساكن بـأوراقه الخضر الكئيبـة، أن تخلق، أو تدخـل دنيا التـأملات التي تولدها المشاعـر. . . إنها ستعزف لـه. لراجـع. . قد لا يكـون ثمة

راجع، ولكنها ستخلقه. . تتصوره، تـراه مقبلاً من وراء الـدهور، من بـداثية اللحن الـذي، ربما، تكـون سمعته منـه، أو معه، عـلى شـاطئ بحر، في عـرزال غابـة، في جلسة تحت ضـوء القمر، أو في حقل وهما يعملان. غير أنها سـرعان مـا تخلّت عن عزف مقـطوعتها الأثيرة، مالت إلى انعاش روحها، إلى تقوية إرادتها، إلى تفجير شيء يريد أن ينطلق من ذاتها، فعزفت نشيداً كان يحبه والدها.

بـدأ اللحن قمـريـاً. نـوراً يُحس، يُـرى، ولا يُلمس، يُحب ولا يُمسك، لا تستطيع أن تحتويه، أو تقبله، شعاع فضي مـلء الكون، ينسكب كشلال بغير صوت، من عين لا مثيل لمائها الغوريّ على الأرض. وكان خنصرها يضغط برفق، متنقلاً، بحركـة امتداديـة، مستطيلة، على طول عنق الكمان. لم يكن لحناً شرقياً، لم يكن لحنـاً غربيـاً، أو بيزنطياً، إنه ينبثق من قاع عميق، كأوف خافتة، تخرج من الضلوع همساً على الشفاه. . فجأة انتقلت إلى القرار. السبابة تحركت لتعطي رفيفـاً غيمياً عـلى وجه القمـر. . انتشر الرفيف. الغمـام انخفض، انخفض أكـثر، لامس وجه المـاء، قبّله، استأذنـه في الصعود، مـع إشـراقـة الشمس الأولى. . ومـع صعـوده ارتفـع النغم. . صـارت الأنـامل أكـثر ضغطاً عـلى الأوتار، والقـوس عـاد إلى الجـواب. إنـه ابتهـال. الكمان يبتهـل، ويتعالى الابتهـال، صـلاة من الأرض إلى السـماء. . أيتها السـماء، يا رؤيـا زرقـاء تفعمـين الفضـاء بشيء ولا شيء. . ثمـة، وراء لاشيئـك شيء. . كـوكب كبير. . إننـا إلى هذا الكوكب نتوجه بأدعياتنا، في استجلاب الخير ودفـع الشر. . زرعنا، والمـطر، والشمس، والنضـوج، وأيـام الحصـاد، ووداعـاً للصيف، وحزناً رقيقاً، شفافاً للخريف. . ثم زمجـرة: الرعـد. . دوي يتداول

السمع كأنه ينطلق من جوقة تقف على رصيف أمامها يمر الشعب في انتفاضة غضوب، وبعده يأتي الجند الثائرون، وطلقات مدفع . . «أمس كان باكراً، وغداً يفوت الأوان . . اليوم» ويهدر نشيد . . وتعصف عاصفة، تشتد العاصفة . . يحدث انفجار . . . تتفتح زهرة، وأخرى، وأخرى، ويزقزق عصفور . هذا هو الربيع، ربيع النصر . . بلغ التمرد ذروته، وانداح، بعد ذلك، دوائر نغم تتوزع في الرياح الأربع، فتحملها بعيداً، وتضيع معها بعيداً، فلا يبقى إلا رجع الصدى، إلا أنين أرغن في كنيسة، في ختام معزوفة لشتراوس .

انشق الباب عن وجه زوجها المبتسم : «برافو!» «شكراً» «لمن كنت تعزفين؟» «لنفسي» «وأيضاً؟» «لوالدي» «وأيضاً؟» «تقول له : » «لراجع»؟ قال واصل :

ـ الحي أفضل من الميت . .

ـ هذا ما أتعلمه شيئاً فشيئاً . .

ـ إذن اعزفي لي أغنية . .

ـ وما هي أغنيتك المفضلة؟

ـ لا أغنية مفضلة لي . . أية أغنية خفيفة .

ـ آسفة!

ـ لماذا؟ تحتاجين إلى إيقاع؟ أنا أصفّق . .

ـ قلت لك آسفة . . سأذهب لأعدّ مائدة الطعام . .

ـ ولكن ليس قبل أن نشرب كأساً . . اسمعي، في البار كل أنواع المشروبات . . ماذا تفضلين؟ أنا سأتناول قدحاً من الويسكي . .

ـ وأنا قدحاً من الجن . .

ـ ألن تعزفي لي؟

ـ لا أحسّ برغبة في العزف.

ـ وماذا سنسمع؟

ـ لدينا شريط لصباح. . أما أنا فأفضل فيروز. .

ـ يمكن أن نسمع فيروز. . أي شيء لفيروز ما عدا الشآميات. . لا يعجبني الشعر ولا المعنى. . شبعنا وطنيات. .

تذكرت ربيع. كانت الشآميات قصائد عزيزة عليه. إنه يفهم الشعر واللحن، يتذوق الموسيقى. قالت:

ـ أفضل ما تغنيه فيروز هي الشآميات.

ـ قد يكون هذا صحيحاً، لكنني أفضل «الطقاطيق» بعد تعب نهار كامل، أريد سماع ما يفرح. . لقد كان نهاراً طيباً، وعليّ، بعده، أن استمتع، أن أشعر أنني سأعيش مئة سنة. .

ـ ولكن المئة سنة ستنقضي أيضاً.

ـ وهذا مؤسف. . يركض الإنسان ويجمع، ثم يترك كل شيء. . اليست هذه مصيبة؟

ـ بل هي فاجعة. . لكنه قضاء الله. . تمرد إذا استطعت. . الفراعنة قبلك حزنوا لهذا المصير، عز عليهم أن يتركوا كنوزهم، فدفنوها معهم. .

ـ لم يكونوا على خطأ كبير. . لكنني لا أوافقهم على تفكيرهم. .

ـ لماذا؟

ـ هكذا.

ـ ولمن ستورث مالك؟

ـ طبعاً لأولادي. . ولكنني، كيف أعبر، لا أريد أن أحرم منه أنا

نفسي، وهذا ما يؤلمني. . أريد أن أعيش مئة عام. . أريد أن أمتلك وأمتلك وأمتلك، ولكن ما هو معذِّب ، أنني سأترك هذا الذي أجمعه. . تلك هي اللعنة. . هل يمكن لإنسان ألا يفارق الذي جمعه؟

ـ أفهم مشاعرك، وعذاباتك. . أخشى أن تمرض نفسياً.

ـ قولي لا سمح الله. . أنا بتمام العافية، والوعي، والقدرة على الحياة. . هناك ما يجعلني سعيداً أيضاً. . اسمعي، سأزفّ لك بشرى سارة، عقدت اليوم صفقة غزول جديدة.

قاطعته:

ـ لا تفوتني ملاحظة صفقاتك حين تكون مسروراً. . أعرف كيف عقدتها، لكنني أتطلع إلى أشياء أخرى في الحياة، غير صفقات الغزول. .

ـ مثل ماذا؟

ـ أعفني من تعداد أشياء كررتها كثيراً. . تريد الويسكي بالثلج؟ .

ـ ومع قليل من الكولا. .

غادرته وهي أقرب إلى اللامبالاة. قالت في نفسها: «لا فائدة! عمل، عمل، عمل، ويوم الجمعة كآلاف أمثاله، غداء في بلودان أو سهل الزبداني. . هذا كل شيء. . لا سينما، ولا مسرح، لا معرض، لا متحف. . ولا رغبة في زيارة مكان أثري. . قلت له: «لنذهب إلى تدمر» قال: «وما نصنع هناك؟» يا إلهي! أقول لك تدمر وتقول ماذا نصنع هناك؟ والآثار العظيمة. .؟ أجابني: «لا وقت لديّ للتفرّج على كومة من الأعمدة والأحجار» لكنه، في اليوم

التالي، حمل إلي هدية: خاتماً من الماس، قال:

- هذا أم تدمر؟

«ماذا أقول؟ يفضل الطقاطيق على الشآميات، وأغنية لصباح على أية سونيتة، والمجوهرات على آثار تدمر. لكن لكل شيء قيمة، فلماذا لا يرى قيمة إلا في المال وما يعبر عنه ويدور في فلكه؟ صحيح أنه يترك لي حرية الذهاب، ومشاهدة الأفلام والمسرحيات، وسماع الحفلات الموسيقية، لكنني ما أن أعود منها إلى هذا البيت، حتى أحس أنني هبطت من القمر إلى الجحيم.. إنه عمليّ في كل شيء، سيشرب الويسكي الآن، ثم يقوم إلى الفراش ليمارس الجنس بطريقة فظّة»

عاد واصل يسأل والخاتم المشعّ في علبته المخملية:

- هذا أم تدمر؟

- لكل منهما قيمته.

- هل أصبحت للأحجار قيمة الماس؟

- وقيمة التاريخ؟

- محفوظة في كتب المدارس.

- وعقولنا.. ماذا يبقى من الإنسان إذا ملأ معدته وترك رأسه فارغاً؟

- أنا لا أقول هذا.. لنملأ رأسنا، ولكن بشيء يفيد، بشيء يعود علينا بربح..

- والمعرفة؟

- تحصلين عليها من أي كراس يتحدث عن آثار تدمر..

- ولكنك تذهب، كل أسبوع، إلى الزبداني أو بلودان..

ـ هذا ما يفعله الآخرون. .

ـ الوجهاء؟

ـ وما عيب الوجهاء؟ تنكرين عليهم أنهم يعملون ويربحون ويروّحون يوم الجمعة عن أنفسهم؟

ـ بودّي لو يفهم وجهاؤك المحترمون أن في الدنيا أكثر من العمل، وغير النزول نهار الخميس إلى بيروت لإيداع أموالهم في المصارف، وغير نزهتهم يوم الجمعة إلى الزبداني لملء بطونهم ببعض اللحم والحمص والتوابل. . يا إلهي! تجمّدت الدنيا على هذه التوافه؟

ـ التوافه في نظرك، هي مسرّات في نظرهم. . المسألة كلها محصورة بالتلاؤم. . أنت لا تتلاءمين مع الجو من حولك. . أنت شاذّة أو مريضة. . لا تدعيني أخرج عن طوري.

سكتت على مضض. رحلت عيناها في أثر طيف بعيد، طيف ملون بهالة قوس قزحية، في عينيه شوق وفي يديه نار، وفي طلعته الطمأنينة، والحلم والمدى.

وتتذكر كلمات والدها عن راجع الذي سيأتي، الذي سيظهر في حياتها فيلوّنها، ويغنيها ويشعل في ذاتها شمعة كما أمام أيقونة، وتخاف ظهوره، وتسأل الله ألاّ يظهر، لأنه لن يفعل سوى إيقاظ شوق نائم، وبعث عواطف ترمّدت، ومناداتها إلى حياة أخرى، تريدها وتخافها في آن.

وإذ تبقى وحيدة، مركونة في الزاوية، تهدهد ما تبقى من مشاعر نوبة القلق، تروح تتساءل: «ألست أبالغ؟ ألا يزيّن لي الوهم لوحات من إشراقة الشمس؟ ألا أمدّ يدي إلى نجمة عالية عالية لا

سبيل إليها؟». إنها تريد، صادقة، أن تطامن شعور التقزّز هذا. يأخذها، في استئناف من ماضي تربيتها، تبكيت شعور. هي، بعد كل شيء تساكن زوجها، تعيش معه في غرفة واحدة، وأحياناً في سرير واحد، وعلى مائدة واحدة، وهو يسعى لأجلها، ويعمل ليدخّر لها، وليجلب، فوق ذلك، كل ما تطلبه، ثم هي تقرفه، على نحو ما يكون الأمر مع حلزونة لزجة خارج غلافها الصدفي. تقول في نفسها «هذا ليس من حسن الخلق في شيء. أنا لن أكون لصة على أي نحو. إذا كنت على هذا الإحساس المنفر منه، فلماذا لا أتركه؟ لماذا لا أغادره وأعود إلى بيت أبي؟ لماذا لا أعمل، وأعيش من عملي؟» لكنها لا تترك، لا تغادر، لا تعمل. تستشعر رهقاً ولا تقوى على دفع الرهق، تريد ولا تستطيع تحويل إرادتها إلى عمل، إلى واقع، بل هي تخشى مفاتحته حتى بأفكارها هذه، حالمة، على نحو غامض، أن تحل الأيام، أو تلقى في الأيام، حلاً لمشكلتها.

كان شيء ما في أعماقها يناديها: «اصبري» وحين تثور على الصبر، يعاودها همس: «ليس بعد.. لم يَئِن الأوان» ومع أنها، عاماً بعد آخر، قطعت أملها من أن يأتي راجع وينقذها، فإن هاتفاً، في الليل، في الفجر، مع طلوع الشمس، مع مغيبها، يهتف بها بغير صوت: «راجع آتٍ فلا تتعجلي».

ربما، لو فطن واصل لحالها، لأزال بعضاً من متاعبها، كان نقص الفطنة لديه، يثيرها بدوره. تقول: «ألا يراني؟ ألا يحسّ بعذابي؟ ألا يستشعر برودة في جسمي وهو يحتويه؟. أليست في وجهه عينان؟ ألا تحس كفّاه؟» ثم تتذكر أنها هي التي علّمته أن يستخدم كفيه، أن يشغل يديه بشيء وهو معها. ألاّ يبقيهما مسدلتين على جنبيه وهو

قبالتها، وبإلحاح منها تعلّم أن يقوم بحركة ما، بملامسة، بدغـدغة، لكن ردود فعله هـذه كان ينقصهـا الانـدفـاع الـداخـلي، الحـرارة، العنف، الاشتعـال، المبادرة، هـذه التي لم تأت منـه، ومبـادراتهـا لم تتحـول إلى أفعال. ظلت، بـالنسبة إليـه ردود أفعـال، ومـع الأيـام كفّت، انـطفأت، استقـرّ في ذهنهـا أنـه أطفـأهـا، نقمت عليـه أنـه أطفأها، وازدادت عذاباً وهي بقربه، وتحوّل العذاب إلى نفور، كان جسدها يرفض، قلبها يرفض، حواسّها ترفض، ويـزيد، في تـأزيم هذا الرفض، أنها مضطرة إليه، وأن الليالي ترغمهـا على أن تـرفض وتتجرّع كأس رفضها صامتة.

ولقد ضاعف معاناتها هذه أن واصل كان قوياً. كـان، من حيث اللياقة البدنية رجلاً كامل الرجـولة، أمـا من حيث الروح فقـد كان خاوياً. ولئن حسب، وهو يقوم بما يتطلبه جسمه القوي، أن الإكثار من ذلك الشيء يرضيها، فقد كان واهماً. ورغبت، بأشكال مختلفة، وكلمات مختلفة، ومناسبات كثيرة، أن تفهمه ذلك، لكنه عبثاً فهم. كـان محرومـاً، على نحـو جيّد، من فهم عـواطف الآخرين. وتلبيـة لمتطلبات جسده، كان يمارس معها لعبتـه الجنسية كـل ليلة. أحيانـاً يـرغب أن يمارسهـا في النهار أيضـاً بعد غـداء الجمعـة في بلودان أو الـزبداني، كـان يشعر أن من حقّـه، وقد أرضـاهـا بـإخـراجهـا من البيت، وبغداء في مطعم عام، في مصيف جميل، أن يتقاضى حصّته من الثمن، وعنـدئذ يفرض عليها، باسم الزوجية، باسم الواجب، أن تذهب معه إلى السرير، وأن تتحمل ما يحاوله من خفّة روح، لا تزيد في نظرها، عن سماجة بالغة الإيهـاظ، وكانت تحمـد ربها، أن واصـل، ما عـدا يوم الجمعـة، لا وقت لديـه للمداعبـات، وأنه في

سباق مع أصحاب التجارة، وأصحاب الشقق، وأصحاب البنايات. كانت ملايينه تزداد، لكن الراحة لا تؤاتيه، ما دامت ملايين الآخرين تزداد، وما دام الذين ليس لديهم، أو لم يكن لديهم قد صار عندهم، أصبحوا مثله، أصحاب ملايين، وعلى شفتي كل منهم، كما على شفتيه هو، هذه الموعظة الجليلة: «لا تسألوا من أين جاء المليون الأول، أما الملايين الأخرى فقد بذلنا جهداً لكسبها».
وكانت راجعة تنكر هذا الجهد، وكان والدها قد قال لها: «جهد هؤلاء الذين يصيرون من أصحاب الملايين، ويتكاثرون كالفطر، ليس سوى رشوة، سمسرة، ومضاربة، وكل ما يجلب المال، وما يحوّل المال إلى قصور، وإلى شبع حتى التخمة، بينما، في أطراف المدينة، أكواخ من طين، وعيش على كفاف، والمادة الغذائية، إذا وجدت، خبز وشاي وزيتون، بالنسبة لأكثرية الناس في المدن والأرياف».

صوت - ٥

انتهيت، مع الأيام، إلى كره نفسي، أمدّد جسدي على طاولة، كتلك التي في غرف التشريح، وأتناول كل الأدوات المعروفة، من المقص، إلى المبضع، إلى المشرط، وأعمل في جسمي تشريحاً، لأكتشف غدة عدم التلاؤم التي زرعتها الطبيعة في هذا الجسد. أغدو، في حال كهذه، أنا الطبيب والمريض بوقت واحد، أنا المشرح والمشرحة، في عملية وهمية تتخذ طابع حقيقة مأزومة تدور فيها. أعرف ألا فائدة، فالعلّة ليست في القلب، أو الرئة، أو الكبد، إنها في الروح، ولكن أين تسكن الروح في جسدي المعذّب؟ والدي كان يضحك من الذين يكثرون الكلام على الروح، ومن الذين يفاخرون بأنهم روحيون، وينسبون الفضيلة إلى الروح وحدها.

كان يبتسم، وقد غابت عيناه في نظرة داخلية مشرقة، وهو يتندر على هؤلاء الروحيين، وفي حال كهذه يقول لربيع المياس، الذي كان جليسه الدائم، تقريباً:

ـ وأنت، يا عزيزي، ألست روحياً؟

فيجيب ربيع، بنكتتبه الحاضرة:

ـ إنما أنا ماديّ ابن كلب، بفضل تعاليمك المبجلة.

ـ انتظر، سيرجمونك يوماً.

ـ سنكون، عندئذ، معاً في حفرة واحدة.

وقد قال لي ربيع ، عند خطوبتي من واصل:

ـ ها أنت تحظين بأحد اتباع الروح.

ـ قلت له:

ـ واصل واقعي جداً.

قال:

ـ لأنه واقعي جداً فهو روحي. أكثر الذين أخشاهم هم الواقعيون جداً، لأنهم روحيون جداً في اللحظة التالية.

ـ انتبه، أنت تنال من خطيبي..

ـ أنا أمدح خطيبك.. إنه، يا راجعة، روحيّ حتى الذوبان، من فرط شفافيته، وواقعيّ حتى اللعنة من فهمه للواقع حسب مصالحه.

ـ لكنه لا يبدو كذلك.. ألا تبالغ يا ربيع؟

ـ لن أزيد على ما قلت.. ربما كنت لا أعرف واصل على حقيقته.

ـ لكنك تعرفه على حقيقته.. أنت ذكي بما يكفي لتفهم الناس بسرعة..

قطّب وقال:

ـ هم! الناس، يا راجعة، لا يفهمون الآن بسرعة. إنهم يتشرنقون، يتمحّرون، يغلّفون أنفسهم بقماش خيمة لا تنفذ منه سكين.. وكلما رأيت رجلاً من هؤلاء، أراه في محارته.. نصف

الناس، على الأقل، يسيرون وهم في محاراتهم.

ـ أنت لا تحاول أن تفسد عليّ خطوبتي، أليس كذلك؟

ـ أنا لا أفسد ما هو فاسد. خطيبك يناصبني عداء خفياً هذه الأيام.. يحسب أن ما بيننا حب، وأنني بوهيمي قذر، يدسّ عليه لدى والدك.

ـ إنه يمزح.

ـ لعله كذلك..

ـ ألا يمزح؟

ـ واصل لا يعرف المزاح..

ـ لكنه ظريف..

ـ قولي يتظرف..

ـ يا إلهي! توشك أن ترسمه كاريكاتورياً..

ـ ومن أجل ذلك لن تريني حتى الزواج.

فعلاً لم أر ربيع إلا ما بعد الزواج، جاء للتهنئة، ولم يمكث إلا قليلاً، وصارت زياراته تتباعد، ولم أفهم السبب، لكن الأيام، بعد ذلك، تكفّلت بإفهامي.. كان زوجي روحياً تعيساً، ومادياً تعيساً، وكان واقعياً إلى درجة الإفراط.

وقد روى لي ربيع، ذات يوم، قبل أن أتعرّف بواصل، أنه حضر مجلساً لوالدي، سمعه فيه يسخر من زائر، ينعي عليه تقويمه للمادة، يزعم أن خلافه مع والدي جوهريّ، وأن مسافة ما بين تفكيرهما، هي المسافة ما بين قطبين، وأنه يؤمن بالروح، وسيظل يؤمن بالروح، وسيشنّ حملة في الصحف، أو قد يضع كتاباً، بشأن هذا الخلاف، لكنه يخشى أن يؤذي والدي، أو يستثير الناس ضده.

قال ربيع: «كان الرجل طويلاً، ممصوصاً، له نظارات من عدستين، وأنف محدب، وهو كتلة هياج، تخالها لم تعرف الهدوء يوماً، حتى حسبت أنه ممسوس، وأنه قد يضرّ بوالدك، ويؤلّب عليه الناس، ويطلق بؤبؤيه، اللذين تحولاً إلى رصاصتين، ضده. وكان والدك لا يزيد عن الابتسام، وعلى وجهه تعبير من الشفقة على هذا الإنسان المريض عصبياً. وبعد أن أصغى، بغير مقاطعة، إلى تلك القصة الطويلة المكسوة بثياب متنافرة الألوان، قال له بلطف لا يفتقر إلى الحزم:

- إنني أعتبر المادة حقيقة فلسفية، لكنني لا أنعي عليك، وعلى أمثالك، شيئاً. وبالنسبة إلى الروح، فإنها موضع اعتباري، لكن الاهتمام بالروح يقتضي الاهتمام بالجسد، لأن العقل السليم في الجسم السليم، ومن هنا ضرورة العدالة، ضرورة الاهتمام بصحّة الناس وعقولهم وبطونهم أيضاً.

عادني هذا الكلام كالصدى بعد زواجي، خاصة حين كان واصل يصف والدي بالرجل المادي، ويتهمه بالهرطقة. لقد كان ربيع بارعاً جداً في كلماته التي رسم بها الرجل الروحي، لكنه، لأمر ما، لعله الإشفاق أن ينغّص عليّ فرحتي بالخطوبة، عفّ عن رسم واصل، بأي شكل من أشكال الكاريكاتير اللفظي. اكتفى، كعيّنة، بذلك الرجل الذي لا أعرف ماذا جرى له، وهل عاد إلى والدي، أم كتب ضده في الصحف، أم قاطع مجلسه، ولكنني أيقنت، منذ ذلك اليوم، أن روحنا هي نفسنا، وكل خلل في الجسم هو خلل في الروح والنفس معاً. لهذا من الهراء أن نتكلم بتجريد عن الروح، ومن العبث، وأنا أشرّح جسدي، أن أقع على غدة

عدم التلاؤم التي تـلازمني، لأنها في شعوري لا في جـوارحي، وعليّ أن أعالج نفسي، أن أقنعهـا، أدربها، أحملهـا على التـوافق مع الجـو الـذي أعيش فيه، ومـع الـزوج الـذي هـو شـريـك حيـاتي، ومـع الموسيقى التي هي عزائي، وأن أكفّ عن تصور الثريـات المدلاة من السقف أسئلة تواجهني كيفما استدرت.

ولقد يكون من الأفضل ألا أعرف ما في رأس زوجي. أنا واثقـة أن جملته العصبية تعمل بشكل مغاير للطريقـة التي تعمل بهـا جملتي العصبية. شعور الفرح ينبع من مصدر واحد، لكنه، في صدرينـا، ينبـع لسببـين مختلفـين. هـو لا يفـرح لحصلة شمس، أو زقـزقـة عصفور، أو مرأى غابة، أو صدى وادٍ، لا يسافـر مع ضـوء القمر، ولا يتسـربل بغبش المسـاء، في مشوار يحاور فيـه نفسـه، أو يسمـع لخرير ساقية، تروي عن معينها، في حنين للعودة إليه. تراه لا يعرف الحب؟ وهـل أحب قبلي؟ وهـل تحدث المعجـزة ويحب بعدي؟ هل تشتعل النار يوماً في ذاتـه؟ يذوب قـالب الثلج الممدّد بـين أضلاعـه؟ يخـرج من المألـوف؟ يخالف المنـطق؟ يفعل أي شيء يؤكـد أي شيء يؤكد لي أنه يعيش لغير التجارة وجمع المال؟ لا جـواب. أسئلة وأسئلة ولا أجـوبة. وحتى الشجـار، هذا الـذي يخترق الـوئام، ويـديـح، كحجر في بركـة ماء، دوائـر متواليـات، حتى هذا لا يحـدث، فكأن الرتابة طقس من طقوس العبادة في هذا البيت.

مللت. مللت. مللت. والدي، على مـا في حديثـه من جديـة، كانت عيناه تدمعان من غبطة وهو يسمع نكتة مضحكـة. يقول لي: «لـو كنت أعزف عـلى الكمان لأصبحنـا ثنائيـاً جديـراً بإقـامـة حفلة صغيـرة للأصـدقاء» ولقـد رأيته، أو ضبـطته، يـوماً، وهـو يداعب

مفاتيح البيانو، محاولاً أن يخرج منها نغماً دون طائل. وفي إحدى النزهات، على طرف ساقية، خلع حذاءه وجوربيه ووضع قدميه في الماء فرحاً، وكان بيده عود يعابث به مسرى الساقية، ويقص علي كيف كان، وهو صبي، يتسلق الأشجار، ويخوض في رقراق الأنهار، وكيف كان يجلس ساعات كاملة، يرصد الشمس وهو جالس على الشاطئ بانتظار اللحظة التي يبتلع فيها حوت مجهول ذلك القرص الأحمر الذي ينحدر في فكيه بتؤدة واطمئنان. لقد كان شيئاً رائعاً، شيئاً مغرياً يحب بعض الشذوذ الذي يصدر عنه، ويقول لي، في تفسير ذلك، الإنسان إذا اختلى بنفسه أتى بولدنات رغم شيخوخته.

وقلت له، عقب ذلك الحديث الذي سمعته من ربيع، عن المادة والروح، والذي تسبّب في هياج ذلك الزائر الممسوس: «لماذا، يا والدي، استثرته إلى هذا الحد، وجردته حتى من طمأنينته الروحية؟ أثمة ما يستحق هذا الجدل، في مثل هذا الموضوع؟» فابتسم في عينيه السوداوين، ومسّد شعره كعادته حين يريد أن يتكلم على موضوع يقتضيه تفكيراً: «في الحياة العادية، أعني في العيش اليومي، لا يتخذ الموضوع الخطورة التي يتخذها في الفلسفة. أنا لن أخاصم يوماً إنساناً يؤمن بالروح وخلودها، لكنني لن أسكت على أية محاولة للتشكيك في خلود المادة وأولويتها. إن في هذه المسألة، يكمن سر معرفة بالغة الخطورة، فإما أن نفهم الأشياء على حقيقتها، وفق قوانينها، أو نضلّل ونرضى بفساد حياتنا. إن الروح التي يخافون عليها، لا يفعلون شيئاً لانتشالها من مستنقع الشقاء الذي تغوص فيه. يغارون على الأرواح؟ مباركة غيرتهم، ولكن ماذا

يفعلون لـدرء البؤس والفقر والجـوع والبرد والحـر عنها؟ أي صـوت يرفعون ضد الظلم النازل بها؟ وما جدوى الكـلام على الـروح، إذا كان الجسد، وهـو موئلهـا، وفق منطقهم نفســه، يعاني العـذابات؟ هيا، اعزفي لي مقطعوعة، دعيني أنسى.

لقد كان والـدي قميناً بـأن يقاتـل، حتى بيده، في سبيـل فكره، فهل النفور الذي يبديـه واصل لمجـرد ذكره، عـائد إلى كـرهه لهـذا الفكـر؟ وإذا كان والـدي، كـما يقـول زوجي، يحـرض طبقـة عـلى أخرى، لذلـك هو مشبـوه في نظره، أفـلا يعمل هـو أيضاً، لإبقـاء وضع الطبقات كما هو، ولهذا فإنه مشبوه بدوره؟ أفضـل ما أعمله، إذن، ألا أنكـد عيشي، أن أجاهــد لاستبعـاد الأسئلة المـدلاة من السقوف، أن أقطعها، وأخرجها من رأسي نهائياً.

هكذا بذلت جهوداً كبيرة ومضنية. لاطفت واصل ما استطعت، سايرته في كل الشؤون، سمعت إليـه، وشاركتـه، أو تظاهـرت أنني أشاركه، متعتـه التجاريـة. حاولت أن أقتـل عواطفي الخـاصة، أن أقذف بها إلى الـلاشعور، أن أدفنهـا عميقاً في داخـلي. ارتضيت أن أخرج وأسهر معه عند أصـدقائـه، تقبلت فكرة أن أزور زوجـاتهم، صار لي يوم استقبال مثلهن فيالأسبوع. أصغيت إلى ثرثرتهن، حـول رجـالهن، ودخولهم وأربـاحهم وصفقاتهم التجـارية. رأيت زائـراتي وهن يرفلن بثياب مستوردة من فرنسا أو ايطاليـا أو باريس، بـاريس التي تظل البلد الأفضل للتفاخر، للأزدهاء في نشوة لا حد لها. . كن قد زرنها مع أزواجهن، وزرن بعض بلدان أوربا، وتحدثن طـويلاً، أو كان حديثهن كله، يدور على ما اشترين من هـذا البلد أو ذلك، من ثياب وحلي، ومـا تنـاولن من طعـام، وفي أيّ الفنـادق نـزلن،

ويقـاطع بعضهن الآخـر، بسفه، أو يـزايـد، ويتـلاسن، ويستغبي بعضهن بعضـاً ويـطعنّ في أخـلاق بعضهن، ويفحشن في الكـلام، متحـدثـات عن الجنس، وعن القصص والنكـات الجنسيـة، وعن عـلاقتهن الخاصـة بأزواجهن وكيف تجـري، وماذا يجـري في غـرف نومهن.

كنت مضطرة للبقاء، والإصغـاء إلى كل هـذه المهازل، سـاكتة، شاردة، مفكرة، متسائلة: «هل يمكن هذا؟ هل حداثة النعمة تفعل كل هذا؟ هل ترتكب، في الخلوات، كل هذه المخازي؟ وهل يمكن لـزوج أن يسلّم زوجته إلى صـاحب نفوذ، مقـابل رخصـة استيراد؟ لقد حدثتني إحداهن عن مستورد لا يعرف الحلال من الحـرام، وأنه عقد صفقة جلبت له الملايين، لكن الصفقة كـانت قذرة. ودون أن أسألها عن وجه قذارتها قالت: «فُقـدت مادة السمن من الأسـواق، وكان الاستيراد ممنوعاً، فأولم، في بيته، وليمة لأحد الـوسطاء. كـان لا يحب أي مسؤول، يعتبـر الجميـع دخـلاء عـلى الحيـاة السيـاسيـة والاجتمـاعية، ويقـول لـزوجتـه، حـين تشكـو، أو تنـاقش مـوقفـه المتناقض هذا: ماذا نفعل؟ المثل يقول: «اليد التي لا تستطيع قطعها قبّلها وادعُ عليها بالكسر» وكان لا يقصر في ذلـك، لكنه يبـرر دعوة هذا السيد أو ذاك، بأن الشغل يقتضي هذا. وذات ليلة دعا وسيـطاً عن رخص الاستيـراد، وشرب معـه الويسكي، وأشـرك زوجتـه في الشـرب، ثم ادّعى عملاً طـارئاً، وخـرج تـاركـاً الـرجـل وزوجتـه وحدهما، ولما عاد كان ذلك الشيء قد تم، ولاحظ الاحتقار في عيني الزوجة، فقال لها جملته التي تكررت: «لا بـأس، كل شيء يـذهب بالغسيل» لكنه قال أيضاً، دون خجل، إنه يتألم لشيء واحـد، كون

هذا الوسيط ريفياً جلفاً. وفي محاولة لاسترداد مكانته في عيني الزوجة،قال لها: «لا بأس سنعرف كيف نتصرف، حين تصبح القوة الاقتصادية في أيدينا، وحين يصير لها تعبيرها السياسي في السلطة».

قلت شاحبة:

ـ أنا لا أصدق أن هذا يحدث.

ـ ولماذا؟ هل تحسبين هذا الإنسان وحده الذي يقبل بفعلة كهذه؟

صحت:

ـ ولكنها زوجته.

ـ وكذلك هي مصلحته.. الملايين تفعل كل شيء، وتغسل كل شيء..

ـ وماذا يقول الناس عنه؟

ـ يتندرون.. عبارة «كل شيء يذهب بالغسيل»أصبحت معروفة .

قلت مدافعة عن واصل:

ـ لكن أزواجنا لا يفعلون هذا.. مستحيل..

ـ أزواجنا نعم.. لكن الآخرين.. زوجي قال لي: التنافس لا يرحم..

ـ ورضيت تلك الزوجة دون مقاومة؟

ـ رضيت.. ربما مانعت في البدء.. لكن الذهب، الماس.. الهدايا.

ـ وتكررت العملية؟

ـ تكررت كثيراً، وصارت تلك المرأة سيدة مجتمع من الدرجة الأولى، واعتبارها لم ينقص حتى عندما وقعت الفضيحة.

ـ كيف وقعت؟

ـ ضبط الزوج مع السيدة عاريين في سرير واحد . .

ـ فظيع! . ماذا فعلت بنفسها بعد هذه الفضيحة؟ هل تجرأت على الخروج من البيت؟ وماذا فعل الزوج بنفسه؟

ـ لم يفعل شيئاً . . ثارت ضجة لبضعة أسابيع وخفتت . .

ـ وتقبل المجتمع وضعاً كهذا؟

ـ لا تسأليني أسئلة صعبة . . ما هو المجتمع هذا . . الدود يشبه بعضه . . زوجي قال: «في عالم المال يتحدثون عن الرجل الذي يملك أكثر . . الأشرف هو الذي يملك أكثر . . والمرأة التي تتزين بخواتم وأساور وعقود الماس تفرض نفسها . . هل تعرفين؟ هذا المليونير نفسه زوّج ابنته بعد فترة . . حضرت العرس بنفسي في أحد الفنادق . كمية الزهور التي جاءت، وكمية الهدايا من ذهب وماس . . ما بك تستفظعين؟

شكّت راجعة بها . . لهجتها لم تكن لهجة استنكار، كانت تروي قصة بهدوء، تحكي عن شيء جرى ويجري . . موضوعية شديدة . واقع . . هذا هو الواقع، وقد لا يتخذ منحى جنسياً في كل مرة، لكن لعبة قذرة تتم . قالت راجعة في نفسها : «يجب أن أقاطع هذه المرأة، نمّامة، فاسدة، متقبّلة للفساد . . ومن يدري . . ربما جاءت تجسّ نبضي . . زيارتها . . حكايتها، ضحكتها، استخفافها بالأمر، يعطي انطباعاً أنها تبيّت أمراً . . تمهّد الجو . تهوّن المسألة . . لا يمكن أن تأتي دون علم زوجها . . واصل لا يدري بالأمر . . مستحيل أن يعرف به . . لو عرف به لطردها . . لكن به ميلاً إلى تمشية الأمور، ويقول لي صراحة : «من لا يدفع لا يقبض، وليس من شروة أو صفقة أو عملية تتم دون رشوة» . كل هذا يتحدث عنه، لكنه لا يصل إلى مستوى ذلك الرجل . .

محـال. . هو يحبّني، يغـار عليّ من الـريـح. . ولن ينحـدر إلى هـذا المستوى مقابل مال الأرض كله».

ضحك ربيع من أفكار راجعة هذه. التقت بـه في معرضـه، في غـير يوم الافتتـاح، حين كـان المرسم خـالياً إلا من بعض الـزوار، قصّت عليه، بوجل، كل ما تصادفـه، وتسمعه، وتـراه. قصته كله بلهجة استفظاع، استنكار، رفض تام. لكن ربيع ضحك وقال:

ـ من يسمعـك يحسبك من القـرون الوسـطى. . لقد مضى، يـا راجعـة، زمن حزام العفـة. . أنا ألعن ذلـك الـزمن التعيس، لكن الـذي تبدّل هـو الحزام وليس فكـرته. . في القـرون الوسـطى كـان التجار والنبلاء ورجال البلاطات يستبيحون الأشياء، ومنها الشرف، في سبيـل مـطامعهم. . نحن في زمن لا يخـون فيـه محـدثـو النعمـة زوجاتهم فقط، بل يتزوجون عليهن، صارت النفعية مسلكاً عامـاً، ومن مظاهرها كل ما ترين. .

ـ واصل ليس من هؤلاء. .

ـ ربما. .

ـ ألست مقتنعاً؟

ـ بلى!

ـ أنت غير مقتنع!

ـ بلى أيضاً. .

ـ لكنه أمر رهيب يا ربيع. . يمكن أن يكون واصل من هؤلاء؟

ـ واصل من التجار. .

ـ وأين الاستثناء. .

ـ لا أدري. .

ـ ألا يكون واصل استثناء؟
ـ لماذا تبحثين، بهذا الإصرار، لجعله مستثنى..
ـ لأنه لا يمكن.. يا ربي.. هل يمكن؟
ـ لم يعد، في حياتنا، شي غير ممكن...
ـ أنت لا تتكلم عن الأشياء القذرة.
ـ بل عنها بالذات..
ـ وما العمل؟
ـ الصبر..
ـ إلى متى؟
ـ أنت تعرفين..
ـ أنا، أعرف؟
ـ نعم..
ـ كيف أعرف وأصبر؟
ـ لأنك لا تقطعين خيوط العنكبوت..
ـ لكنني زوجته.
ـ ابقي، إذن زوجته.. أيتها الدجاجة البيتية.

قالها وفرقع بضحكة عالية، كي يعطي الصفة التي قالها، طابع المزاح. أما في دخيلته، فكان يرى راجعة دجاجة مائية.. دجاجة من اللواتي لا يكتفي الصياد بذبحهن، بل تكسير أجنحتهن وهن أحياء..

قضت راجعة أياماً في وساوس. كانت كلمات ربيع توقظها إلى هولة ما هي فيه، وإذ تستعيد ما سمعت من النساء، ترتعد أن يكون ذلك كذلك، وأن تكون المرأة، على هذا النحو، سلعة، وأن

يصيّرها عالم النفعية نوعاً من سلعة رخيصة أفضل منها النخاسة. ذلك أنها لم تكن، ولم يكن أبوها قبلها، يرى إلى الحب رؤية تحريمية. كان يقدر حتى العلاقة الجنسية، حين تكون علاقة إنسانية، علاقة صدق في العاطفة، لكنه يكره الإباحية، والمتاجرة بالجسد، والنذالة والقوادة، وكل ما يجعل من المرأة سلعة، ومن جسدها عملية بيع وشراء، يقول، عندئذ، وهو يأتي بإشارة رفض: «هذا البؤس البشري سيزول يوماً.. سيزول في يوم بعيد جداً، ربما بعد مئات السنين، حين تتغير أفكار الناس وأخلاقهم» لقد كانت الأيام، في زمنه، أنظف.. كان ثمة حب، وجنس، وزنى، لكن المجتمع، ككل، لم يكن قد انغمس في هذا الوحل، ونظر إليه كلون من الحياة العامة، كجزء من التجارة، ولم يكن الرجل يتقبله في بيته، إلا نادراً، نادراً جداً، وبضغط من الحاجة، أو النذالة، أو النفعية الفاجرة.. قالت راجعة في نفسها: «مات والدي دون أن يرى ويسمع ما يجري، كان هذا السوء في أواخر أيامه، طارئاً جديداً، وكان يتذمر من الاستهلاك، والركض وراءه، والإغراق فيه، يقول: «هانحن، أيضاً، نتأثر بهذا الوباء.. الكتاب سيعلوه الغبار، أما الثلاجة والغسالة والآلات الكهربائية، فستلمع كل يوم، سيكون العصر القادم عصرها».

ومن عجب، عجبي أنا على الأقل، أن واصل لا يتحدث إليّ عن قصص كهذه، إذا سمع بخبر من هذا النوع، أو قيلة سوء بحق واحد من زملائه، دافع عنه، وأغلق الموضوع بسرعة. فقلت في نفسي: «إنه مستقيم، لا يأكل لحم أخيه نيئاً، ولا يرغب في أن يلوّث أحاديثنا بالاستغابة» لكنني، بعد فترة، اكتشفت أنه يفعل ذلك، تماماً كسواه، إذا مُسّت مصلحته، إذا دخل أيما إنسان في

منافسة معـه. إنه، كغيـره، يعادي ويعـادي، في سبيل أي مغنم أو صفقة.

كنا، ذات يوم، نتناقش حول هـذا الموضـوع، وكان معنـا بعض أصدقائه، فانفجر أحدهم يشتم آخر، بسبب تورّطـه معه في صفقـة غير ناجحة. قال واصل:

ـ إنما أنا أزن الأمور بدقة، قبل الإقدام على أي عمل.

قال صاحبه:

ـ من أجل كسب صفقة، لا بـد من المجازفـة، ثم لا بد من أن تَغشّ وأن تُغش.. في المناقصات والمزايدات لا توجد كلمة استُقامـة أو شرف.. المنافسة، هنا، تبيح كل شيء..

قال واصل:

ـ لكن الغشاش يُحذر جانبه، إذا افضيت إليـه بشيء، أو دخلت مناقصة معه، على اتفاق مسبق، فينبغي اللعب بشرف.

ـ دعنـا، يـا صـاحبي، من كلمـة شـرف.. أنت، يـا واصـل، غدرت بشريكك علي في إحدى الصفقات، فلماذ فعلت ذلك؟

ـ لأنني كنت مضـطراً.. لو لم أغشّ، غشّ هـو. دخل المنـاقصة كشريك لي، ثم اكتشفت أنه دخلها مع آخر، بسعر أقل..

ـ هذا جيد.. ولكنك، أنت أيضاً، تـدخل المنـاقصة أو المـزاودة مع شريك، ثم تدخلها هي نفسها بسعر مختلف، مع شريك آخر.

ـ مقتضيات اللعبة..

ـ إذن للعبة قانونها..

ـ ولكني لست البادئ..

ـ والآخر يزعم أنه ليس البادئ . . المصلحة، في التجارة، فوق الشراكة، فوق الصداقة، فوق علاقة الأخ بأخيه . . المضاربة، في سوق، في البورصة، في الأعمال، لا عهد لها، لا كلمة شرف بخصوصها . . إنها الغابة . .

دهشت لهذا الكلام. كان الرجل يقول ما يعرف . . كنت أجهل ذلك، فلما سألت واصل، بعد ذلك عن حقيقة هذه الأشياء أجاب:

ـ كل شيء في سبيل المصلحة . .

ـ أية مصلحة هذه التي تغش وتعادي في سبيلها؟

ـ المصلحة العامة . .

ـ هل هناك مشروع خيري لا علم لي به؟

اكتشف الهزء المبطن فقال:

ـ المصلحة، حين تتعدّى الفرد تصبح عامة . .

ـ ولكن من هم هؤلاء الأفراد؟ أليسوا أمثالك؟

قاطعني:

ـ وما بهم؟ عدنا إلى الحديث بالشر عنهم؟ تذكّري أنني منهم . . وأن هذه هي المهنة التي نعيش منها.

ـ أنا لا أعرّض بهم، ولا أتحدث بالشرّ عنهم. لكن هذه الفئة كما تسميها، لها مصلحة خاصة، خاصة جداً.

ـ ومن نصبك أنت محامية عن المصلحة العامة؟ صار لنا ولدان. وريثان من بعدنا . . وصارت لنا مصلحة . . قولي عنها خاصة أو عامة، لا فرق، لكنها مصلحتك كما هي مصلحتي.

ـ إنها مصلحة أنانية.

ـ هذا ما علّمك والدك؟

سكتّ. لا أريد إثارة ضغائنه ضدّ والدي. . إن منطق واصل، كتاجر، منطق خاص، وعليّ، أنا شريكته في الحياة، وفي المصلحة، وفي الملكية، والميراث الذي سنخلفه لأولادنا، أن أفهم هذا المنطق. أن أجعله منطقي. أن أدافع عنه. . ليس من حياد هنا. . لا أستطيع أن أعارض مصلحة بيتي أو أقف منها على الحياد. .

يوم كنت عند والدي، كنت أتبنّى منطقه. الآن، في بيت زوجي، ينبغي أن أتبنى منطقاً آخر، هو منطقه. . أن أنسى من أين جئت، وأفكر فقط أين أنا، أن أمحو عقلي، وفكري ومنطقي. هذا واجب. . إنه واجب يخون واجباً آخر، منطق يناقض منطقاً آخر، فإذا أردت العيش بسلام، برفاهية، بتلاؤم، كان علي أن أكون واقعية. . وعليّ باسمها، أن أقبل كل شيء.

تذكرت أيضاً حكاية ذلك الرجل الذي باع شرفه مقابل رخصة استيراد. إن للشرف مفهوماً واسعاً، بعضهم، كما كان يقول والدي، لا يرون الشرف إلا في العورة. هذا غشّ، التفاف على المعنى، الشرف يعني كل شيء، من الكذب إلى الرشوة إلى الدعارة. . الفاسدون يبيعون شرفهم بشكل ما، لذلك فهم في السوء سواء، وفي التماسك سواء، وفي السكوت عن سلوك بعضهم البعض، والدفاع عنه، سواء أيضاً. . إنني متوهمة، جد متوهمة، إذا كنت أحسب واصل شخصاً آخر، من طينة أخرى، أعمى، لا يرى مصلحته، لا يعرفها، لا يتشبث بها، لا يعادي، لا يضرب، لا يقتل، مباشرة أو بالواسطة، في سبيل هذه المصلحة. . حذارِ إذن أن أكون عدوته، أن أصير عدوته، أن أخون ثقته، أسراره، أعماله المستورة.

لكنه هو، لا أنا، من تحرش بوالدي، ودون أن أستشيره قال:
ـ ما كان رأي والدك في القوانين؟
ـ والدي كان يحترم القوانين العادلة.
ـ هذا هراء. . أعرفك لبيبة. .

فكرت: «أقول له إنني لبيبة على طريقتي؟ إن الإفصاح عن ذلك لن يرضيه. الصمت أفضل. الصمت ملعون، لكنه أفضل. الصمت شيطان، لكنه يفرد جناحيه علي. . إنني، يوماً بعد يوم، أتجه إلى مفترق، أقدم تنازلات، أتراجع عن أفكاري، أخونها، أخون والدي، أخون منطقه. . أخون منطقي وقناعتي أيضاً، وإنني نهب للتمزق. . وقد اخطأت بارتضائي هذا الزوج، وأخطأ والدي بالموافقة عليه، مهما كان دافعه، ولكن والدي رجل من هذا البلد، من هذا الشرق، من هذه البيئة، وقد انحنى أمام أحكامها، خضع لها، خان فهمه وتمييزه ومعرفته في سبيل ألا أبقى وحيدة بعد موته. . إذن هو، على نحو ما، مذنب. . وأنا مذنبة، وكلنا مذنبون. . والمجتمع هو المذنب الأكبر.

تلك الليلة، بكيت وحيدة. كان واصل خارج البيت، والطفلان قد ناما. عزفت قليلاً على الكمان. حرك العزف الشجن في نفسي، ولأول مرة في حياتي، شعرت أنني اتهمت والدي، وأنني جحدته، وألقيت بوزري عليه. فإذا كنت أنا ضعيفة، وبحاجة إلى حماية، ولا أستطيع تخليص شعري من أصابع ذات عقد، ولا أخالف، أو أتمرد، أو أقطع هذا الحبل النحاسي الصدئ الذي يلتف حول عنقي، فما هي مسؤولية والدي في الموضوع؟ إن الحبل الصدئ حبل وهمي، لكنه حقيقي بقدر ما هو وهمي. . إنني حرة. لكنني لا

أقوى على ممارسة حريتي. دون ذلك الطلاق، هجران البيت، فراق الطفلين، إحداث ضجة اجتماعية، وهذا كله كنت أقبله، أرتضيه، أتحمله، لـو كـان ثمـة من يـأخـذ بيـدي، يشجعني، يسـاعـدني، يحميني. . ولـو أن راجع جـاء. . آه يا والـدي، لماذا لا يـأتي راجـع الـذي وعدتني بـه؟ وهل يـأتي حراً هـو الآخر، منفلتـاً من القيـود الاجتماعية، ثائراً عـلى المجتمع، رافضـاً له، أم ينحني، يـركع، أو يتنصل من القدرة على المقاومـة، فيصبح مـذنباً بـدوره، مثلي ومثـل والدي وزوجي، وذلك الرجل، وكـل لهؤلاء الذين يمضغـون الحقد لكنهم لا يقذفون المـرارة في وجه الـظلم الاجتماعي؟ . . المـرأة، في شرقنا، ضعيفة حتى بقوتها، لا تنتفع بعلمها في مقاومة محيطهـا، ولا بثقافتها في التمرد على البيئة وامتلاك حرية التصـرف كالـرجل. إنني أنثى، وكـان والدي يعـرف هذه الحقيقـة، ويعرف أن الـزمن الذي تتطلق فيه الأنثى من قيود المجتمع الذكوري ما زال بعيداً.

في الليلة التالية كـان عليّ أن أستبـدل الحزن بـالفرح. أن أتقنـع بابتسامة. أن أرشق على وجهي زهـرة من الغبطة. ذلـك أن واصل دعا أصحابـه وزوجاتهم إلى العشـاء عندنـا، ولقد كـان لطيفـاً معي طوال اليوم، ونهاني، بكلمات يرشح منها اللطف، أن أعذب نفسي فيما لا طائل تحته، وأن أنسى كثيراً من عادات الماضي، وآخذ بما هو جديد من سلوك، فأندمج بالبيئة، وأتقبل مـواصفات حيـاتها وأوفـر عليـه متاعب إضـافية في البيت، إذ يكفيـه مـا يلقى من متـاعب في المعمل. وحدثته عما سمعتـه من فضيحة تلك الـزوجة، التي تسببّ بها، بشكل لا يصدق، زوجها نفسه، فقال لي:

ـ لا تصدقي كل ما تسمعين. .

ـ لكنها واقعة حقيقية . .

ـ علينا أن ننسى حتى بعض الحقائق . .

ـ تريدني أن أقبلها؟

ـ معاذ الله . . لكنني أريد التالي : إذا كنا لا نقبل ما يفعله الآخرون فلا نوجع رأسنا باستنكاره . . الدنيا تتغير، والأخلاق تتغير، والقيم تتغير . . هذا زمان آخر . .

ـ معنى هذا أنك تقبله؟

ـ أنا لا أقبله، ولكن لا أستطيع مقاومته . .

ـ لا تستطيع أم لا تريد؟

ـ وما الفرق؟

ـ أريد أن أطمئن إلى أننا خارج دائرة هذا الفساد.

ـ نحن فعلاً خارج دائرته . .

قالها بغير صدق. كنت أعرف، من نبرته، الصدق من الكذب في كلامه، هذا الاعتراف بتغيّر الزمن، وبتغيّر الأخلاق، والعادات، يحمل معنى التسليم بما هو سيّئ منها، ثم هو معذور على فرض أنه كان صادقاً في رفضها. ما يفعل فرد تجاه مجموعة؟ ما شأن الواحد تجاه الكل؟ إنه، بعد كل شيء، تاجر، وقانون التجارة، في وضع كهذا، يفرض نفسه، وقد كرر عليّ ذلك طويلاً، وأحسب أنه، لو دخلت علاقتنا في درب اللارجوع، يختار التجارة عليّ . . النساء موفورات، تاجر هو، وغني، ومن أصحاب الملايين، وفي وسعه أن يتزوّج أي فتاة، من أي عائلة، وأن يضيف ثروة إلى ثروته. هو لا يقول هذا لكن تصرفه يدل على أن في يده ورقة قوية . . إنه لاعب ماهر، والورق القوي يجعل الخاسر رابحاً . . إنني أفهم قانون

اللعبة. ليس في يدي أية ورقة، وكل ما أستطيعه، أن أترك هذا البيت، ولكن إلى أين؟ إلى بيت أبي؟ أبي لم يعد موجوداً، وأنا مطلقة، والانزلاق، على قشرة موز، قد يُفرض علي، وسينهشني الناس بكلامهم، فأسيء إلى ذكرى والدي، إلى اسم عائلتي، إلى سمعتي الشخصية..

مع ذلك، ملت إلى المناقشة.. كنت أريد، في رغبة انتقامية، أن أذله قليلاً، أن أعرّي حياته التي يزعم أنها نظيفة. أن أؤكد له أنني أعرف كل شيء، عنه، وعن فئته، وعن الأزواج والزوجات في هذه الفئة، وعن القطط السمان وأن أنتزع الأوراق القوية من يديه، أو أحمله على الاعتراف بأنها أوراق قذرة، يحمل مثلها الآخرون من أصدقائه وأبناء فئته. قلت:

ـ أنا أرجو أن نكون خارج دائرة الفساد، لكن ما أظن..

ـ تشكّين بي؟

ـ أنت اعترفت لي، قلت إن السوق لا ترحم، والمنافسة تتطلب اللعبة ذاتها، ولا أريد أن أكون خاسراً، مهما كانت الوسائل التي ينبغي أن أستعملها..

ـ أحسدك على قوة ذاكرتك..

أضاف:

ـ تحسبين أنك اكتشفت القارة السابعة؟ نعم إنني ألعب اللعبة ذاتها ولكن بأكثر ما أستطيع من شرف..

ـ وهذه الاستطاعة ستقل مع الأيام، وستجد نفسك في مثل وضع الآخرين..

ـ لكل وقت كلام..

ـ هـذا أوان الكـلام.. إنـك، الليلة، تـدعـو أصحابـك إلى العشاء.. تظن أنني لا أعرف من هؤلاء؟ أنت مخطئٌ إذن..

أراد أن يتحـدّاني. لم يكن يعلم أن النساء يقصصن كـل شيء في مجـالسهن، وأن استقبال هؤلاء النسـاء، الـذي أرغمني عليـه، قـد جعلني أطّلع على الخفايـا دون أن أتكلم، دون أن أقول، عنـه هو، أي شيء، كـما تقول كـل امرأة عن زوجهـا، وكل زوجـة عن زوج صديقتها. قال:

ـ ماذا تعرفين عن أديب الحواصـلي؟ وعن الدكتـور طامـح، وعن لاهف الأجـرد وأمثالهم.. أليس هؤلاء من أصـدقـائنـا؟ أيـة تهمـة لديك تلصقينها بهم؟

عـداني بتحدّيـه.. استغبـاني، ألا يكفي أنـه يستضعفني، فيـأتي الآن يستغبيني أيضاً؟ إنني أعرف قصص هؤلاء.. أعرف زوجاتهم، أرى الذهب والماس والثياب المستوردة. قصصهم المشينـة معروفـة. لقـد انغمسوا في الفسـاد حتى الـذقـون.. أصحـاب مـلايـين هم. عشرات الملايين، مئات الملايين.. ولـو رسمنا هـرماً في رأسـه يقف أصحاب المئات، لتلاهم أصحاب العشرات، ولكان في قاعدة هـذا الهرم، ومهما تكن عريضة، الآلاف من أصحاب الملايـين.. ونحن بينهم، فمن أين جاءت هذه الثـروات كلها؟ وكيف ارتفعت أسعـار البيـوت، في شارع المـالكي أو أبورمـانة، إلى عشـرات المـلايـين؟. الشقة الواحدة صارت بمليونين، والأثاث من إيطاليا، والتجهيزات، بما فيها الـرخام تهـرّب من الخارج.. أيـظنني جاهلة.. يحسب أنني ألفق التهم وألصقها بهم؟

قلت له:

ـ أنا لا أغتر بالذهب والماس.. قطعة موسيقية لدي أفضل.. ليس معنى هذا أنني أنشد الفقر، لكن الغنى لا يزدهيني..

نبر:

ـ هذه ديباجة معروفة. إلى أين تريدين الوصول؟

ـ أريد الوصول إلى نقطة بسيطة ومهمة.. أنا، هذا المساء، سأستقبل ضيوفك.. وزوجاتهم، لكنني لا أحترمهم جميعاً، وأملّ مجالسهم، وأحتقر كل تلك الحلى والأموال التي يتباهون بها..

ـ لو كنت عديمة المجوهرات لقلت إنك تحسدينهن..

ـ ربما.. تساءلت عن هذا.. نقبّت في ضميري..

ـ في ضميرك الذي أفسده والدك؟

ـ دع والدي.. مئة مرة، ألف مرة، قلت لك دع والدي.. كان إنساناً شريفاً على الأقل.

ـ ألأنه كان فقيراً؟ ألأنه بدّد ثروته بما لست أدري من هوس بالكتب ومجالس الكتّاب والأدباء؟

ـ بل لأنه لم يغشّ أحداً..

ـ ونحن لا نغش أحداً.. التجارة شطارة.. هذا كل ما في الأمر..

ـ بين الشطارة والغشّ فرق.. هذا صديقك أديب الحواصلي المهندس..

قاطعني:

ـ ما به..؟ إن لديه مكتباً هندسياً، وهو يعمل، ويربح بعرق جبينه.. بموهبته في البناء..

عندئذ سألته بهدوء:

ـ والغش في البناء؟ ألا تسمع بالبنايات التي تنهار، في هـذا البلد العربي، أو ذاك، وخاصة في مصر؟ أليس ذلك بسبب الغشّ؟

ـ هذا يحدث. . يحدث أحياناً، ولكن لابد أن ينـال كل غشـاش جزاءه.

ـ من يدري؟

ـ كيف من يدري؟

ـ أنا أقول من يدري وأنت تعرف الحقيقة.

أضفت:

ـ ثم ما رأيك بتجـارة الأراضي، وشراء الأرض بـأرخص سعر، حتى إذا نُـظمت ارتفع سعـرها إلى السـماء؟ . . إنهم ينهبون البلد. . يفعلون ذلـك جهـاراً نهاراً. . وعــليّ، هـذا المســاء، أن أستقبلهم باحترام كبير، يليق بمقامـاتهم الكبيرة، وكـل ذلك لأن لـك في ذلك مصلحة. . وها أنت تـدفع بي إلى مشـاركتك لعبـة المصلحة هـذه، وبعد ذلك تعرّض بوالدي، وتهدّدني من طرف خفي.

ـ اسمعي. . هي كلمة واحدة، أريدك أن تستقبليهم كأصدقاء.

واستقبلتهم كأصدقاء!

وبقيت «أستقبلهم» على مضض، وفي كل يوم، كل ساعة، ألعن نفسي، وحيـاتي وأنعي جبني وقعودي في هـذا البيت، لكن مـا كـان يمسـك بي عن إتيان مـا لا يجب، ما لا أريـده، هـو أنني، كـما قـال والدي، كنت أنتظر ظهور راجع. .

وجاء اليوم الذي ظهر فيه راجع. .

صوت ـ ٦

هل حقاً أنا راجع؟

لقد وقع الذي كنت أخافه وأحببت. أنا الفقير، البائس، صاحب البدلة اليتيمة أحببت. في الأربعين من عمري أحببت. القدر قال كلمته. كنت أخاف القدر وكلماته دائماً، ولعلّ خوفي هو الذي أغراه بي.. لقد رأيتها، ذات ليلة، في أمسية موسيقية. لكن من أنا أولاً؟ أنا ديمتريو البنيوتي. أمي خريستين. والدي اسطفان. ولدت في اليونان. أحمل الجنسية السورية، أعمل معلماً للعزف على الكمان، أعلم أولاد الأغنياء، تنافسني البيانو، كلّ الأغنياء يريدون اقتناء بيانو، صارت هذه الآلة البغيضة قطعة من أثاث البيت. حيثما دخلت وجدتها تمثالاً شيطانياً، في وجهي. باستطاعتي أن أعزف عليها، أن أعلم المبتدئين العزف عليها، لكنني عازف كمان. أحب عزف الكمان لا البيانو، درست العزف عليه في المعهد الموسيقي في أثينا. أصلي من كريت. والدي فلاح بسيط. أمي قروية مسكينة.

عـائلتنا تتـألف من أب وأم وثلاثـة صبيان وبنتـين. أجهل مـا حـلّ بعائلتي بعدي. من المؤكـد أنها تفرّقت. ضـاعت كما ضعت. مـات الأب والأم. علمت، من أحد المهاجرين من الجزيرة، أن أبي وأمي مـاتـا. بكيت. مـاذا ينفـع البكـاء؟ لعلّي بكيت عـلى نفسي وليس عليهما. بكيت عقوقي وضياعي. الأخطاء تتطلب أثمانها. أنـا أدفع ثمن أخطائي. أدفعه دمعاً، ولكن ماذا يسـاوي الدمـع؟ بأيـة عملة يباع؟ ومن يشتريه؟ ثم أنا، في مهنتي، ودخـولي بيوت النـاس، عليّ أن أمسح دموعي جيـداً، أركّب ابتسامـة. تمرّنت عـلى تركيب هـذه الابتسـامة. لكن عينيّ الخضـراوين قليلاً، تفضحـان حزني. يـدور البؤبؤان بحركة دائمة، أغمز أحياناً بغير سبب. لكي يبتسم الطفـل الـذي أعلمـه، لكي أبتسم أنـا نفسي.. إن مهنتي شـاقـة. قلع الحجـارة، تكسيرهـا، أهـون من تعليم العـزف، في بلد يجهـل الموسيقى، يكرهها.. ثم فجأة، هذه الأيام، صاروا يريـدون تعليم أولادهم الموسيقى، يريـدون تعليم بناتهم البـاليه.. يسـألونني: ألا تـدرّس البـاليه؟ بلى! أنـا أعـرفهـا، كـانت، في المعهـد، جـزءاً من الـدروس. كان لهـا قسم خاص، لكنني التحقت بقسم المـوسيقى، وحتى لو كنت أرقص البـاليـه، وأعرف تعليمهـا، فإنني لن أفعـل.. لست مهـرجاً، لن أهـرج بعد هـذا العمر. أقبـل شيئاً واحـداً، أن أعزف مقطوعـة على البيـانو، تتمـرّن عليها الـطفلة في البيت، حين أكتشف صلاحيتها، صلاحية جسمها، قوامها، مرونتها، قابليتهـا، نجـابتهـا.. إنني أفعـل ذلـك كـرمى لهـا، للطفلة، ولكن الـدرس الأساسي، هو العزف على الكمان. التدريب، مـع الموسيقى، عـلى البيـانو، حصـة إضافيـة. كي أثبت أنني أعزف عـلى البيانـو أيضاً، أعـزف ولا أعلّم. ليس هـذا اختصـاصي. أنـا رجـل محتـرم. فقـير

ولكني محترم. أحترم مهنتي. غير أن الناس، أكثر الناس، يريدون تعليم أولادهم العزف على البيانو، يقولون إنهم اشتروها خصيصاً لتعليم أولادهم عليها. ولكن الولد قد لا يحب العزف على البيانو فيكرهونه. يكرهون بناتهم الصغيرات أكثر. وقد تكون هذه البنت أو تلك، هذا الصبي، أو ذاك، عديم القابلية. أذنه غير موسيقية، لا فلاح له في تعلم الموسيقى، لكن الأهل لا يبالون بهذا. من تمام الوجاهة أن يرسلوا بناتهم إلى المعاهد الموسيقية. أفرح بذلك. الموسيقى سر الحياة، فرحها، سحرها، لكن أساتذة المعهد يشكون كما أشكو، يقولون إنهم يلاقون ما ألاقي، يتعذبون كما أتعذب، لا يجدون قبولاً ولا تفهّماً من الأهل، تعليم الأولاد الموسيقى شيء على الموضة. هم أيضاً يريدون أن يكونوا على الموضة. بعد ذلك لا يبالون، يحسبون أن كل طفل أرسل إلى المعهد الموسيقي، أو أُحضر له معلم إلى البيت صار موسيقياً، خطأ! خطأ! ولكن من يبالي بالخطأ؟ من يقتنع؟ ومن يصدق أن هذا الطفل، هذه الطفلة، قد يكون، أو تكون، ميالاً أو ميالة إلى الكمان، وأنها قد تبرع فيها أكثر؟ الكمان ليس حلية، ليس قطعة أثاث، ليس شيئاً للوجاهة، وهكذا تهزم البيانو الكمان، ويقلّ رزقي، ولولا أنني بعطف من مدير المعهد الموسيقي، أعلّم بضع ساعات في الأسبوع، لكنت متّ من الجوع. صحيح أنني يوناني، لكنني سوري الجنسية، ولأنني كذلك، فأنا أُعطى أقل مما يُعطى الخبير الموسيقي الأجنبي. يقولون: هذا هو القانون! أنا أحترم القانون. عشت عمري كله على احترام القوانين، إنما هذا ظلم فادح، صارخ، ويقول لي مدير المعهد إنه سيعمل لرفع الغبن، غير أنه لا يستطيع، يصطدم، كلما حاول، بالقانون إيّاه.

لن أقول ما فائدة الندم، بل ما معناه. الندم صار له عندي معنى آخر، لا يزيد إلا في اجترار ظلم القدر. حياتي صارت ندماً كلها، ملعونة الحياة التي يغدو الندم نسيجها، كفى! أقول لنفسي، لقد انتهيت، الناس ينتهون في الختام. أنا انتهيت منذ البداية. كان عليّ، حين هربت من أهلي في جزيرة كريت، وعملت في أحد الفنادق، ودخلت كلية الفلسفة في وقت واحد، أن أتابع دراسة الفلسفة. لكنهم عندنا، في اليونان، كانوا يتداولون نكتة دارجة: «لا تخف ألاّ تجد مهنة لابنك ما دامت الفلسفة موجودة». كانوا يتندرون. يطلقون على أثينا اسماً طريفاً «مصنع الفلسفات المعلّبة». ربما لم أكن في طبعي من هواة الفلسفة، لم أستسغ حواريات الفلاسفة. أفلاطون وسقراط وأرسطا طاليس، . كان جو أثينا يعبق بأنفاسهم، لكن جو أثينا يعبق بأنفاس المسرح، والأعياد الاولمبية، وبالعلوم، وكان عليّ، إرضاءً لميلي، أن أنضم إلى معهد التمثيل، لكنني، بدافع من ابليس، اخترت معهد الموسيقى. قلت أصير موسيقياً كبيراً، شهيراً، وفي أسوأ الأحوال، أكسب عيشي من العزف، في الصالات أو مع الفرق المتجولة. ألتحق، إذا أجدت العزف، بفرقة سمفونية، أهاجر، أعيش في أوروبا، أوروبا فاغنر وباخ وشوبان، هذا أفضل من التمثيل، الممثل، تلك الأيام، كان يعيش نصف عيش. أنا أردت عيشاً كاملاً. تطلعت إلى المجد، الخلود، الشهرة، وكذلك إلى كسب المال، لمساعدة أبويّ الفلاحين وعائلتي في الجزيرة البور. لكن الفقر حال بيني وبين دخول المعهد العالي. تعبت من العمل والدراسة، وكانت أزمة الثلاثينات قد بدأت، توقّف المرفأ. تعطلت صناعة السفن. كسد الأسطول التجاري. المدينة، على مرفأ، تموت إذا مات المرفأ، وفي تلك الأزمة

الخانقة، لحقت بملايين العاطلين عن العمل، وبصعوبة قبلتني فرقة موسيقية مسافرة إلى جزيرة قبرص، لم نتوفق كما يجب. كانت الجزيرة تعيش على البحر أيضاً، والبحر في كساد، فأغرانا مواطن يوناني، يعيش في اسكندرونة، أن نذهب إليها، حيث تعيش جالية يونانية كبيرة، ومن هناك نجمع أجرة السفر إلى الاسكندرية، حيث قومنا اليونانيون يعيشون بكثرة.

في اسكندرونة وجدنا الحال كما في أثينا، وقيل لنا إن الاسكندرية كمرفأ ليست أفضل حالاً، وأمام الفشل المتواصل، اضطررنا إلى بيع آلاتنا لنأكل بثمنها. وقيل لي إن المعهد الايطالي في اسكندرونة يحتاج إلى عازف على الكمان للتدريس، ذهبت وعرضت نفسي، امتحنوني، نجحت في الامتحان، عملت في التدريس براتب يكفيني، بقيت ثمة عشرة أعوام، لكنني تبيّنت، في أواخرها، أن للمعهد مهمة أخرى، وأن الرياضة، والموسيقى، والتمثيل، ليست إلا إغراءات للشباب، كي يتبنّوا الفاشية. وفعلاً شرع معلمون إيطاليون بتعليم الشباب الأنظمة العسكرية.. كانوا بغير سلاح، لكنهم، مثل فرق موسوليني، كانوا يرفعون أيديهم بالتحية، ويهتفون له. رفضت المشاركة في اللعبة. كانت لعبة الفاشية قذرة. كنت، وأنا طالب، يسارياً، وكنت يسارياً بطبيعة وضعي العائلي وشقائي والبيئة الفقيرة التي عشت فيها، وكنا نكره الفاشية، ونكره النازية، ونعمل ضدها، وها أنا، بعد كل هذا التشرّد، أجد نفسي ستارة موسيقية لموسوليني. اللعنة! رفضت المشاركة في اجتماعات المدرّسين، وفي الموافقة على الأفكار التي كانوا يطرحونها في الاجتماعات. بل رفضت رفع يدي بالتحية الفاشية، قلت في نفسي: «أقطع يدي ولا أفعلها».

«قطعوا» يدي قبل أن أقطعها، سرّحوني من العمل. قلت في نفسي «لا بأس يا ديمتريو، أن تجوع خيرٌ من أن تخون نفسك» عملت في خمارة صاحبها يوناني. كنت أعزف وامرأة يونانية ترقص. كانت لعنة أخرى، غير موسولينية هذه المرة، لكنها انحدرت بي إلى العمل في خمارة، ومع راقصة، وخمار لا يفهم من الموسيقى إلا إثارة الغرائز، وتهييجها عند السكارى من زبائنه. أصبحت في حال زريّة، أين منها الفلسفة، والموسيقى، والشهرة والمجد. طال بي الزمن. تقطعت أسبابي باليونان، بالجزيرة، بأهلي، وسعى لي الخمار، بوساطة أحد زبائنه، فحصلت على الجنسية السورية. «انتهى الأمر» قلت في نفسي، سترقد عظامي، بغير احتفال ولا كرامة، في مقبرة هذه المدينة، ولا فائدة من الجلوس في الأماسي، على الشاطئ، والنظر بعين أسيفة إلى البواخر الراحلة والقادمة من اليونان، أنا لن أرحل ولن أجيء. صرت عضواً في الجالية اليونانية، أخذت أعلم أولادهم العزف، تحسّنت حالي. استأجرت بيتاً. اشتريت ثياباً لائقة. لم أعد أبالي بالخمّار وتهديداته، رفضت بحسم أن أصبح قواداً مثله، أفهمته، بكلمات صريحة، جريئة، أنني أدخل بيوت الناس الطيّبين، الشرفاء، وأنني أذهب إلى الكنيسة، وفي أسبوع الآلام، اشتركت في ترتيل أناشيد الجناز، صرت معتبراً. وأرسلت لأول مرة، بواسطة تاجر يوناني، نقوداً إلى أهلي، ورسالة بكيت بسببها مرتين، الأولى عند كتابتها، والثانية عند ورود جوابها. كان في الخمارة فتيات يونانيات ساقطات. لم أعزف لهنّ ولا مرة، كان دورهنّ أن يجالسن الزبائن، وفي آخر الليل. الخلاصة: قلت للراقصة انستاسيا: «اسمعي يا صديقتي. . أنت ترقصين وأنا أعزف، هذا جيد. هذا، برغم وضع الخمارة الحقير،

يظل من الشرف. إذن جرّبي أن تكوني صريحة. . أنت معي أم مع الخمار؟» قالت بغير تردد «معك» قلت: «حسناً لا أنت عاهرة ولا أنا قواد، نحن فنانان، ينتهي عملنا فننصرف. . تأتين يوم الأحد إلى الكنيسة، تتناولين القربان، ترفضين إغراءات هذا الكلب دوبولوس في الجلوس إلى الزبائن، أو مرافقتهم، بعد إغلاق الخمارة، إلى الأسرّة. . تحافظين، مثلي، على كرامة الفن. . لا تنسي أننا من أثينا، من مدينة هي أهم المدن في التاريخ، وأن الجالية اليونانية، هنا، تفتح لنا أبوابها». سألت: «وإذا أرغمني على ذلك الشيء؟» أجبتها فوراً، وبصورة قاطعة: «تتركين العمل»، «ومن أين أعيش؟» من دخلي»، «وإذا طردك مثلي؟»، «نعيش من الدخل القليل الذي يأتينا من تعليم الموسيقى».

اتفقنا. لم يستطع إنهاء عملنا. كان البحارة اليونانيون يأتون لسماعنا. كنت أعزف، أغني، وكانت ترقص، صار رقصها فنياً، محتشماً، وكنا، حين تفرغ الخمارة إلا من اليونانيين، نغني أغانينا بصورة جماعية، بصوت واحد، فيه نشاز، فيه خروج على اللحن، فيه عدم اتساق، لكنه كان جماعياً، وكان عن اليونان، عن بيوتنا، أولادنا، أهلنا، وعن بلدنا الجميل البديع، وكان دوبولوس، هذا الكلب، نعم هذا الكلب نفسه، يغني معنا، يغلق أبواب الخمارة، يقدم خمراً مجانياً. يبكي. تأملوا، هذا العاهر يبكي. . إنه يوناني بعد كل شيء، وفيه شيء لا يموت، شيء من اليونان، دم يوناني، مهما يكن رديئاً فهو دم من هناك، من بلاد الاكروبول. ويوم الأحد كنت أصلي في الكنيسة، كانوا يصلّون بالعربية واليونانية. كنت أجيد اللحن، وصوتي كان حنوناً، وفي عيد الفصح، صباحاً، بعد

صلاة القيامة، قبلتني أنستاسيا قائلة «خريستون سانستي (المسيح قام)أجبتها: «خريستون سانستي يا حبيبتي» وتناولنا، ذلك اليوم، الغداء معاً، ومن صنع أيدينا، في بيتي، وأعددنا دجاجة، وبيض العيد الملوّن، وبعض الكعك، . كان ذلك كله سعيداً كما في حلم، ودُعينا، في المساء، إلى حفلة صغيرة، تبادلنا فيها التهاني، والقبلات. . وهكذا تغيرت حياتي، لم يعد القمر مسلولاً، ولا الغروب رمادياً، وكنا، في ليالي الصيف، نستأجر قارباً صغيراً نقوم فيه بنزهة في البحر، تغمرنا أضواء الشاطئ، يأخذنا الليل في عباءته ويرحل، وتتعنقد النجوم فوقنا، فإذا حان موعد العمل في الخمارة، كان العزف والغناء والرقص يحلو.

لم ندع الفرصة تفوتنا. تزوّجنا، باركنا كاهن المدينة، وحضرت أسر محترمة من الجالية حفلة زواجنا، وأرسل إلينا دوبولوس باقة ورد وزجاجات من الخمر، وقالوا لي: «غنّنا، يا ديمتريو، في ليلة عرسك، اعزف لنا شيئاً يونانياً مما يعزف في الأعراس»، وقدموا لنا الهدايا، وفي اليوم نفسه، ونحن بثياب العرس، تصورنا، وأرسلت الصورة إلى الجزيرة في اليوم التالي.

كانت تلك آخر رسالة بيني وبين أهلي. لم يبعثوا بجواب. انتظرت ولم يأت جواب. علمت بعد سنتين، أن والديّ ماتا. . . انتهت الحبكة. عقدة البيت انحلت. تفرق الجميع، ضعنا جميعاً، واكتمل ضياعنا بقيام الحرب العالمية الثانية، واحتلال المانيا لليونان. هذا ما كنت أحسب حسابه. أخاف منه، أراقب، من خلال صحف يونانية تصل الجالية، أن النازية تكشّر. بعد التكشير جاء الابتلاع. افترست اوروبا بلداً بلداً، في ظل هذا النهش والقضم

الدوليين، رأينا، في اسكندرونة، نيوب أنقرة. لا يستطيع اليوناني، أن يثق بحاكم تركي. التاريخ هو التاريخ، تاريخنا لا يدع للطمأنينة مكاناً. دخلت تركيا اللواء، رأيت جنودها يسيرون في الشارع، أحسستهم يطأون كبدي. الجالية اليونانية اضطربت. دوبولوس الخمار لم يعد يفتل شاربيه. العرب تخوفوا. الأرمن أكثر. كانوا يعرفون المذابح القديمة. يذكرونها أباً عن جد. بدأت الهجرة، راجت الاشاعات، عقدت الجالية اجتماعاً. شرح عميدها الخطر، طالب الجميع بالاستعداد، أوصى بانشاء صندوق لجمع التبرعات تسهيلاً لترحيل العائلات الفقيرة. تبرع كل من استطاع، عميد الجالية دفع مبلغاً محترماً. دوبولوس الخمار، باع خمارته. دعا إلى ليلة وداع فيها. عزفت ودموعي تسيل على الكمان. لم ترقص انستاسيا، لا مكان للرقص. عزف، غناء جماعي، عناق، بكاء، وفي آخر الحفلة، رغب دوبولوس أن يمثل دور الملاك اليوناني. كانت الخمرة قد لعبت به. صعد إلى سطح البار وألقى خطبة قصيرة. قال إن الزمن الذي جمعنا هو نفسه يفرقنا. وقال بالإيطالية: «فينيتو لا موسيكا» وبكى من خلال شواربه. أخرج من جيوبه كمية من المال «هذا، قال وهو يتعتع، تبرّع مني» ضرب على رأسه بكفيه وصاح: أنا الخاطئ يا اخواني. أعرف أن في خمارتي ارتكبت أشياء منافية. لكن الخمارة ليست كنيسة، فكروا، أنتم، واحكموا أيها الطيبون، إنني، في أعماقي، لست شيئاً، لكن المهنة هي المهنة. خمار وكاهن لا يجوز. الخمار مضطر إلى إغماض عينه الواحدة، وأحياناً إغماض الاثنتين، لكن من عمل معي باستقامة، عاملته باستقامة، اسألوا انستاسيا، اسألوا ديمتريو. تكلم يا ديمتريو.. قل شيئاً. تذكر أننا قد نلتقي ثانية.

في تلك اللحظات الوداعيـة، صفا قلبي عـلى دوبولـوس، وقفت لأتكلم، دفعـوني للصعـود إلى إحــدى الـطاولات، كــان القـوس والكمان ما يزالان في يدي، تهيبت الكلام، كنت أختنق. كان الوتر يختنق، الأصـابع تختنق، والقـوس، دون أن أسحبـه عـلى الأوتـار، سمعته يئن، وصفق الحاضرون، وكان دوبولوس مـا يزال عـلى البار أمـامي، رسمت الصليب، قلت: «باسم اليـونان، بلدنـا العريق، بلد الحكمـة، والآلهـة وهـوميـروس، أحييكم جميعـاً كيـونــاني بـارّ ومخلص». صفقوا لي. الاستهلال كان جيداً، لكن دوبـولوس كـان ينتـظر شهادتي بـه. قـاطعني، صـرخ وهـو ثمـل، من فـوق البـار: «اذكرني بكلمتين يا ديمتريو. . كن منصفاً. . لا تتـرك الخطيئـة تثقل وجـدانك» صفق الحـاضرون. كـانوا يصفقـون بالسهـولـة التي بهـا يشربون. كان كل منهم يريد أن يقـول شيئاً. وكـانت انستاسيـا إلى جـانبي، وصاحت بي: «هيـا، بحق المسيح، قـل كلمة طيبة بحق دوبـولوس. . إنـه لم يؤذنا، بـرغم خطايـاه». في هذه اللحـظة رسم دوبـولوس الصليب عـلى صـدره، وأنشـد نشيـد القيـامـة، وهتف: «عاشت انستاسيا. أختنا بالروح، فنّـانتنا. . وليغفر الله خطايـاها. . ليغفـر خطايـا الجميـع. . هـا هـو البحـر. . لنـذهب ونتعمـد فيـه» وأنشـد: «انيوردوني بـافتي زوميني سوكيـريه»(١) فـأنشدنـاها بصـوت واحـد، وفتحت فمي لأقول، أخيـراً، كلمتي، فصفق دوبـولـوس، واقتدى به الجميع، وأشرت لهم، كخطيب يوناني يواجه جموع اثنيا، إلى السكـوت فسكتوا، ولم يفتـح الله علي بسـوى هـذه الكلمـات: «هـذا التيس العجوز (وعـلا الضحك والتصفيق) هـذا البرميـل من

---

(١) «باعتمادك يا ربّ في نهر الاردن».

الخمر، برغم خطاياه التي بعدد الرمل، طيّب أحياناً. كان يونانياً. . ليغفر الله له، وفي الآخرة، ليشمله بمغفرته ويدخله الجنة». وصاح رجل: «على شرط ألا يفتح هناك خمارة» وقال آخر «حيثما وجد اليوناني وجدت الخمارة ولو في الجنة». . وقالت امرأة «دوكسا سيكر»[1]. ورسمنا الصليب، بصورة جماعية، ونزل دوبولوس عن البار وفي يده زجاجة وكأس، وراح يتبادل الأنخاب والقبلات مع الجميع، وبعد أسبوع سافر إلى قبرص، وبذلك انتهت الملهاة التي صنعها لنا في وداعه، ولم يكن أحد يؤمن بكل ما قيل، فالمسيح ليس له علاقة بما جرى، ودوبولوس خاطئٌ أكثر من ابليس.

أكثرية الجالية سافرت إلى اللاذقية وبيروت والاسكندرية، اليونانيون رجال بحر، جيران بحر، لا يحبون العيش سوى في المرافئ، انستاسيا وأنا سافرنا إلى اللاذقية. هذا بلد قريب، وهو ميناء جيدة، وفيها يونانيون، ومن حسن الحظ، أن الأب ايميه فيليكس، الذي كان رئيس مدرسة الفرير في اسكندرونة، وكان نبيلاً، طيباً، روحاً يونانية برغم أنه فرنسي، قد صار رئيساً لمدرسة الفرير في اللاذقية. كنت أعرفه. أحبه. جميع الاسكندرونيين كانوا يحبونه. وكانوا، بعد هجرتهم، يأتون إليه طلباً للعون، للوساطة، للدراسة. قصدته في جملة القاصدين، قلت له إنني بطّال، لا خمارة يونانية في اللاذقية، ولا أعرف أهلها، وسأصبر طويلاً قبل أن يصير لي بعض التلامذة، وأنا وزوجي بحاجة إلى اللقمة، ساعدنا، أيها الأب المقدس. نعم قلت له الأب المقدس وأنا مؤمن بما أقول، فمازحني قائلاً: «لكل منا خطاياه يا ديمتريو! «طوبى لأنقياء القلب لأن

---

(١) «يا ربّ ارحم!».

لهم ملكـوت السموات» انت نقي القلب يـا بنيّ، وأنا في سبيـلي إلى ترتيب أمور المدرسة، كرئيس جديد لها، ولدي فكرة: ماذا لو فتحنا قسماً لتعليم الـموسيقى؟ أو مـاذا لـو أعـطينـا في مـدرستنـا دورسـاً موسيقية؟» قلت متأدباً، متـواضعاً، كـأنني في حضرة مـلاك: «أنت وما ترى يـا أبت. . المسيح، عليـه السلام، قـال: «تعالـوا إليّ أيها المتعبـون وأنا أريحكم» أنـا متعب، فـأرحني أيهـا الأب، يـا أخي في المسيـح» أعجبه كـلامي. سألني: «أين تعلمت في اليـونـان؟» قلت «حتى الثانوية في جزيرة كريت، وبعد هاجرت، هرباً من الفقر، الى اثينا، حيث عملت ودرست. . وبقيت سنتين أدرس الفلسفة، قبل أن أتـرك الكلية إلى المعهـد الـموسيقي»، قـال: «لـو تـابعت دراسـة الفلسفة. . أو لو دخلت المعهد العالي للموسيقى. . قلت: «هذا ما كان حظي. . كنت فقيراً، وبحاجة إلى اللقمة، وحكيت لـه كامـل قصتي. .

زرع الطمأنينة في قلبي. كان خروفاً مسيحياً حقيقياً. كانْ طيباً، جميـلاً، ومن نظارتيـه الذهبيتـين،ووجهـهالبـدري، والشيب في ذقنه وشعـره، وقامتـه الطويلة،عـريضةالمنكبـين،كان يـذكِّـر بفـارس من القرون الوسطى، إلا أنه، في وظيفته، كان فارساً ربانياً، كـان قلبه مـع الفقراء، كـان الإنجيـل في ضميـره. سقـاني القهـوة، أعـطاني مبلغاً، وقال لي: « منذ الغد التحق بالمدرسـة. . لن تجد عمـلاً منذ اليـوم الأول، لكننـا سنتعـاون، وسنـرتب درس الـموسيقى. . هـل جـرَّبت أن تعـزف عـلى الأرغن؟»كنت قـد جـربت. . مـا أردت الكذب. . صارحتـه بأنني عـازف كمان، لكنني أعـزف على البيـانو والأرغن، ومستعـد، وقت الصـلاة، أن أعــزف مـوسيقى تـرافق

التراتيل، إذا كانت هناك نوطات موسيقية. . قال: «يوجد. . وستعزف للرهبان والراهبات في أوقات الصلاة، فاحذر غواية الشيطان» قلت: «أتقبل توجيهك المبارك بسرور. روحي بحاجة إلى هداية. . برغم أنني أحفظ الوصايا العشر، وأنا متزوج».

خروف المسيح هذا، أنزل عني متاعبي ببساطة مذهلة. درّست الموسيقى في مدرسته، عزفت على الأرغن في أوقات الصلاة، تقاضيت مرتباً يكفي، استأجرت بيتاً صغيراً، وقلت لانستاسيا: «الرب، تبارك اسمه، معنا. إنه نظر إلينا من السماء وأشفق علينا. ما كنت أحلم أن أجد عملاً بهذه السهولة. . إليك بالفلوس، أنت عاقلة. زوجة صالحة. تدبّري الأمور. . وسيكون كل شيء على ما يرام. ». وقالت انستاسيا: «لكنني، دون عمل، سأبقى حجراً معلقاً في عنقك. . أنت تعرف أنني أرفض الابتذال، وليس من اليسير أن أرقص في أيما خمارة حتى لو وجدت. . اللاذقية تختلف عن اسكندرونة. وسيكون عليك، بعد اليوم، أن تعيل اثنين. . مؤسف، إنني لا أستطيع مساعدتك يا ديمتريو». هذه الكلمات الطيبة تشرّبتها عروقي كخمرة المذبح. أنا نفسي لا أريدها أن تعمل. يكفي رقصاً للآخرين. لن ترقص لي أيضاً. سنرقص معاً في رأس السنة، في المناسبات الكبيرة، وما عدا ذلك لا. . انستاسيا، التي حرمت من الولد، ومن السعادة في الزواج، وفي الحب، وعاشت تعيسة لتبهج الآخرين، جاء اليوم الذي تبتهج فيه. أنا من سيدخل البهجة إلى قلبها. سأجعلها امرأة بيت سعيدة، وإذا توفّر معي بعض النقود، فسأقدم لها هدية ما في عيد ميلادها، ستكون هدية تحبها، خاتماً بحجر أزرق.

وعدي ظل وعداً. التزمت به وقررت تنفيذه، وتوفّر معي بعض المال، لكن التي أقدم اليها الهدية لم تعد موجودة. رحلت، ذلك الشتاء، إثر إصابتها بذات الرئة. كان هناك طبيب أرمني اسمه بدروسيان. كان قريباً من بيتنا. هرعت إليه، قلت: «الحقني، حرارة زوجتي أربعون. .» قال: «انتظر الى أن تفرغ العيادة من الزبائن» انتظرت كما طلب، لم يكن ثمة كثير من الأطباء، وكان قريباً، ويمكن أن يأتي معي إلى البيت، ولم أكن أعلم أنه يشرب كثيراً، وأنه يشخص المرض وهو سكران، هذه الناحية لا تهمني، كما لا تهم الآخرين. لأنه، مهما شرب، يظل على وعي كاف للمعالجة. كانت انستاسيا تحترق بالحرارة، وكانت تقيء، فأعطاها علاجاً، ووصف لها أكياساً من الماء البارد على رأسها. أوصى بتبليعها قطعاً صغيرة من الثلج. لقد أراد إنزال الحرارة ووقف القيء. كانت مصابة بالنيمونيا، وتحتاج إلى مضاد للالتهاب، وشيء ساخن، وها هو، بدلاً من معالجة العلة، عالج بعض أعراضها. وخلال اسبوع، خطف الموت رفيقة حياتي. كانت الضربة قاتلة لها، وموجعة لي. لماذا، هذه المرة، أخطأ عزرائيل؟ قالوا لي ان الله أحبها وأخذها. كفرت. قلت ليته لم يحبها. . لماذا، يا ربّ، لا تحب الا الطيبين، وتأخذهم؟ كانت بعدي ستشقى، ولكنها، بطريقة ما، ستدبر عيشها، وهذه الحرب لن تطول إلى الأبد، وستجد وسيلة للعودة إلى اليونان.

بانتهاء أيام ثلاثة، كان التشييع والدفن والعزاء قد انتهى. فرغ البيت. انطفأ زيت الأيقونة، داخلني شعور بالمرارة، بالحسرة، بالفاجعة التي قصمت ظهري. رحت أغلق الباب، وأقرأ في

الانجيل تارة، ناشداً العزاء، مستغفراً ربي، مسلماً أمري إلى يسوع، وأعزف على الكمان طوراً، وانكببت على وضع مقطوعات حزينة، بل صرت مغرماً بعزف النشيد الجنائزي لشوبان. كدت أفقد عقلي. يد الشيطان امتدت الى عشّي وخربته. انطفأ شيء في الكون. صرت حزيناً الى درجة الموت. تمنيت السفر إلى قبرص، عساني أجد دوبولوس وأعزف في خمارته من جديد. . وكمن حكمت عليه السماء، راحت الاحكام تنفذ بحقي واحداً بعد آخر. نقل الاب ايميه فيليكس من اللاذقية. قيل إنه هرب والتحق جندياً بقوات فرنسا الحرة، وعندما دخلت هذه سوريا، سألت عنه طويلاً، فقيل لي إنه في بيروت، في مدرسة الفرير. لم يكن ذلك صحيحاً. كنت قد فقدت وظيفتي في مدرسة الفرير باللاذقية، لاختلافي مع الأب الجديد، الذي كان، سراً، من أنصار فيشي، قلت له: «اسمع! أنت ترى أنني فقير، ليس لديّ شيء أخسره، كسرة الخبز يمكن أن أجدها في أي بيت أعطي فيه دروساً. أنا أحب فرنسا، ولكن أنا سوري الآن، ويوناني أيضاً، والفاشيون في اليونان، وأنتم في سورية. . والأب الشريف ايميه ذهب ليقاتل كجندي شجاع. . أنا لن أعلم الحاناً أشتمّ منها رائحة الفاشية». . لن أطيل. صرفني من العمل. لم آسف. في سبيل اليونان، وطني المحتل، أرفض أن أخدم الفاشيين. بحثت عن عمل فلم أجد، بقيت عاماً كاملاً أعيش على الخبز والشاي. كان بعض تلاميذي، في الفرير، يأتون ويأخذون دروساً. كان بيتي غير لائق، صرت أذهب أنا اليهم. لكنهم كانوا هواة، وكانت الموسيقى ترفاً في نظر أهلهم، وهي لا تدخل في الامتحانات، وهكذا ابتعدوا عني الواحد بعد الآخر، فصرت أحمل كماني وأدور على الأسواق، على البيوت،

أعزف مقابل أي شيء، ولما جاء الجنرال كاترو إلى سورية، عرضت أمري على المستشار الفرنسي، قلت أنا إلى جانب الحلفاء.. أنا ضحية الفاشية، لكن المستشار حسبني أطلب صدقة، فقررت الهجرة إلى دمشق، لعلي واجد فيها متسعاً لعملي. ذهبت إلى مدرسة «الفرير»، قابلت رئيسها، قال إن لديه اساتذة للموسيقى. اعتذر بلطف، ولما اقترحت عليه العزف على الأرغن، في أوقات الصلاة، وافق، مقابل أجر بسيط، كنت مضطراً اليه فقبلت. سكنت قبواً في القصاع، قريباً من اللعازارية. كانت هناك راهبة طيبة، عرفتني إلى بعض العائلات، فأعطيت دروساً على الكمان لبناتها. تحسّن وضعي. والد إحدى البنات تكرم عليّ ببدلة. قال لي: «هذه الثياب لا تليق يا ديمتريو» كان شهماً، وفي الأعياد يضع بعض النقود الاضافية في جيبي.. هكذا عشت كالخلد، لا أخرج من وكري إلا في المساء، عندما أذهب للتعليم.. وفي الكنائس صرت معروفاً، وعزفت على الأرغن مقطوعات لشتراوس نفسه...

بعد سنوات انتهت الحرب. خرج الفرنسيون، اتسع التعليم. أعطيت دروساً في مدرسة «دار السلام» للبنات. اشتريت ثياباً. اعتنيت ببيتي. ومن عام لآخر أخذ وضعي يتحسن.. أنهيت عزلتي. أقمت بعض الأمسيات الموسيقية. حضرت كل حفلات الموسيقى التي أقامها موسيقيون أجانب زاروا سورية.. الشيء الوحيد الذي افتقدته أنه ليس في دمشق جالية يونانية مجتمعة. هناك أسر مبعثرة، وهناك خمارات لا علاقة لليونانيين بها، أغشاها من حين إلى حين، عندما أكون ماراً بقرب إحداها، لأتناول كأساً من البيرة المثلجة.

فجأة تغيرت الحال. صار غنى فاحش، الأغنياء أقبلوا على تعليم أولادهم الموسيقى، ولكن على البيانو وليس على الكمان، كانت هذه ضربة. كانت منافسة غير شريفة. لم تكن البيانو للموسيقى بل للزينة أيضاً. استوردوها من ايطاليا، والنمسا، والاتحاد السوفياتي، وكان عليّ أن أتطور، أن أشرع من جديد، بالتمرن على البيانو، والتعليم عليها، ولكن ذلك يلحق عاراً بي، لا أريد لكماني أن ينهزم، ولا أن أتخلى عنه، وحين تزول الموضة الدارجة، أو حين يصير في البلد كونسرفاتوار، أو فرقة سمفونية، سيعود مجدي، سيعود مجد الكمان، أنا لا أشك في أن مجده سيعود.

أعطاني، ذات يوم، مدير المعهد الموسيقى بطاقة لأمسية موسيقية على الكمان، كان الدور الرئيسي لها، وكان البيانو مساعداً. فرحت جداً، لكنني، بيني وبين نفسي، لم آمل كثيراً.. من هي راجعة المتبحر هذه؟ وما هذا الاسم الغريب؟ وماذا يعني؟ وأية تلميذة مبتدئة، أو أية عجوز متقاعدة ستعزف؟ إنني لن أجد شيئاً جديداً.. هذا واضح. لكنني قررت حضور الأمسية، وحضرتها.. استحلت الى كتلة مشاعر ملتهبة. اذناي تفتحتا. روحي غردت. قلبي خفق.. عيناي تعلقتا بالعازفة.. أحسست أن فيها شيئاً مألوفاً لديّ، شيئاً قريباً، ناشئاً عن مشاهدة، عن معايشة، عن صداقة، عن معرفة قديمة، قديمة.. وعندما انتهى العزف وقفت وصفقت، صحت بغير تحفظ «برافو» تقدمت وهنأت العازفة، قلت لها أنا فلان.. راعني منها ارتعاش على الوجه، واضطراب في اليد، ونظرات باحثة، فاحصة، تجهد وراء مخيلة للتذكر.. وحين انتبهت إلى نفسها شكرتني على تهنئتي، قالت إنها تعتز بها، وإنها سمعت عني.

وعلى بغتة، بعد اطراقة خفيفة، سألتني:

- هل التقينا قبل الآن يا سيد ديمتريو؟

- ربما.. أنا أيضاً أقمت بعض الحفلات..

- لا.. ليس في هذه الحفلات.. في تاريخ أبعد.. أبعد.. كنت تزور والدي؟

- لم أنل هذا الشرف..

- أين رأيتك اذن؟

ابتسمت، كان السؤال نفسه يدورْ في رأسي، وقبل أن تنصرف عني إلى بعض المهنئين، اطلقتْ هذه العبارة بصوت أغن، عذب كما النسمة الباردة في تموز:

- لسوف نلتقي.. أين يمكن أن اسأل عنك؟

- في المعهد الموسيقي..

- أرغب أن تعلّم ابني ناهض العزف على الكمان.

- بكل سرور يا سيدتي..

وانصرفنا.. ولم أنم تلك الليلة.

أحداث

١.

متى التقيا؟ هو لا يعرف، لكنه يثق، أنه في مكان ما، زمان مـا، رآهـا. وهي لا تعرف، لكنهـا تثق، أنـه في مكـان مـا، زمـان مـا، رأته. لكنه يصرخ هلعاً، لا يمكن، وتصرخ هلعة: لا يمكن.. إنهما يصارعان ضد تيّار عواطفهما، بسبب من أن هذا التيار، اجتمـاعياً، سيجـرفهما إلى بعيـد، وهما، في الـوعي اليقظ، لحقيقة أن عـدوانيـة المواضعات، في ما تعارف عليه الناس، سور دمشقي، لا باب لـه، فلا توما اخترقه، ولا خالد بن الوليد اجتاحه، وسيكون عليها هي، راجعة، أن تدفـع الثمن، وديمتريـو يرفض تضحيـة الآخر، حتى في سبيل أن تكون «الانا» مندغمة به، فالسماء لا تمـطر شرعـة جديـدة كل يوم، وهمـا لا يبلغان أن يصنعـا شرعـة بغير تمـرد على أخـرى، أصبحت بالية، وهـذا يحتاج إلى تمـرد، إلى اتباع النفس عـلى طريق المغامرة. لقدجـرّبـا،كل من جهته، لعبة المقاومة. لكن قدر الحب، التعارف، التلاقي من جديد ، كان قد قال كلمته. تراجعت حدود الـزمان الى وراء. وعي هـذا التراجـع، في الكشف المتقادم للزمن،

جعلهما يفكران أن أحدهما رأى الآخر، وأحبه، وأضاعه، وها هو، من جديد، يلقاه. أدركت راجعة، الآن، مغزى اسمها. والدها لم يسمها راجعة عبثاً. لم يكن يؤمن بالتقمص. أو التناسخ، أو الحلولية، غير أنه، كان يؤمن بالسيرورة، وبأن تراجع حدود الزمن، في الاكتشافات التاريخية، يعطي للإنسان حقاً بأن يضع نفسه في أي عصر، وأن يقارن، بين العصر الذي كان فيه وعصره هذا. ليست الأشياء غريبة عنه، ولم تعد مجهولة منه. الإنسان يعرف كذا وكذا من خلال الآثار، الأسواق، المتاجر، الحمامات، المعابد، النصوص، الرقم، يستطيع أن يتصوّر كيف كانت، ولمن كانت، وكيف أبدعت، وكيف استخدمت، فلماذا لا يعرف، إذن، أن هذا الرجل، أو تلك المرأة، قد كانا يوماً، في قديم الزمان، وأنهما، في الصيرورة، قد صارا ثانياً، لا بالشخصية ذاتها، بل بالانخطاف ذاته، بالانجذاب، بالميل، بالهوى، بالحب؟

أفاقت راجعة، في الصباح وهي غيرها في المساء. شيء ما أزهر في داخلها، أثمر، اختطفها اليه، فتساءلت، برعشة حقيقية، عمّا إذا كان هذا هو راجع. اسمه ديمتريو. لكن الاسم، راجع، ليس إلا رمزاً، ووالدها، من خلال اشتغاله بالفلسفة، انتهى إلى فكرة التلاقي هذه، وأكّد لها، أن الزواج لا يعني الحب، لا يعني إكمال نصف الحياة، ولا العثور على الشطر الضائع، وإنما ذلك، قد يصير، قد يأتي النصف ويلتقي الشطر شطره الآخر، وعندئذ يكون الحب الكبير، الذي تباركه السماء والأرض.

أول شيء فعلته أنها ذهبت إلى مدرسة اللعازارية فوضعت رسالة صغيرة باسم ديمتريو، تدعوه فيها إلى زيارتها في بيتها، للاتفاق على

تعليم ابنها العزف على الكمان. ضمّنت الرسالة عنوانها، وحددت موعداً عصر اليوم التالي. وقبل الموعد، فاتحت زوجها بما اعتزمت عليه. لم يعارض، لكنه اقترح أن يتعلم ابنهما العزف على البيانو. قال إنه سيشتري بيانو تكون تحفة أثرية في البيت. لم تعارض في اقتراحه، انما عدلته قليلاً. قالت:

ـ تحسن صنعاً، يا واصل، بشراء البيانو، لكن الطفل، حسب مفهومي الموسيقي، يجب أن يبدأ بالكمان. .

ـ أنت واثقة أن ذلك كذلك؟

ـ كل الوثوق. .

ـ ولماذا؟، إذن، يتعلم أولاد الأصدقاء العزف على البيانو أولاً؟

ـ لأن البيانو. كيف أقول، صارت على الموضة. . ادعاء الحضارة يفرض الآن وجود بيانو في البيت، كما يفرض وجود بعض التحف، وبعض اللوحات. أما المكتبة، التي هي أساسية، فإن الجميع، أو أكثر الناس، ينسونها.

ـ نحن لدينا مكتبة. .

ـ طبعاً لدينا.

ـ من الغد سأوصي على مكتبة فخمة.

ـ على ألّا نهمل مكتبة والدي. . خشبها نادر، وهي محفورة حفراً فنياً وفيها عروق، وتماثيل، ونقش رائع.

فكر واصل: «لماذا مكتبة أبيها؟ أنا، قال، أفهم أن ننقل هذه المكتبة، فهي رائعة حقاً، لكنها تحمل ذكرى معينة، ذكرى رجل، مهما تسامحت حياله، فأنا أعارض فكره. لقد رحل هو، لكن أفكاره باقية. إن للمكتبات وجوداً، كما للوحات، وهي تحمل، في

مقتنياتها، اتجاهاً فكرياً متضمناً في الكتب، اتجاهاً خطراً، عليّ أن أحمي أولادي منه. إن في الأمر شيئاً لا أعرف ما هو، لكنني، بحسي العملي، استشف ضرره، واذن، فإن الـ Bon Sens [1] يقتضيني أن أكون على حذر». قال معارضاً، وفي شيء من نزق:

ـ أريد مكتبة جديدة.. جديدة تماماً.. لا أريد لأولادي أن يكبروا ويعوا أن هذه مكتبة جدهم، وأنه كان مفتوناً باقتناء الكتب، وقراءتها، ومنغمساً في هذه اللعنة التي اسمها فلسفة. أريد أولادي عمليين، أطباء مهندسين، كهربائيين، يدرسون الصناعة أو التجارة.. أما الهوس في الكتب فهذا ما أريد إبعادهم عنه.. لن تتكرر تجربة فهيم المتبحر في بيتي.

آلمها هذا التعريض بوالدها. هذا الحقد عليه، هذه الكراهية القاتلة للفلسفة، مع أنها مثله، لا تنوي أن توجه أولادها اتجاه والدها، وقد يكونون، هم أنفسهم، غير مبالين بذلك، ولن تعترض على أيما فرع للدراسة يختارونه. لكن كلبيّة واصل المسعورة، ضد ذكرى المرحوم، أمر يجرح شعورها، يزيد في الشرخ بينها وبين زوجها، هذا الزوج الذي، منذ ليلة أمس، أدركت أنه ليس شيئاً في حياتها، ولم يدخل قلبها، ولا أحست حياله إلا بعطف زوجة وفية، لا تريد الإساءة لرجلها. وهي الآن، أقرب إلى اللامبالاة به، ولن يقوى على استثارتها كالماضي، ففي يدها، هي أيضاً، ورقتها الرابحة. لقد ظهر راجع أخيراً، وشعرت، في أعماقها، أن ثمة في هذه الدنيا من هو لها حقيقة، ومن سيكون لها حقيقة، ومن سيعزيها في زواجها الفاشل، رغم أنها لا تنوي أن

---

(١) الحس السليم.

تترك زوجها، ولا أن تتخذ لها عشيقاً معه، أو تخونه بأي شكل، لأنها، في ذاتها قررت أن هذا لا يمكن.

قالت لواصل:

ـ آمل أن تكون هذه المرة الاخيرة التي تتعرض بالسوء لذكرى والدي.

ـ أنا أتعرض بالسوء لذكراه؟ معاذ الله.. كل ما قلته إن تجربته ينبغي ألا تتكرر.. الفلسفة، يا راجعة، لا تطعم خبزاً.. إن لي أملاكي، أموالي، مشاريعي. وأريد تعليماً عملياً، علمياً، لأولادي، كي ينهضوا بهذه المهمة، كي يضيفوا، من جهدهم، إلى الثروة، ولا يبددوها.. إنني أفهمك. أفهمك تماماً.. سننقل المكتبة ونحافظ عليها، ستصير مكتبة عائلتنا الصغيرة، ولكن اسمحي لي، لا تغضبي مني، لا أريد الكتب ولا المخطوطات.. هذه فاتت موضتها وستتنافر الكتب الصفراء مع الطراز الايطالي لأثاث البيت.. أما من جهة البيانو فسأبحث عنه منذ اليوم، ويمكن لناهض أن يدرس البيانو والكمان معاً.. أنت ستكونين المعلِّمة، آه يا عزيزتي، كم أنا سعيد أن تكوني معلمة لأولادنا.. أما المخطوطات فسنبقيها.. إنها، في ما أقدر، مهمة، وسيكون ثمنها غالياً، وهو لك، وحدك، لا أريد منه شيئاً.. هيا يا راجعة، كوني مسرورة، إنني اهديك وظيفة رائعة، رائعة ما دامت «الأم مدرسة إذا اعددتها» إنك مدرسة موسيقية فاتنة.

صاحت راجعة:

ـ لا، لست أنا.. الأم ليست معلمة، والأب ليس معلماً، وليس

لـدينا الـوقت، لا أنت ولا أنا، التـربية الحـديثة تتـطلب الاستعانـة بـاختصـاصيـين!

ـ هم. . حسبتـك ستكونين سعيدة. . هـل ثمة مـا هو أحـلى على قلب الأم من تعليم أولادها؟

ـ أقـول إن تعليم الموسيقى اختصـاص. . العـزف شيء والتعليم شيء آخر.

ـ ومن سيقوم بهذه المهمة الاختصاصية؟

ـ المايسترو. . في دمشق مايسترو رائع اسمه ديمتـريـو. .

ـ لكني لم أسمـــع بـه. . اسم غــريب جـداً. . لمــاذا لا نفعـل كأصحابنا، فنستعين بواحد ممن يعلمون أولادهم؟

ـ أقــول لـك مــايستــرو وتقــول نستعــين بمن يعلّمــون أولاد أصحابنا. . هـذا عازف مـاهر، خـريج المعهـد الموسيقي في أثينـا، ويعلم في مدرسة «دار السلام» وهو أستاذ معتبر، يستعين به كل أب يـرغب في تعليم أولاده حقاً، إضـافـة إلى أنـه يعـزف عـلى الكمـان والبيانو والأرغن. . أقـول لك مـايسترو. . يـا إلهي! الكلمة تحمـل خطورتها بنفسها، تقترن بالاحترام البالغ (وبعـد وقفة تمـويهية) لكن ديمتريو قد لا يكون لديه وقت، وربما طلب غالياً.

قاطعها:

ـ أدفع. . لا يهمني المال، لا أميل إلى التبذير، لكن العلم مسألة أخرى. . كم عمره هذا المايستـرو، منذ متى في دمشق؟ وكيف يعلّم «في دار السلام» وهي للفتيات!؟ لنسأل أولاً. . إنه سيـدخل بيتنـا، ومهما تخفّينـا سيطّلع على أسرارنا، فاذا لم يكن رجلاً محترماً، موثوقاً، مجـرباً، فـإن التعامـل معه ينـطوي على مشكلة، ومن بـاب الحذر،

الحذر الضروري. . أن نسأل عنه، أن نـراه، نجالسـه، هل يتكلم العربية؟

ـ يتكلم العربية والفرنسية.

ـ هم. . وددت لو يتكلم الانكليزية. . لكنت، في هذه الحـال، أتفهمه بشكل أفضل. .

ـ يتكلم العربية على كل حال، ونحن لن نناقشه في الفلسفة. .

ـ مهما يكن. . مهما يكن يا راجعة. . يجب أن نتحرّى عنه، وأن نكشف دخيلته. . هذا ضروري. .

ـ لماذا؟

ـ لأنه ضروري. . هكذا. . ضروري. .

ـ وهل ستشتريه؟ تزوجه ابنتك؟ تشاركه في تجارتك؟

ـ لكنه سيدخل بيتي. . انتبهي، سيدخل بيتي. .

ـ سيكون، في كل حال، أفضل من الذين يدخلونه. .

ـ أنا لا أخاصمك. . نتناقش كزوجين. . أصدقائي هم مثـلي. . رجال أعمال. . أم تريني غشاشاً أنا أيضاً؟

ـ أنت؟ معـاذ الله. . أتكلم عن الـذين تعـرفهم. . المهـم أن ديمتريو ليس على شاكلتهم. . وستراه، وتثبت لك الأيام أنه مايسترو حقيقي.

ـ في هذه الحال، علينـا بإدخـال تعديـلات على وضـع الأثاث في البيت.

قالها ونهض، سيكـارته في فمـه، وهو يتـأمل الأثـاث والجدران، ويدخل غرفة ويخرج من أخرى. يتكلم، خلال ذلك، بصـوت عال تسمعه زوجته، وهو يقول:

ـ كيف يمكن الجمع بين البيانو في الصالون وتعليم العزف عليه؟ ألا يسبب ذلك ضجة لنا؟

ـ ولماذا نضع البيانو في الصالون؟ نضعه في غرفة ما، نخصصها للدروس الموسيقية.

قالها جازماً:

ـ البيانو في الصالون، وكذلك المكتبة.. علينا إعادة ترتيب الأثاث.. بيت بهذا الاتساع، في شارع المالكي، ويضيق بنا؟ فكّري أنت.. إنه كبير علينا، نحن عائلة صغيرة، ومن السهولة استيعاب البيانو والمكتبة، سيكون هذا ملائماً للعائلة، لا تنسي أن ثمن البيت يصل الآن إلى المليونين.

ـ أنا لا أهتم، في موضوع البيت، بالكبر والصغر، وبالناحية المالية، والموقع، واسم الشارع..

أضافت:

ـ صحيح أن السكنى في شارع المالكي مريحة، وهي تنطبق على الوجاهة المطلوبة، وتليق بمركزك التجاري، وتستطيع، في أي وقت، أن تذكر بافتخار أنك تسكن المالكي، لكن هذا وحده لا يكفي.. البيانو، المكتبة، الكمان، اللوحات، ليست للزينة والتظاهر بقشرة حضارية، إن لها مهمة ثقافية، وأريد بل أصرّ، على أن تكون لها هذه المهمة، دروس الموسيقى تتطلب غرفة خاصة، هناك يجري تعليم العزف، والتمرين عليه، وهناك أجد عالمي.. أم نسيت أنني سأعزف عليه، وأنني بحاجة إلى جو، كما أنت بحاجة إلى مكتب؟

ـ قلت إن البيانو، والمكتبة، مكانهما، كما اللوحات والتحف، هو

الصالون.. هذا أمر انتهينا منه... الأشياء تُقتنى لمنظرها، لا لتوضع في غرفة النوم أو الحمام.

ـ غرفة النوم لها أثاثها الخاص، المهم فيه هو الراحة.. أم تريد أن تعرض أسرّتنا على زوارك أيضاً؟

صاح:

ـ خطأ! دائماً تفهمينني خطأ، وتجاوبين بلسان لاذع.. لستِ على كل حال، أكثر مني مدنية، أو ثقافة، لقد درست الاقتصاد سنتين في الجامعة الأميركية، ومقابل فرنسيتك أتكلم الانكليزية.. ولستِ، في الوجاهة، والحسب والنسب، بقادرة على المفاخرة، بل مجرد المقارنة.. لقد ضقت ذرعاً.. الناس، هذه الأيام، لا تسأل عن المنشأ. لو وضع سؤال مسبق عن الأصل الاجتماعي، لغربلنا ثلاثة أرباع المالكين، بل تسعين بالمئة من أصحاب الملايين، شيء واحد يؤخذ، الآن، في الاعتبار، أن يكون الانسان مليئاً، أو كما يقولون، بالفرنسية، وبلغة البنوك SOLVABLE [1] ولست، من هذه الناحية، بالمتخلف.. إنني أنا، واصل الدلجي، من يملك الملايين.. إذن أنا، بهذه الصفة، من يحق له التفاخر، لكنني لا أفعل، وفي المقابل، أريدك، وللمرة الأخيرة، أن تكفّي عن التباهي بثقافتك، ودعوتك إيّاي إلى الاهتمام بالثقافة، وإلى القراءة، وزيارة المتاحف، والمعارض، والآثار، وكل هذه الأشياء التي أنا مثقف دونها.. إنني تاجر، وثقافتي التجارية ممتازة، وهذا، إذن، يكفي، تستطيعين الاطمئنان إلى أنني، في المجالس التي نكون فيها، سبب للاعتداد، للزهو، وليس للخجل.. دعينا، بعد الآن، نتفاهم حول هذه

---

(١) مليء مالياً باللغة المصرفية.

النقطة. اقتلعي الغرور من رأسك المزروع بما لا أدري من عنجهية. أنت لست مثقفة أكثر مني.. أنا، قبلك، كنت أفكر بشراء البيانو، ولو كان لنا بنت لأرسلتها إلى «دار السلام» لتتعلم الباليه.. وحين تأتي سأفعل ذلك، اذن لا أقبل تعريضاً، أو تلميحاً، أو حتى مجرّد إشارة إلى هذه الناحية.. هذا البيت..

قاطعته:

ـ هذا القصر..

ـ نعم هذا القصر يا سيدتي.. أنفقت سنوات من شبابي لجمع ثمنه، وتأثيثه، وإعداده بيتاً لائقاً للعائلة، إنني لا أرغب في عرض غرف النوم على الزائرين.. ولكن ماذا في هذا لو حدث؟ كثير من أصدقائي، حين أزورهم للمرة الأولى، يقترحون عليّ، بل يطلبون، أن اطّلع على بيوتهم، من الصالون إلى الحمام.. نعم الحمام.. وهم يفاخرون بأن بورسلينه، وطقم الاستحمام، والمنافع، مستوردة من ايطاليا.. وهؤلاء الذين يفعلون هذا، ليسوا عديمي الثقافة، ولا تتقدّمين عليهم في هذا المضمار..

ـ وماذا بعد؟ (سألت باستهزاء)

ـ أنت تعرفين.. القيمة، في عالمنا، للمال لا للثقافة، وأنا أملك المال والثقافة.. أنا كنت في الجامعة، بينما أنت لم تتجاوزي دار السلام..

ـ برافو! أعتذر عن ضحالة ثقافتي.. أقدم لك التهاني، أهنئك بزوجات اصدقائك، ثقافتهن باهرة..

ـ غير مطلوب من المرأة سوى ثقافة معينة.

ـ ثقافة المطبخ.

ـ أنا لا أقول ذلك. . ولكن المطبخ، بالنسبة للمرأة، مملكة. .

ـ مملكة الجـدّات. . يوم كانت المرأة آلة طبخ ونفخ وإنجاب. .

ـ والآن؟ صارت امرأة صالون؟

ـ امرأة الصالون هي امرأة المطبخ. . المرأة شيء آخر. .

ـ ما هو. ؟

ـ هـو كـل شيء. . إلا أن تكـون نعجـة وزوجهـا كبش، إلا أن تكون دجاجة. . وزوجها ديك. .

ـ زوجها يأتي بـالمال. .

ـ المال ليس كل شيء. .

ـ الجانب المالي، في الرجل، هو الأساس. .

ـ دعني من الجانب المالي من فضلك. . دعه وإلاّ وقع بيننـا ما لا يجب أن يقع. . فأنا، كما تعلم، أعرف أنك مليونير، وأعـرف كيف جمعت مـلايينك، وأعـرف اصدقـاءك، وقد صـارحتك بـرأيي فيهم وبقصورهم وملايينهم، وأرفض، أؤكـد لك، أن أقـارن بهم. . لقد تحملت مـا فيه الكفـايـة، لنغلق المـوضـوع، اذن، إلا إذا أردت أن نمضي في الأمور إلى حدّ الحسم. .

خـرج مغاضبـاً. اكتأبت هي، بهتت فـرحتهـا، هـذا الخـزان من الشعـور بالنقص الثقـافي كان خـافياً عليهـا. انفجر الخـزان، صـار عليها، إضافة إلى تجاهل ذكرى والـدها، أن تتجـاهل ذكـر الثقافـة أيضـاً. شيء ما يعيش في ضميـره منها، رهبـة من الثقافـة تتملكه، وحسد لها على أنها اكتسبت، في بيت والدها، وفي قراءاتها بالعـربية والفـرنسية، الكثـير ممـا لا يحصـل عليـه الجـامعيـون أنفسهم. لكن عليهـا، من الآن فصاعـداً، ألاّ تذكـر الفلسفة والمـوسيقى أو المـدنية والحضـــارة. في البيت صنم واحـد هـــو المـال. هـــذا الصنم خلق

للعبادة، وإذا كانت لا تقام له طقوسها، فذلك لأن كل شيء يتم في السريرة. إنه، ككل هؤلاء الأثرياء الجدد، الذين يعدّون بالألوف، بل بمئات الآلاف، يعرفون منبتهم الطبقي، ويعرفون أصولهم الاجتماعية، وثقافتهم، لذلك من الأفضل، ألا تذكر، في حديثك، هذه الأمور أمامهم. وهي لا تذكرها عادة، لا تهتم، لا تكترث، لا تعنى بأمور سواها، لكنها تكتشف من زياراتها، في حفلات الاستقبال، أي مستوى ثقافي لدى الرجال والنساء، وأية أحاديث بائخة، ونكت سمجة، تتداول في مثل هذه المناسبات، وليس زوجها الوحيد الذي يفاخر ببيته، وأثاثه الايطالي، وبورسيلين الحمام، والعمل التجاري، والمكانة التجارية، والمال، والملايين، إنما الأكثرية تشترك في هذا التفاخر الذي يستر فقراً عقلياً وثقافياً شنيعاً.

قال لها إنه هو الإلّه! لم يلفظ كلمة الإلّه لكنه أضمرها. المال، بالنسبة لهؤلاء، هو وثن يُفتدى بالروح، وضد هذا الوثن كافحت، غير أن الحصيلة، كما تكشفت اليوم، خواء. إنهم يتباهون، كصورة خارجية، ببيوتهم في المالكي، وأبي رمانة، وبعدد سياراتهم، وبامتلاك كل ولد بلغ سن الرشد، وربما قبلها، سيارة، ويضحكون لمهزلة «تشحيط» السيارات ومآسيها.

ثم إن واصل يضارّ إذا ذُكر الغشّ، والغشاشون. ولكم يصر على استثناء نفسه. ولشدّ ما أكّدت له أنها، إذ تذكرهم، لا تحشره في زمرتهم، لكنه كان يعرف نفسه، ويعرف أنه من هذه الزمرة، وأن الكلام عليهم يشمله. إنه مهووس بالكلام على المال، وغارق في المظهر الخادع للبذخ، الذي لا يتعدى النزهة الى الغوطة، أو

بلودان، أو السفر إلى أوروبا، والغداء، يوم الجمعة، على الطاولة المفتوحة في الشيراتون، والتباهي باقتناء السيارات، هذه العلب الحديدية التي صارت حلية العصر، وقد كرهتها، ولم تجرب أن تتحدث عنها يوماً، إلا أنها تعرفها، وتعرف قيادتها منذ كانت في بيت والدها.

ترى يظنها غبية إلى درجة اعتباره تاجراً شريفاً؟ ثمة تجار شرفاء، لكنهم من الصغار، والمشكلة أن الصغار سرعان ما يكبرون، بطرق جهنمية، فاللعبة، لمن يريدها، لم تعد سراً، ولا وقفاً على أحد، ولم يعد ثمة من يخجل منها، أو يضارّ إذا قيل إنه يلعبها. من لا يرتشي يقال عنه جبان. . الفضيلة، في الزمن السيّئ، صارت رذيلة، انقلبت الآية، لذلك فإن واصل لم يعد لديه، كما كانت الحال في مطلع زواجهما، سبب للتخفّي، للتمويه، لاستشعار الذنب، القذارة، الانحطاط الخلقي، النفعية المتفشية بصورة شنيعة.

مضى الوقت الذي كانت تحسب فيه أنها قادرة على تحطيم هذا الصنم، بفضح لعبته، ولو أمامه على الأقل، إنه، في أعماقه، يعرف أن لعبته قذرة، لكنه يعرف ايضاً، أنها لعبة الآلاف. بالرشوة توصّل إلى عقد صفقات غزول، أهّلته، من بعد، أن يكون تاجراً، يشتري نسيج القطاع العام بالجملة، ويبيعه بالمفرق. إنه وسيط. هذا زمن الوسطاء، وقد تعلّم، بسرعة، ألاّ يبيع، في نفس الشهر أو العام ما يشتريه. يدعه، يدع نصفه إلى العام المقبل، حيث ترتفع الأسعار، ويصبح الربح مضاعفاً، وكمية الليرات المحولة الى دولارات أكبر.

كان من عادتها، بعد خصام من هذا النوع، أن تفكر بدفع

الأمور إلى نهاياتها. كان ذلك قبل أن تنجب، وقبل أن يصير واصل حاكماً بأمره، وعلى هذه الدرجة من الشراسة. لقد فكر، هو أيضاً، بالموسيقى، العدوى المظهرية ذات سوى رائجة. من مظاهر الغنى، في الماضي، أن يكون في المتجر، وكذلك في البيت، صندوق حديدي، هذا صار من تحصيل الحاصل الآن. بطلت موضته. صار اقتناء البيانو، اللوحات، التحف الصينية، وخاصة البرافانات الثمينة، تعليم الموسيقى، الباليه، موضة دارجة. زوجها، إذن، مطّلع جيداً على حركات الآخرين. لا يريد أن يسبقه أحد، وسيشتري البيانو، ويأتي بمكتبة، ويغير ترتيب الصالون، لكنها هي، ستفرد غرفة خاصة لتعليم الكمان لابنها. ستكون هذه غرفتها أيضاً، تعزف فيها مقطوعاتها الأثيرة، وستطلب من ديمتريو، بعد حصة التعليم، أن يعزف لها شيئاً خاصاً. ديمتريو سيفعل، راجع هذا سترتعش أصابعه، بعد اليوم، على الكمان، ستحترق بالجمرة التي اتقدت في داخله تلك الأمسية.. لقد تساءل، كل منهما، أين رأى الآخر، لكن اللقاء السريع، لم يتح لها أن تتذكر. تعانقت نظراتهما فقط. أدرك، كل منهما، أن اللقاء السريع لم يكن عادياً، ولسوف يصبح غير عادي أكثر، سيكون خارقاً.. نبوءة والدها تتحقق.

في عصر اليوم التالي جاء ديمتريو في الموعد، حاملاً كمانه في علبته، متأنقاً بعض الشيء، مرتبكاً، كأنه لم يدخل بيتاً ثرياً، لم يقابل امرأة جميلة، لم يصادف، في حياته، من يعزف من النساء، ومن يفهمه، هو الذي صارت حياته عزفاً كلها.

ألقى التحية بالفرنسية. انحنى بأكثر ما يجب. حرص على إظهار

أدبه الجمّ، وحين جلس في مقعده، في الصالون، تسارقا النظر، وقالت له:

ـ كنت لطيفاً تلك الأمسية يا سيد ديمتريو. . شهادتك، أنت العازف، كان لها وقع خاص في نفسي. .

ـ وعزفك، يا سيدتي، كان له وقع خاص في نفسي. .

ـ متى حضرت من اليونان؟

خفق يده اليمنى في الهواء دليل تقادم الزمن:

ـ منذ زمن بعيد. . أنا سوري الجنسية الآن. .

ـ أنت مقيم في دمشق بصورة دائمة؟

ـ لست أدري. . كنت في قبرص، وفي اسكندرونة، واللاذقية. . وها أنا اخيراً في دمشق. مصادفة غريبة!

ـ ما هي المصادفة الغريبة. .؟

ـ عفواً. . لا شيء. . عبارة طائشة، أنا أتكلم العربية، ولكني ارتاح أكثر إلى الفرنسية، فبها أستطيع التعبير عن نفسي.

ـ خذ راحتك. . ستتكلم الفرنسية. . لكن زوجي يعرف الانكليزية، ستضطران إلى الكلام بالعربية. . وعلى الطريقة اليونانية.

قالتها وابتسمت.شع قمر في ابتسامتها. تضوأت أسنان بيض، على نسق كامل الانتظام، وعلى شفتيها، سال التماع ماسي، أعطى للحمرة الخفيفة لوناً مزجه رسام ماهر. . زاد ارتباك ديمتريو. قلبه تفتح كزهرة توليب، حمراء، دافعاً الدم إلى وجنتيه الشاحبتين، قال:

ـ أنا في خدمة سيدتي. .

ـ شكراً. لديّ طفل، في العاشرة من عمره. . أرغب، إذا كان

لديك وقت، أن تعطيه دروساً على الكمان. هل تعزف على البيانو أيضاً؟

ـ ليس مثل عزفي على الكمان. .

ـ تستطيع، إذن، أن تعلمه مبادئ العزف على البيانو. .

ـ عادة لا أفعل هذا، ولكن لأجلك. .

ابتسمت مرة أخرى. . تكرر تأثير الابتسامة عليه. . تجرأ ورفع ناظريه. كان عنقها الأبيض، مرسوماً ببيكار، وكانت بشرتها البيضاء، المشربة بشفقية فاتحة، فاتنة، وصدرها الذي ينكشف عن مجرى بهي، حليبي، نافراً بما يكفي ليخطفه إلى فردوس كذاك الذي يرسم ظلاله الإنجيل.

ـ ستفعل ذلك لأجلي اذن، أليس هذا الذي أطلبه كثيراً؟

ـ لم أرض، قبل الآن، تعليم العزف على البيانو، صدِّقي ذلك، ولكن هذا لا شيء. . سأعلم طفلك العزف على جميع الآلات. .

ـ وأنا لن أسألك عمّا تطلب من أجر.

قال في نفسه: «لا أطلب شيئاً. ديمتريو لا يطلب شيئاً. اليوم وقعت الأعجوبة. قام اليعازر في داخله. . أيتها العذراء البتول، يا سيدة الاولمب، أعينيني على اجتياز هذا الطريق الصعب، أنا الخاطئ، غير المستحق».

ـ أراك تفكر. . اطلب ما تشاء إذن. .

ـ نحن زملاء. .

ـ ولكن هذه مهنتك.

ـ أحب، أحياناً، أن أنساها. . أن أعزف كهاوٍ. . وسأفعل هذا، لو يرضيك. .

ـ طبعاً يرضيني. . أنا هاوية أيضاً. . اعـزف هنا، كـأنك تعـزف لنفسك، لكن مسألة الاجر شيء آخر، لن ندخل في تفصيلاتها.

ـ لن ندخل أبداً. .

ـ أنت سيد كريم يا مايسترو.

ـ الوداع يا سيدتي. . سآتي غداً لأرى السيد، كما تطلبين.

٢٠

مشت بـه الطريق، كـانت الابتسامـة، كنجمـة المجـوس، تسـير أمـامه مجنحـة. لم يكن قادراً أن يلحق بهـا، ولم تكن تتوقف ليتمـلّى منها. كانت سراباً، وكان الظمأ يشتدّ به، وكانا معاً، هو والسراب، يتعذبان، لا يفترقان، لا يلتقيان، لا ينسى أحدهما الآخر.

أنت، يا ديمتريو، في الفردوس وفي الجحيم معاً. تلك حالك منذ اليوم، وعليك أن تتقبّلها، أن تنذر نفسك لها، وأن تعمل، في آن، لأجل تحققها ورفضها، أنت لست جبانـاً، وماذا بقي، في حيـاتك، من مباهج، أو ماذا كان فيها، من أشياء تدعوك إلى الحرص عليها؟

إنمـا، ديمتريـو، لم يكن شجاعـاً. لم يكن قـادراً أن يقـول: «نعم للحب» اللقاء وحده، علامة حب، تطابق الأمزجـة علامـة أخرى، خفقان قلبين، نظرات العيون، ارتعاش اليدين، كل هذا يصرخ به أنـك محب، أنك عـاشق، وأن معشوقتـك، شطرك، هي عـلى بعد خـطوات منـك، خـطوات سبـع، بحـور سبعـة، لكنـك لست

جلجامش، ولن تجتازها، ولا سبيل إلى اتحاد الشطرين، ولا إلى الخلود، إنما حظُّك من هذا الحب، أن تذكر أنك كنت يوماً، وأنك ستكون يوماً، ولعلّ في جيل، في آخر، في آخر، تلتقيان.

وقال في نفسه: «هذا هو الجيل الذي التقينا به. نحن لا ندري كم افترقنا. سبعة قرون، سبعة دهور، وبعد هذا اللقاء، يحكم علينا، كما عند نمرود، أن نفترق دون أن تلامس اليد اليد، والوجنة الوجنة، ودون شميم من العنق، دون عناق، ولا تمليسة بالراحتين، على الخصر تحت ذلك الثوب السماوي».

خطفته أذرع السير. ما كان يعرف كيف يسير، ولا إلى أين. تاه. ديمتريو، في ترحاله كله، لم يته. الآن. في دوامة قلق، يتوه. إنما الصحو منه، والسكر منه، الحضور منه والغياب منه. وكلمة «لا يمكن» هذه، ستارة سوداء بينه وبين أشعة الغروب. الليل يرتمي على الأرض، ينفرش رداء اسود، وفي ذاته يرتمي قلق «يمكن؟» «لا يمكن؟» «كيف يمكن؟» ويقرر، كأنما ليقنع ذاته «لا يمكن» ويمضي في تسياره، دون أن يفطن أن عليه، هذا المساء، كالذي قبله، كالذي بعده، أن يعطي دروساً. قال في ذاته: «لن تسقط السماء على الأرض إذا انا الليلة، لم أعط أيما درس. العزف، الليلة لها، لي، للكون».

يجد نفسه قرب مدرسة «دار السلام». صلاة الغروب والأرغن. انتهت الصلاة. لم ينته الأرغن. . الراهبات بهتن. ظللن واقفات. أحببن العزف، احترمنه، أدركن أن ديمتريو، الليلة، يصلي صلاته الخاصة. يبتهل، موسيقياً، إلى الأعالي، حيث المجد، والمحبة، والسلام السماوي. لم تكن أمامه نوطة، لم يعزف شيئاً يعرفه،

بألفه، سمعه يوماً. عزف عفوياً «صلاة شكر لله» ولما انتهى، انتبه إلى أن الكنيسة الصغيرة فارغة، وأنه وحده في غبش المساء.

في البيت بهذه الوقت. أحس به يمشي على روحه بقدمين رصاصتين. تكّات الساعة هاجته. أبعدها قليلاً، أبعدها أكثر، أكثر، لفلفها بسترته. ظل يسمعها، حملها إلى المطبخ وأغلق الباب. ظل يسمعها. مضى إليها وحطمها. استلقى على سريره وسط هدوء تام. كان دائماً بين بين. لا سعادته سعادة ولا شقاؤه شقاء. لا يعرف أن يسعد ولا أن يشقى. الليلة للسعادة، لكنها، أيضاً، للشقاء. اصبر يا ديمتريو. انت لست ورقة وهي ليست عاصفة. الابتسامة، تلك، ستراها غداً، وبعده، وبعده، وهذا يكفي. لا يكفي؟ تريدها دائماً، أبداً، تحبها؟ آه ما أصعب الحب يا ديمتريو! ما أفظع أن يبدأ اليأس في الساعة التي يتبفسج فيها الأمل. لكن لماذا اليأس، بعد؟ بماذا تفكر هي؟ ربما فيك. وربما بولديها، وقد تكون تداعب قطتها السيامية. الخادم السنغافورية، استيراد بلاد الفقر، تفكر ايضاً، ربما بزوجها، بأولادها، بالوجبة المحلية التي اشتاقتها، بشوارع سنغافورة. كل يفكر بما يخصه، بما يهمه، بما يشغله، وهذه الليلة، والتي بعدها، وبعدها، سينعم واصل الدلجي بتلك الابتسامة. هو لا يعرف قدر هذه الابتسامة. على عينيه غشاوة، على عينيه تجارة، والجسد الرائع الذي يعتصر، يأكل، ينهش شبابه، لا يحس بنعمة أعطيته، كان ذا مال واشترى. المرأة ايضاً تُشترى، ليس بالفلوس وحدها، بالحماية أيضاً، وأيضاً بضمان المستقبل، أنت لم تضمن شيئاً، لا لك ولا لأية امرأة. تلك أنستاسيا، ضمنت لها كفناً وقبراً، اللاذقية أعطتها أشباراً من الأرض. شكراً يا تلك

المدينة، شكراً لساحلك وبحرك وأمسياتك الصيفية الرائعة. لكن قبر انستاسيا اندثر. كنت تريد لها ضريحاً، ولوحة تذكر الاسم، والتاريخ، وعلى رأس القبر شجرة سرو.. شجرة سرو كما في مقبرة اثينا، لكن قبر انستاسيا، بعد كل هذه الأعوام، ضاع. كانت ضائعة في حياتها، وبقيت ضائعة في مماتها، مثلك أنت.. ضياع في الحياة وفي الممات. هذا نعمة حياة أيضاً. هذا لون من ألوانها.. الحياة كالحب، لها ألوانها، كل شيء له لونه، حتى أنت، وهي، وهو، والبشر جميعاً.. لكنك، منذ رأيتها، خطفك لونها. كانت، حينما كانت، حينما كنت، على هذا اللون؟ على هذا البهاء؟ واحتفظت بهما؟ ولمن؟ له أم لك؟ تحلم.. بعض الحلم، كبعض الأمل، ملح العيش، ملّح عيشك قليلاً. احلم يا ديمتريو، احلم أيها المايسترو الذي ما قاد جوقة، ما عرف الا خطبة واحدة، يوم وقف على طاولة في خمارة دوبولوس، وقال له كلمة لطيفة. ترى، لو متّ، يوجد من يقول لك كلمة لطيفة؟ الآن نعم، صار، صارت، هي، هو، الشطر، والشطر الآخر، واللقاء والفلسفة.. ورجوع تخوم الزمن إلى وراء.. رجعت تخوم زمنك إلى الوراء، لكنها اصطدمت بأسمنت الزمن الحديث. التي وجدتها، وجدتك، لكن بينكما جداراً من أسمنت الزمن الحديث، زمن المراسم، والطقوس، ومؤسسات الزواج، وحد الحد الذي يصرخ بك، «لا يمكن».

وجده في البيت ينتظره. كان يعالج رأس أيل، لتزيين صالونه به. واصل الدلجي، يريد، بعد أن قرّر شراء البيانو والمكتبة، أن تزدان الجدران، بتحف غريبة. الحق أنه، في البدء، فكّر بأن يستدعي

مهندساً للديكور. وجاء المهندس، فأشار برفع كل اللوحات الورقية، التي يباع مثلها عند باعة الإطارات واللوحات. قال: «هذه لا تلائم بيتاً على هذه الفخامة. هناك رسامون عالميون. هناك رسامون عرب، وسوريون، ولهم شهرة، وأعمال متميزة، ويمكن أن نزيِّن السقف، والجدران، بنوع من الأخشاب، ونوع من البلاستيك المخرم، البني، لتكون الألوان منسجمة» وقد شكره على آرائه، وقال له: «ساستدعيك، حين نبدأ التنفيذ» لكنه، في نفسه، قرّر ألّا يستدعيه أبداً، واكتفى بشراء لوحات بعض الرسامين، وأبقى على لوحاته الرخيصة، المنسوخة، وقررّ أن يزيّن بيته على هواه، زاعماً أنه من هواة البساطة في الديكور، وأنه رأى، في إحدى سفراته، قصراً مزيناً بالأغصان، مشكلة تشكيلاً فنياً، فأحبها جداً، وأحب، عند أحد أصدقائه، رؤوس الحيوانات، والطيور المحنطة، وسيجلب عدداً منها.

قامت راجعة بمهمة التعريف بين زوجها والمايسترو. جلس هذا ساكناً. بانتظار فراغ ربّ البيت مما بين يديه. تحدثت راجعة، سألته عن الحال والصحة. قالت إن رأيه، في اختيار البيانو، سيكون ضرورياً، غير أن واصل، الذي أوقف معالجته لرأس الأيل وقدم لديمتريو سيكاراً اعتذر عنه، قال:

ـ البيانو أوصينا عليه من ايطاليا، جودته مضمونة..

ـ البيانو مثل الكمان، ينصقل بالعزف.. التجربة تؤكد أو تنفي جودته.

ـ قلت لك إنه من ايطاليا..

ـ أفهم.. في كل اوروبا ينتجون البيانو.. ولكن الأفضل يُعرف بعد الصقل، بعد العزف..

ـ أريد لأبني ناهض أن يتعلم العزف على البيانو بسرعة. .

ـ هذا كما لو أنك تقول للطبيب، اريد شفاء مريضي بسرعة. . الطبيب، بعد كل شيء، ليس ساحراً، وكذلك معلم البيانو. .

ـ إذن كم يستغرق التعليم في رأيك؟

ـ طول العمر. .

ـ ماذا؟

ـ أقول طول العمر. .

ـ اسمع يا سيدي. . أنا لست معنياً بأن يكون ابني «موسيقياً».

ـ ولماذا لا؟ والدته موسيقية. .

ـ أنا لا أريد لابني أن يكون موسيقياً طوال حياته. .

ـ ولماذا تريد تعليمه الموسيقى؟

فكر وأجاب:

ـ لأسباب خاصة بي. .

ـ في هذه الحال أنت الذي تقرر متى توقف الدروس. . والنجاح يتوقف على الطفل. .

ـ يعني متى يستطيع أن يعزف مقطوعة على البيانو للضيوف؟

ـ لا أستطيع تحديد زمن معين. . لكنه يحتاج إلى عدة سنوات. .

ـ والكمان؟

ـ هذا ليس أقل سهولة. . يجب أن نبدأ بالصولفاج. .

ـ لا يهمني بماذا تبدأ. . ولكنني أريد السرعة. . حتى يستطيع أن يعزف بعض الأغاني

ـ لا أعلّم الأغاني. . هذه يعزفها بنفسه متى صار عازفاً. . سنبدأ بالصولفاج. . ثم النوطة. .

ـ وهذا يستغرق زمناً طويلاً. . وسيلهي ناهض عن دروسه.

ـ ما أظن!

تدخلت راجعة:

ـ هذه أشياء يقررها المايسترو. . لنترك له ذلك. . الأنسب أن نترك له ذلك. .

سأل الزوج:

ـ وكم تريد مقابل الساعة الدراسية؟

ـ خمسون ليرة. .

ـ هذا كثير. . كثير جداً. . يجب أن تراعينا. .

ـ في هذه الحال سأقوم بالتدريس، وأترك لكم أن تقرروا. . السيدة موسيقية، وتقدر جيداً. .

ـ دع السيدة جانباً. .

فوجئ ديمتريو باللهجة الجافة. . في البيوت الأخرى، الأمهات، غالباً، يقررن هذه الأمور. . يقررنها دون أن يكنّ موسيقيات. . أما السيدة، في هذا البيت. . (وتبادل معها نظرة خاطفة) ثم فكر: يجب أن أصرّ على طلبي. . في حال أخرى سيداخله الشك. . أنا لا أريد أجراً. . لتذهب النقود إلى الجحيم! ولكن يجب أن أتمسك بطلبي، حتى لا يكون للسيد دخل، وأبدو كأنني طامع بالأجر وحده. .

ـ آسف. . طلبت الأجر الذي أستحق. . حين يتفق السيد والسيدة فإن عنواني لديهما. .

قالها ونهض. فلم يطلب واصل منه الجلوس ثانية، ولم يستوقفه. هكذا أنهى المقابلة بشكل تنتفي معه الرغبة في التدريس بأيّ شكل.

حرصه على دخول هـذا البيت بأي ثمن لا يبـرر إهانـة الموسيقى. . قال في نفسه: «السيد لا يهتم بتعليم ابنه الموسيقى. هذا واضـح. . كثيرون مثله، وقد عرفت هذا بأشكال مختلفـة. . كل مـا يريـده هو وجود البيانو، والادّعاء، أمام الآخرين، أنه استقدم موسيقياً يونانيـاً لتعليم ابنه الموسيقى. اللعنـة! كيف صار هؤلاء الأغنيـاء؟ وهل هم أغنياء في الأصل.؟ أشـك. . أعرف البـرجوازيـة الأصيلة. . هـذا حديث نعمة. . يا إلّهي كيف تعيش السيدة مع حديث نعمـة، بهذه العقلية، بهذا الجسم، بهذه العضلات التي تنفي الأحاسيس؟».

بعد أن خرج ديمتريو،انسحبت راجعـة إلى غرفتهـا. استشعرت إهانة بالغة. لقـد كشف واصل سـوقيته بغـير تحفّظ. . كان يمكن ، لأجـل خاطـرها، أن يتحفظ قليـلاً. إنها موسيقيـة، وهـذه الكلمـة كررها المايسترو كثيراً، ولأجلها كـان على زوجهـا أن ينبذ سـوقيته. قـالت في نفسها: « سـاعتان في الاسبـوع بمئة ليـرة، (٤٠٠) ليرة في الشهر. هذا لا يساوي شيئاً، ومع ذلك ساوم واصل. . ساوم كأنـه يتعامل مع بقّال، أو يقف على عربة بائع متجول».

بقيت وحيـدة في غـرفتهـا. بكت، كفكفت دمـوعهـا. تضـاعف حنقهـا لأن زوجها لم يحس بـأنه يتصـرف بحمق، بـابتـذاليـة. كـان راضياً، مطمئناً، واثقاً أنه فعل، وقال، ما ينبغي، وحين أتم معالجة رأس الأيل، ناداها:

ـ راجعة. . ما رأيك بالحديث؟

ـ ولماذا تطلب رأيي؟

ـ لأنك زوجة وموسيقية. .

ـ وهل تركت لي كرامة زوجة أو موسيقية؟. تصرفت كأنك تعقد صفقة خيش. .

ـ الحساب في الأول أفضل من القتال على البيدر. .

ـ خيش وبيدر وموسيقى. . أي خلط للأمور هذا؟ أنت تبذخ حيث تريد. .

ـ حيث تقتضي المصلحة. .

ـ إذن لا حاجة إلى البيانو أو المكتبة أو الموسيقى. . نبقى كما نحن. .

ـ نحن نتناقش. .

ـ نتناقش في الخيش والبيدر. . هكذا تتعامل مع المايسترو؟

ـ أولاً هذه المايسترو لا داعي لها. . كلمة الموسيقي تكفي. . أو معلِّم الموسيقى. . ثانياً أنا لا تهمّني الفلوس. .

قاطعته:

ـ وثالثاً كل شيء بحسابه. . اسمع. سأعلم ابني الموسيقى حقيقة. . هذا إذا كان عنده استعداد. .

ـ شرط ألا تكون الموسيقى على حساب الرياضيات مثلاً. .

ـ هذا لن يكون. .

ـ وأنا موافق إذن. . لنبدأ من غد. . اهتفي اليه في المدرسة كي يأتي ويبدأ، البيانو سيصل قريباً. . لا أحتمل زعلك، ولست متخلفاً عنك، لقد درست في الجامعة الأميركية. . كل ما دار في فكري هو الاتفاق سلفاً. . ليكون كل واحد فينا على بيِّنة من أمره.

ـ آسفة، ليست هذه طريقة في الاتفاق. . كنت تكلمه وكأنك السلطان. وكأنه مربٍ جاء يطلب عملاً. .

ـ لا تبالغي.. ثم لماذا تعطينه من الأهمية اكثر مما يستحق؟
أزعجتها الملاحظة:
ـ ليست هناك أهمية خاصة، لكنّ بين ديمتريو وسواه فرقاً كبيـراً. أقول لك إنه مايسترو..
ـ آمنّا. استدعيه غداً، وسنرى إلى معجزة مايستروك هذا..
ـ شكراً يا مولاي!
ـ لا شكر على واجب يا مولاتي.. اف.. أهذه طريقة في حديث زوجين؟
ـ وهل هذه طـريقة في الكـلام على المـوسيقى.. أنا التي تعـرف معزتي لها؟
ـ من جهتي كنت أفضل لو تعزفين على العود..
ـ ولو كنت أغني لك ولضيوفك..
ـ قيمة الشيء في الاستمتاع بـه.. ماذا ننتفـع من هذا الكمـان؟ معـزوفات كـلاسيكيـة.. أمسيـات مـوسيقيـة.. تهـانٍ، وكلمـة في الصحف.. كل هذا جيد.. يرضي الغرور.. انما..
ـ أعتـذر عن متابعـة الحديث.. يكفي.. تـريد أن يتعلم ابنـك الموسيقى؟ وأن يكون المايسترو استاذه؟
ـ أريد..
ـ لم يعد ثمة خلاف.. لـديّ بعض الأعمال..
ـ ما رأيك في زيارة بعض الأصدقاء الليلة؟
ـ اعتذر.. عندي صداع.. اذهب واحمل لهم تحياتي..
ـ قد يتحسن صداعك.. يسرّني وجودك معي..
ـ وأنا أيضاً أسرّ بصحبتك.. لكنني مصدوعة..

ـ إذن لا تقلقي إذا تأخرت. . سأمرّ على هؤلاء الأصدقاء بعد العمل. .

ـ رافقتك السلامة. .

ـ هذه وحدها لا تكفي. . ليست هذه هي الطريقة التي أحبها. . تعالي. .

ـ ولكنني أشكو صداعاً رهيباً. .

ـ قبلتي ستذهب بصداعك. .

وأذعنت فقبّلها. .

في اليوم التالي رغبت في الذهاب اليه بنفسها. دافع من الشوق حدا بها إلى هذا القرار. شعرت أنها قادرة، في سبيل لقائه أن تتحدى زوجها. كانت ستذهب إلى بيته لو لم يكن في المدرسة، وهذا عنوانه الذي لديها. في «دار السلام» سألت عنه المديرة. قالت لها إنه، حينما لا يكون لديه دروس، يدندن على الآلات الموسيقية كمن يستخرج أنغاماً. ربما كان يؤلف قطعة موسيقية، عجيب حال المايسترو. . إنه طيب ويبدو ساذجاً، لكنه يخفي ذكاء حاداً، يظهر في موهبته الموسيقية. لم أسمع عنه شكوى، يبتسم. . يتكلم العربية باللهجة اليونانية. . يطيب له، أحياناً، أن يتكلم الفرنسية. . يحترم نفسه فلا يعزف في علب الليل، قانع ابداً، وكان كذلك يوم كانت حاله بائسة. . الآن تحسّن وضعه. . التدريس عندنا فرض عليه شيئاً من الأناقة، لكنه يفكر بطريقة عجيبة. . تأملي، كان مقدراً أن يكون استاذاً جامعياً في الفلسفة لو لم يفضل عليها الموسيقى. . حسناً فعل. أساتذة الفلسفة كثيرون، لكن الموسيقيين نادرون في بلدنا. . تقابلينه هنا أم في غرفة عمله؟. . وهل أستأذن لك، أم

تذهبين اليه مباشرة؟ كل من يقصدونه يذهبون اليه مباشرة. إنه ديمقراطي عقلاً وسلوكاً.

مضت اليه مباشرة. كان ابتهاج داخلي يستخفها، لكنها تعقله. مشت بخطى وئيدة، خفيفة، وهي تقترب من الباب، وحين همّت بطرقه جاءتها نغمات موسيقية استوقفتها مذهولة. كانت المقطوعة نفسها التي تعزفها هي. هل هي مصادفة؟ إنها ليست معزوفة معروفة، وما تذكر أنها سمعتها قبلاً، فكيف اتفق أنهما يعزفانها معاً؟ من لحّنها؟ في أيٍّ زمن؟ من سمعها قبل الآخر؟ من علّمها الآخر؟ إنها مفاجأة أكثر منها معجزة. غرابتها أنها تحدث.. تحدث في هذا العصر، وقد كانت قبله.. هذا ما يسمى رجوع حدود الزمن؟ والدها، المؤمن بالمادة والحركة، كيف وفّق بين تفكيره الغيبي وتفكيره المادي؟ ولكن، هل هو، بعد كل شي، تفكير غيبي؟ وهذا اللقاء الذي تم فعلاً؟ وهذه المعزوفة المشتركة؟ وهذا الحب العظيم، الحب الذي يرتفع إلى مصاف الأعجوبة؟

تدقّ الباب بعد أن تنقطع الموسيقى. يفتح لها ديميتريو. المفاجأة ترتسم كبيرة على وجهه. يصيح:

ـ أنتِ؟

ـ تستغرب؟

ـ لا أصدق..

ـ إننا لسنا في حلم..

تتوقف عند هذا القدر من البوح، تدخل في الموضوع:

ـ جئت لأخبرك بموافقتنا، مع الشكر، على قبول عرضك.. ابني ناهض سيكون جاهزاً.. متى تبدأ؟

ـ في أي يوم تحدّدينه يا سيدتي. .

ـ لنتفق على أيام الدراسة، الاثنين والخميس، إذا لم يكن لديك مانع، في الساعة الخامسة مساء. .

ـ لا مانع لدي. . سأكون بعد غد، الخميس، في الموعد. .

ـ أشكرك. .

ـ أقبّل يديك، إذا سمحت بهذا التعبير غير المتداول هنا. .

ـ يمكن أن تتكلم معي بغير كلفة. . كصديقين. . (وبعد صمت) انتهت مهمتي، لكنني، بما بيننا من صداقة، إذا جاز أن أعتبرها قائمة فعلاً، وبهذه السرعة. .

قاطعها:

ـ ارجوك. . صداقتنا ليست جديدة، ليست سريعة، ولا طارئة. . يخيل إليّ. . ولكن عفواً. . قاطعتك بغير لياقة. .

ـ لمن المقطوعة التي تعزفها؟

حدّق فيها. كانت ما تزال واقفة. نسي أن يدعوها للجلوس. فضل، ربما، ألاّ تجلس. . أن تظل قبالته. . أن يتقابل الوجهان، العينان، الصدران، أن يقترب الشخصان. نقلة في المكان. في الزمان، وشيء ما، كالحلم، كالرؤيا، وعودة لتخوم الزمن، يوم كانا. . كانا؟ هو لا يجرؤ. يريد ألاّ يجرؤ. يخاف أن يجرؤ، وأن يتيقن، لكنه، مع الخوف، تنبت في ضلوعه نقوش. تنبت تواريخ، رؤى، دلالات. إنه يجرؤ. يقول في ذاته: «هي، لا، ليست هي» وتقول، في ذاتها: «هو، لا، ليس هو». وعلى ضلوعها تنبت رؤى، تورق، تزهر، تجرؤ، لكنها تنكفئ ربما. . آه يا حدود الزمن الراجع إلى وراء. . لماذا، أحياناً، لا ينبعث، مع الزمن الراجع إلى

وراء، يقين بأن ما كان، حدث الآن، الآن، في هذه اللحظة، وأن في الامكان، عند هذه اللحظة، أن يمسكا بقدريهما، ويعودا، كما كانا، قبل أن يكون الزمن، والانزياح، وقبل الفراق، هذا الفراغ العدمي الذي عليهما، معاً، أن يردما هُوَّته، وفي هذه المنيهة المسكونة، المثقلة بالثمار والمعاني؟

صمت، الصمت كلام، الكلام صمت. العينان تغزلان صمتاً وكلاماً، تقولان، تبوحان، فللأموات مكان واحد، هو ذاكرتنا، وهما كانا، زمناً، في الأموات، لكن الذاكرتين، احتفظتا بهما حين، وها هو البعث، لقد بعثهما الزمن. والنظرة تسأل: «هل تؤمن بأننا نحيا عدة مرات، وليس مرة واحدة فقط؟» والجواب: «نعم» والنظرة تسأل: «هل تؤمنين؟». والجواب نعم، وماذا، إذن يتبقى؟ اليعازر «أيتها القيامة قبل القيامة، كنت، أنت أيضاً، عاشقاً، وبعثك العشق، كلمة على شفتي السيد؟ ويا سيد، ايها المسيح، أنت، في حلولك، كنت تعرف أن حدود الزمن ترجع إلى وراء، وأنها، في الآتي، تحيل الماضي إلى حاضر، ويمتد الحاضر مستقبلاً.

اقترب. اقتربت. مدّ يده. مدّت يدها. احترقت اليدان. نار في اليدين. نار في الوجنتين. ارتعاش على الشفة، وعلى الشفة المقابلة. احترق الصمت، لا صمت، بوح.. حدثت المعجزة.. «الذين في الأموات يحيون» قام اليعازر في داخل كل منهما.

ليّل الليل، خارج الغرفة. مر الوقت، لأنه، في جريانه، يمضي نقلة بين ما هو كائن، وبين ما سوف يكون. الوقت وحده، في سيلانه، اليعازر يصنع، كل ثانية، قيامته. طوبى للقيامة. أيها الزمن، امضِ، ودائماً امضِ.. ويا ليل، يا فجر، يا حبيب

الشقيين، يا صبح، يا حبة نور، في لوحة ظلمة، يا كائنات، أيتها العوالم المنسية، الآن، في لحظة مواجهة، اعترفت العين للعين، قالت اليد لليد، خفق قلبان، وسيظلان يخفقان. . ليس، في الحياة، يا ديمتريو، ما هو غير «ممكن»، فأقلع عن خوفك غير المبرر. . غامر. .غامر. . الحياة مغامرة.

وكررت السؤال:

- لمن المقطوعة التي كنت تعزفها؟

وقال ديمتريو، عائداً من بعيد:

- لا أدري. .

- كيف. . لا تدري؟

- الحقيقة، يا سيدتي، أنني لا أدري. .

- ولم تفكر؟

- بلى فكرت. . مثلك، في هذه اللحظة، فكرت، ومنذ عزفتها، ما برحت أفكر، لكن من يقول لمن؟ ذات ليلة بينما كنت أعزف، انبثقت فجأة على أصابعي. . تكلمت، يا سيدتي، أصابعي. .

- لتكن، يا ديمتريو، مباركة أصابعك. . ولكن، قل لي، هل دوّنتها؟ هل نشرتها؟ هل عرفها الناس وعزفوها؟

- أبداً يا سيدتي. . ثمة، في القلب، كلمة لا تقال. . وثمة، دائماً، معزوفة لا تعزف. . تنبثق من وتر واحد. . وتظل، يا سيدتي، وحيدة على وترها الواحد.

- وبعد ذلك، يا ديمتريو؟

- بعد ذلك رحل بي الزمن، ودائماً كانت معي. بقيت، كروحي، معي، شعرت أنني أعرفها. . لكن متى؟ في أي زمن؟

ولمن هي؟ تلك أشياء فاتتني. أنت تعلمين أن الأذن، كالذاكرة، تسمع، تحفظ، وثمة أشياء تهجع داخلنا، ثم تستيقظ بغتة.

ـ أهذا تفسيرك؟

ـ لديك تفسير آخر؟

ـ سنتحدث عن هذا في المستقبل.. وداعاً..

ـ وداعاً يا سيدتي.

ترنّحت. داخلتها شكاة من الزمن، لماذا، بعد الزواج، جاء؟ أيُقدر علينا، أن نتزوّج ثم نعشق؟ لماذا لا يكون عشق فزواج؟ ولماذا العشق، كالمعزوفة، يهجع في الذات، وفي يوم، شهر، عام، أعوام، يستيقظ؟

إنها، الآن، لا تستطيع. لا يمكنه، صارت، لا يمكنها أيضاً. هي، في ثورة الأرض، أرض قابلة للثورة.. عليها، إذن، أن تثور. تفكير رغبي ثوري يلم بها، لكن العنق في قبضة زوج، من الذي استنّ مؤسسة الزواج؟ فلك نوح كان البداية. من كل صنف زوجان. هي وهو. راجعة وواصل الدلجي. ليت الطوفان أخذ ما تبقّى. سفينة نوح، أيتها الغرفة المصغرة لسجن كبير، لماذا، في قمرتك، كان النسل هو الضرورة والسبب؟ لكن نوح لم يكن شيخاً أو كاهناً. مثلما كان، إلى جانبها، في السفينة القدرية، واصل الدلجي كان يمكن، بل يصح، أن يكون ديمتريو. هذا أخذه الطوفان. انتحر على يد الطوفان. هي انتحرت في الفلك، لحقت به إلى هناك. حيث لا ألم ولا وجع. لقد تعرفا على الانتحار معاً. استطاعاه، امتلكا، بعد ذلك، القدرة على البعث من جديد. استطاعا أن يعيشا، مرات عديدة، وفي كل مرة كانا يلتقيان. هذه

المرة حدث الشيء نفسه. نقلة وينتهي الأمر. صرخة في وجه القدر. لماذا، أحياناً، لا نقوى على الصراخ في وجه القدر؟ في أمـور الحياة، العيش، البيت، التجـارة، تقبل كلمـات كثيـرة، أمـا في العـواطف فلا. هنا قرار، أن نقرر ننجـو. . الحياة ليست قـراراً، ولكن الموت قرار. لماذا لا تقررين يا راجعة؟

لقــد وقعت في خـطأ. عليهــا أن تصحـح الخــطأ. هـذا أوان تصحيح الأخطاء. ليس مهماً إلا نخـطئ، المهم أن نصحح خطأنا. عليك، يا راجعة، أن تصححي خطأك. ولكن، ماذا لو لم يـردّ هو؟ ماذا لو تردّد هو؟ ديمتريو لا يغامر. مأساته أنه لا يغامر. يبدو لها، في كل حركاته، أنه لا يعرف المغامرة، عليـه، إذن، أن يتعلمها. . إذا لم يفعل، سلام على كل شيء. . سلام، يا ديمتـريو عـلى كل شيء، أتفهم؟

شكّت، وهي تسير، أن يفهم. . لكنهـا، حـين بلغت البيت، شكّت، هي أيضاً، في إمكانيـة هذا الفهم. دخلت سفينـة نوح من جـديد. النسـل ضـرورة، ولأن ثمـةنسـلاً، فـالضـرورة، في حفظ النوع، تصبح أنشوطة. عليها، من جديد، أن تنتحر، مثلهـا، يوم سفينة نوح، أمـا هو، فسـوف ينتحر لأنـه لا يستطيـع أن يتخلص، وكذلك أن يخلص سـواه من هـذا الانتحـار ولسـوف يكـون، بعـد ذلك، ندم كثير. .

- ٢ -

ديمتريو، في وحدته، يتعذب، ما كـان غيباً صـار معلوماً. التقى راجعـة وانتهى الأمـر، عليـه، إذن، أن يتصـرف. هـو، بـدلاً من ذلـك، راح يحاول إيضـاح الأمور. عـلى الـرجـل، إزاء المـرأة، أن يتصـرف، لا أن يوضـح أموراً، وهـو عاجـز. لقـد طفحت البشـر. مشـاعره مـلأت بثراً، مـاكان يتصـور، هو الـذي غـذى الهمـوم لا المشاعر، أن تكون لديه هذه الكثرة منها، وأن تستيقظ دفعة واحدة. لماذا سألته عن المعزوفة؟ عن هذه المعزوفة بالذات؟ وما سرّها؟ ولماذا قالت له ستتحدث عنها في المستقبل؟ هل لديها قصـة عنها بـالذات؟ نعـرف من واضعها؟ في أي بلد ؟ في أي زمن؟ وكيف، بسهـولة، وكمن بينهما معرفة أعوام، صارا صديقين؟ هي قالت: «بمـا بيننا من صداقة» كانت جريئة فقالت «بما بيننا من صـداقة». تتـطور، تُرى، هـذه الصداقـة؟ تصير حبـاً؟ وما هـو الحب؟ أي سر إلهي فيـه؟ أي علاقة، حلوة كالعسل، تنشأ عنه؟ أي مرض، لذيذ لذيذ إلى درجة الخدر، يكمن فيه؟ وكيف الشفاء من هذا المرض؟ ولماذا يُشفى منه؟

لماذا يُشفى من داءٍ بحث عنه طويلاً؟ انستاسيا كانت زميلة، صديقة، لكنه، أمامها، ما ارتعش أبداً. رعشة الحب هذه تصير مرة في العمر. الآن صارت. ارتعش. كلما رآها سيرتعش. هذه بُرَداء. ستذهب به هذه البرداء. لا دواء لها، لا تعالج بالكينا. يا ديمتريو، أيها الشقي بالهمّ أصبحت، منذ اليوم، شقياً بالحب. أنت أحببت من لا سبيل إلى حبها. أحببتها وانتهى الأمر. انتهى بحيث لن تسأل، ما إذا كانت تحبك هي الأخرى؟ وحتى لو أحبتك، فثمة واد عميق بينكما. أنت لا تستطيع أن تتخطاه، لا يمكنك الوصول إلى ضفته الأخرى، وهي كذلك. وادي الموت سيظل قائماً بينكما. لماذا، إذن، لا تهرب من البدء؟ أنت في الخطوة الأولى، لا تكمل، لا تخط الخطوة الثانية. حذار، لا تلتفت إلى وراء. الحب، كما في الأسطورة، سيسلبك عقلك. ما تبقّى من عقلك. سيجعلك عموداً أسود.. كما في حكايات الجدات تماماً. إذا تقدمت فلا سبيل إلى التراجع.. إذا تقدمت متّ، إذا تراجعت متّ. أنت مائت منذ الآن. ليكن إذن، ليأت الموت، لتمت مرة واحدة. لكن عليك، وأنت المحب، أن تجنِّب حبيبتك الأذى. أن توفر عليها العذاب. أن تقتل بذرة الأمل في نفسك ونفسها. كيف يقتلون بذرة الأمل؟ وما هو الأمل؟ ما هو الحلم؟ أن تأمل، أن تحلم، يعني أن تحب شيئاً.

«أنا أحببت الموسيقى ـ قال في نفسه ـ كان لوناً من الحب. اللون الأبسط، الأسهل. كل ألوان الحب سهلة، كلها بسيطة، ما عدا لوناً واحداً، لوناً لا توسط فيه: الظفر أو الموت» أنت لن تظفر بشيء. موتاً ستموت. حسناً، الموت حلو أيضاً، الموت راحة شريطة ألاّ يسبب تعاسة للآخر. أنت تجنّبت، حياتك كلها، أن تسبّب تعاسة لأحد، وها هي، بعد هذا العمر، تأتي الساعة التي ستسبب

تعاسة لامرأة عزيزة كالروح. إن أحببتها تسببت في تعاستها. إنْ تهربْ منها، يؤدِّ هربك إلى تعاستها، إن تمت، سيجعل موتك منها بائسة إلى آخر العمر.. ما العمل إذن؟ وأين يقع الجبن في جسم الإنسان؟ أين تقع الشجاعة أيضاً؟ في القلب؟ كل شيء إذن في القلب، الروح في القلب. من كان قلبه مريضاً فروحه مريضة أيضاً. ولكن القلب عضلة. مجرد عضلة. تستقبل الدم وتضخّه.. إنها كتلة لحم حمراء، مادة تقول عنها الفلسفة. أنت درست الفلسفة، حدّثوك عن الروح ولم يقولوا أين هي، وعن الإيمان، ولم تعرف في أي جارحة يكمن، عن الحب، فقط، قالوا إنه في القلب، وقالوا إن القلب موطن الشجاعة والجبن. «فيا قلبي! أيها القلب الصغير الخافق المعذب، كن شجاعاً.. تقبّل مصيرك، ومنذ الغد اذهب لإعطاء الدرس بقلب تملأه الشجاعة».

لكنه، منذ رآها، في اليوم التالي، خانته شجاعته. انكمشت عضلة القلب. ارتعاشة. برداء. مرض، إنه مريض.. ولن يتيسر له، في جو كهذا، أن يعطي دروساً، أن يتماسك ليعطي دروساً، وإذا ما صادف ورأى الزوج، ستخونه قواه، وسيقول له: «اعذرني يا سيدي.. أنا لم أدخل بيتك كلص. ولن أسرق زوجتك، ولا طفلك، ولا أيما شيء في بيتك، لكنني أحس نفسي لصاً. لقد خنتك بنظري، وهذه خطيئة، هذه مخالفة للوصايا العشر.. اعذرني، إذن، لا أستطيع دخول بيتك، ولا تعليم ابنك».

كانت راجعة في أبهى زينتها البيتية، شكّ في أنها تضع مساحيق، ليس على وجهها منها أثر. شك أيضاً في أنها تضع أحمر الشفاه، شفتاها ورديتان طبيعة. كل شيء فيها كامل. يعرف أنه، في دنيانا، ليس من إنسان كامل. لكن ما عرفه، ما علمه، ما قرأه في الكتب،

كاذب. كاذب. كاذب. إنها كاملة. هـذه هي المرأة الكـاملة. هذه التي يندر أن تتكرر في عصر أو عصـور، هي العصر والعصور. هي الدنيا كلها، ولهذا، وهو يتلقى صداقتها، يشعر كأنه يتلقى القـربان بغـير استحقاق. إنـه لا يستحقها. لمـاذا أُعطي امـرأة لا يستحقها؟ وكيف، في تقلبات الأيام، والريح تسوقه، وصـل إلى هنا؟ وكيف، بعـد كل هـذه السنوات، وهمـا في مدينـة واحدة، لم يكن يعـرفهـا؟ تبّاً للمصادفة! مرحى للمصادفة! «يا سيّدتي! يـا سيّدتي! إنني أركـع أمامك، كـما أمام العـذراء، فمدّي يـدك وانتشليني. اصرفيني عـلى الوجه الذي ترين، أخـرجيني من الهيكل، فـأنا لا أستحق، أغلقي الباب في وجهي حتى أعود متشرداً، حراً، معافى، ويعود كل شيء، مثلما كـان، قبل أن تكـوني أنت، قبـل أن ألتقيـك أنت، وقبـل أن يكتب هناك، في ورقتي، شيء».

في نهاية الدرس، كان زوجها قد عاد. خـرج من غرفـة الدرس وحيّاه وهو يمر في الصالون. الزوج استوقفه. طلب منه أن يتريث في الذهاب. سيثبت له أنه مثقف. وأن ثقافته لا تقل عن ثقافة زوجه، وأنـه يتذوق المـوسيقى، ويتكلم الانكليزيـة. جلس ديمتريـو محتشماً، أراح علبـة الكمان إلى جـانبـه. اعتـذر عن جهله الانكليـزيـة، إلاّ كلمات قليلة لا تكفي، قال إنهم، في اليونان، يتكلمون الانكليزيـة بكثرة، لكنه، هو، درس الموسيقى على يد أستاذ فرنسي، في المعهـد الموسيقي في اثينا.

قـال واصل، بعـد أن طلب كأسـين من الويسكي، إنـه سيكون مسروراً أن يتكلما العربية. لم يفته أن يثني على عربية ديمتريو، سألـه عن الدرس، عن الطفل، عن رأيه في تقبّله درس الموسيقى. أطرى ديمتريو تلميذه، قال إنه نجيب، وأن استعداده المـوسيقي جيد، وأن

له مستقبلاً إذا داوم على الدرس والتمرين. انتفت عن ديمتريو رهبته. لم يتحدث إلى الزوج عن خشيته من دخول بيته. إنما، بعد أن شرب كأسه، كأنما به ظمأ، على عدة جرعات، شاء أن يقول شيئاً جميلاً، منصفاً، أن يقول إن الابن، سيحذو، في الموسيقى، حذو أمه، وأن هذا طبيعي، والفلسفة اليونانية تقول: «لا شيء يخرج من لا شيء». الطفل يحمل، خصال والديه، هو هما، من الماهية ذاتها، كلمة الماهية قالها بالفرنسية Essence ، فترجمتها راجعة. عندئذ، وكان واصل قد بدأ كأسه الثانية أيضاً، شاء، لأول مرة، أن يرضي زوجه، أن يقول شيئاً جميلاً بحق والدها. قال:

- هل عرفت، أو سمعت، بفهيم المتبحر؟

- لم يحصل لي هذا الشرف..

- هو والد زوجتي.. المرحوم كان والد زوجتي.

- كان موسيقياً ايضاً؟

- كان فيلسوفاً.. أعني يحب، ويهتم، بالفلسفة، وقد ترك مكتبة ثمينة جداً..

- السيدة زوجتك تهتم بالفلسفة أيضاً؟

- بعض الاهتمام، العدوى انتقلت اليها من أبيها..

- هذا جيد.. عندنا، في اليونان، مثل يقول: «الانسان فيلسوف بطبعه».

- إذن أنت فيلسوف بطبعك، ما دمت يونانياً.

- أنا درست الفلسفة أيضاً..

أجفل واصل الدلجي. ألفى أنه أمام مصادفة غير سارة. يوناني، ودرس الفلسفة، وموسيقي، ولا بد أن يشتغل بالفلسفة أيضاً. الفارابي مثل في التاريخ العربي. الفلاسفة موسيقيون وبالعكس..

كان عليه، منذ البدء، أن يتنبّه.. اربدّ وجهه. شرب جرعة كبيرة من كأسه. لم يخفَ على راجعة أن ديمتريو تورّط. واصل ورّطه. دعاه إلى الجلوس، وإلى كأس، ليعرف أفكاره.. لا يريد، لابنه، استاذاً يحمل أفكاراً غير مرغوبة. الفكر غير المرغوب، فكر معادٍ الفلسفة كلها معادية. هذه مشكلة تطرح نفسها.. إنه، برغم كل ما قال، غير معني بالموسيقى، ولا يريد لابنه أن يكون موسيقياً. يطمع إلى تلقينه العلم. الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، أن يدرس، في المستقبل الهندسة، الطب، الصيدلة، التجارة، أما الموسيقى، والغناء، وكل «أكل الهواء» هذا فإنه خطر شديد الخطورة. تدخلت راجعة في الحديث لنجدة ديمتريو، قالت:

- هو موسيقي لا فيلسوف.. ما أظنه يتكلم في الفلسفة، ولم أسمع عنه ذلك.

قال واصل:

- الفلسفة شيء في الرأس، يدخل ولا يخرج، إنه درس الفلسفة..

قال ديمتريو:

- لمدة سنتين فقط..

- لا بأس! صارت لديك المبادئ، الفكرة..

- هذا نعم..

قالت راجعة:

- كل إنسان عنده فكرة، فكرات.. أما سمعت المثل اليوناني.. ثم إنه يدرِّس ابننا الموسيقى..

- وهذه فلسفة. بمعنى أنه يمكن أن يضع فلسفته في موسيقاه..

وملتفتاً إلى ديمتريو:

ـ أي موسيقي أحب إليك أكثر؟

ـ فاغنر . .

لم يكن واصل قد سمع موسيقى فاغنر. شعر أن استجواب ديمتريو أخذ يصبح تحقيقاً. رأى الاستغراب في وجه راجعة. اكتفى بهذا القدر، وعندما انصرف ديمتريو قال لزوجته:

ـ ها هو زميل طيّب . . موسيقي، فيلسوف . . وما لست أدري . .

ـ أنت تعلم أنني لا أهتم بالفلسفة . .

ـ كل تصرفاتك تشي بها . . ما بذره والدك كان في أرض طيّبة . . وها هو ديمتريو الآن . .

ـ ديمتريو موسيقي فقط . . موسيقي لا يهتم سوى بدروسه . . إن بعض الظن إثم . .

ـ وبعض الظن من حسن الفطن . .

ـ هل نصرفه؟

ـ لماذا؟ أنا لا أقول ذلك. كل في ما الأمر أنني لم أرتح اليه.

ـ لأنه درس الفلسفة . .

ـ ربما . . لديّ شعور خاص حياله . .

أرادت أن تقول: «أرجو ألاّ يكون شعوراً معادياً» لكنها بلعت العبارة وقالت:

ـ لو حمل الآباء مشاعر خاصة غير مريحة تجاه معلّمي أطفالهم . . لكانت تلك كارثة . .

ـ لا تبالغي . . وعلى كل حال لم أقل ما يسيء . .

ـ وقولك إنه زميل في الموسيقى والفلسفة؟ أنا ليس لي زملاء . .

ولم يأت زميلاً.. جاء معلماً للموسيقى، وهـذه مهمته..

ـ أرجو ذلك..

قالها وانسحب الى مكتبه ومعه حقيبة اليد «السـامسونيت» مـدّعياً أن لـديه بعض الأوراق يجب أن يـدرسها، وداعب زوجتـه قبـل أن يغيِّبه الباب:

ـ أنت، مستثارة قليلاً، في هذه الحال أجمل منك وأنت لا مبالية. يطيب لي، أحياناً، أن أصرف كلمة تثيرك لأستمتـع بالشحـوب على وجهك، وأن أصالحك لأستمتع، بعد ذلك، بـابتسامتـك الرائعـة.. استعدّي، أنت مدعوة إلى العشاء الليلة..

ـ ومن هو الداعي؟

ـ حبيبك!

أجفلت. عادت فتماسكت بسرعة:

ـ من هو حبيبي هذا؟

ـ وهل من سواي؟

ـ أبداً

ـ إذن استعـدّي !

ابتسمت إنامةً ليقظته، قالت:

ـ أنا تعبة قليلاً، لكنني لا أحتمل أن أردّ لك طلباً..

ـ أنت زوجة رائعة.

قـالهـا وأغلق البـاب وراءه. ظلت هي في مقعـدهـا. قـال لهـا: «حبيبك» ثقته بنفسـه لا تحدّ. هـو وحده حبيبهـا. وقد كـانت. منذ

البدء، ترغب أن يكون كذلك، لكنه لم يكن كذلك. ليس حبيبها. لم يكن حبيبها قط. والدها أسماها راجعة. قال لها: «ستلتقين براجع يوماً» ها هو راجع، جاء الآن، جاء بعد فوات الأوان. لماذا تجيء الأشياء بعد أوانها؟ ما نفعها عندئذ؟ «يا راجع، قالت في نفسها، أنت تمشي على شوك. كلانا، يا حبيبي، يمشي على شوك. الريح لن تهب علينا زرقاء. القمر لن يطلع بدراً. في الليل، كما في المزامير، سيقوم كل منا يبحث عن الآخر. . إنني، يا بنات، أبحث عن حبيبي. . وأنا، يا بنات، أبحث عن حبيبتي. . ونحن، بعد، لسنا ضائعين. نحن أقرب من حبلِ الوريد. نحن الدم الأحمر السائل في الوريد. لكنهم، بمدية صدئة، سيقطعون أوردتنا. سكاكين المجتمع تحت جلودنا. سمومه تحت أظافرنا. عبثاً، يا ديمتريو، نبحث عن وصال. لا وصال، كتب علينا، هكذا، أن نكون قريبين بعيدين، أو نقطع حبل السرّة. عندئذ نفترق. نجتمع، وإلى الأبد، او نفترق، وإلى الأبد أيضاً. ننزع اليد من اليد، النظرة من النظرة، يعود، كل منا، من حيث جاء. نمحو، يا ديمتريو، ما كتب على الجبين. من يستطيع أن يمحو ما كتب على الجبين؟ حباً ستموتان. موتاً سنموت، باطل الأباطيل يا سفر الجامعة. الكل باطل، الكل قبض الريح. هل يقبض المحب على ريح؟ ممكن ذلك؟ وكيف؟ بأية راحة، بأي أصابع؟ نحن، يا حبيبي، والريح. زرقاء نريدها، وصفراء يريدونها. ربما سموماً يريدونها. نحن مطارَدان. مَنْ يطاردنا؟ لماذا نهرب من مطاردينا؟ كفى! لنتوقف عن الهرب يا ديمتريو. المجابهة ولا شيء سواها. المجابهة والحياة، المجابهة هي الحياة، ما رأيك، يا ديمتريو، أن نجابه؟

وقالت بصوت مكتوم: «والطفلان؟» أن تجابه يعني أن تُطلّق. أن تفك أصابع واصل عن عنقها، لكنها، عندئذ، تسلّم عنقها لأصابع أخرى، مدماة. وهي، في كبرياء التحدي قادرة، فهل أنت يا ديمتريو قادر أيضاً؟

- ٤ -

صارت الساعة الخامسة، من يومي الاثنين والخميس، أحب الساعات اليها. ما تبقى من أيام الاسبوع، ومن ساعاته، كانت تقضيها بالتفكير عن الممكن وغير الممكن في هذه العلاقة التي انبجست، كينبوع، من أشواق كليهما، وسالت جدولاً متّحداً، لا مبالياً بالاعتراضات المضمرة، والصريحة، لضميرين دُرِّبا، اجتماعياً، على الخوف من الخروج على مألوفات المجتمع. لقد أزهرت حياتها، بعد لقائها ديمتريو، لكنّ، في هذا الزهر، شوكاً ووروداً، وفيه قدرة على الإثمار، إذا لم يدعا، لعاصف الريح، أن تهرّ الزهر، أو للصقيع أن يقتل الثمر. كانت أجرأ منه، ولكن إلامَ تؤدي جرأتها، إذا كانت الصين قد أعارت الشرق سورها، ليقوم بين الناس، فلا يستطيع من بعد، قوم يأجوج ومأجوح، أن يبروا حجره، ولا أن يفتحوا فيه ثغرة، وليس للتينة الملعونة، على جانب الطريق، أكثر من أن تكون شاهداً على العقم.

عمدت، في البدء، إلى المقاومة. كلاهما قاوم، لكنه هو، في

مقاومته كان أصلب، لأسباب أعتقدها مانعة، بينما هي، كانت مقاومتها أضعف، لأسباب أخرى، اعتقدتها مانعة بدورها. كانت تفكر على هذا النحو: ليكن حب، أما علاقة فلا. وكان يفكر، ليكن صمت، فلا حب ولا علاقة، لأن سور الصين لا يخترق. خطر لها أنها أخطأت بالزواج. أخطأت لا بالزوج وحده، بل بالزواج كله. غير أنها فكرت أيضاً، لو بقيت عازبة، حتى الآن، ولم يأت راجع، أو جاء والطريق مسدود بينه وبينها، فإن ذلك كان موجعاً أكثر. إنها مشيئة قدر. إنهما، أمام هذا القدر الاجتماعي، أعزلان. ليس مسموحاً للمسافة بينهما، أن تقصر. حظّها أن تطول، أن يكون ابتعاد، أن يتحول البعد إلى فراق، وعندئذ تكون قد سحقت، تحت حجر صلد، جوهرة عثرت عليها، وهي لن تسحق جوهرتها، تتحدى المجتمع ولا تسحق جوهرتها، لكن المسألة، أن المجتمع سينوب عنها في هذه المهمة، وأن ديمتريو، الذي هو، بالنسبة اليها، أثمن من جوهرة، قد ينسحق لذاته. هنا تكمن المأساة. هنا الخطر الذي يتهدّد ماستها، ومرة لو حدث، مرة لو أنشبت مخالب طير أسود، رؤوسها المسنونة في العنق، ولو جرحته وتركته ينزف حتى الموت، فإنها ستموت بدورها لا محالة. ذلك أن للمرأة ماسة واحدة في حياتها، وللرجل ماسة واحدة في حياته، وهذه الفاجعة التي تتغوّل، لتسحق الماستين معاً، رهيبة إلى حدٍ كريه لن تسمح بوقوعها. ستقاومها، تقاومها ما استطاعت، وبعد ذلك، حين تسقط تحت عجلة الزمن الرديء، زمن المحرمات الاجتماعية، تكون، في نفسها على الأقل، شهيدة لائقة بحب عظيم.

أما ديمتريو فكان أقل استعداداً للمقاومة. هو لا يستطيع

الاقتراب أكثر من راجعة. ثمة نار. بحر من النار. خندق عميق، تجيش فيه مياه فوارة. وقد يكون مستعداً للتخويض في النار، والسباحة في الماء الحارق، المصطخب، لكنه، في كل هذا، لا يأمن أن يلحق أذى براجعة، وهو يفتديها بالعينين والنفس ويزمع التضحية، لا لئلا تتخلى عن زوجها وولديها فقط، بل لئلا تتخلى عن حياة مترفة وتلحقه هو الفقير، البائس، على درب الجحيم.

قولة «لا يمكن» كانت تحفر أعمق في الذات. تتجذّر هناك. تصبح شجرة يقين، ولا فأس لديه، وليس بحطاب، والخندق الناري لا يُتخطى، والعجز، في الذات التي لا تتمرد، عجز هو الشلل، وكان ديمتريو، بسبب من إخفاقاته المتوالية، قد اعتاد هذا الشلل، ويخشى أن يفارقه، بل يرفض، كمريض نفسي، أن يطاوع محلله، الذي يسعى لتخليصه من حالة انكفاء مزمن.

لقد رفض ديمتريو، بنظرات منكسرة، تلبية نداء نظرات جريئة، مشجعة، تذرّع بفارق العمر، وفارق المكانة، وبالغنى والفقر، وأكثر من كل ذلك، تذرع بفوات الأوان، بعد أن تزوجت راجعة وصار لها ولدان.

ويصل ديمتريو، ذات مساء، إلى بيت السيدة. يطرق الباب فيفتح له ناهض. يهم أن يدخل وراءه، مجتازاً الصالون إلى غرفة الدرس، فتبلغه أنغام كمان. كانت هذه أنغامه نفسها. معزوفته نفسها، فهل يعقل أن تكون، من سماعها مرة واحدة، من وراء باب، قد حفظتها؟ وهل هي قادرة أن تؤدّيها على هذا النحو الرائع، لمجرد سماعها؟ خيال. أسطورة. السماء تمطر أساطير. المصادفة، اللقاء، المعزوفة، الرجوع في حدود الزمن إلى وراء، وقال في نفسه،

والألحان تنداح فراشات ملونـة في الفضاء: إنني أنـا الأسطورة، أنـا اليعازار يقوم من جديد، لماذا، في العصر القديم، حدثت المعجزة، وتمتنع في العصر الحديث؟ كل شيء إلى عدم. هذا ما يعرفه، ولكن كـل شيء ينبع من عدم، وهذا مـا يعـرفـه أيضـاً. أستـاذه، في كليـة الفلسفة، تهرّب من السؤال، حين واجهه بـه. قال لـه: «ما دام لا شيء يخـرج من لا شيء» فمن أين خرجنـا نحن؟ وقال لـه الأستاذ: اقـرأ قصة الخليقـة. عندئـذ سألـه: «إذا قلت لك إنني قـرأتها فهـل تشـكّ بقولي؟ ولكن العـدم الذي نصـير اليـه، حـين يكـون هنـاك مـوت، كيف ينبت عدمـاً جديـداً يُـدعى الحيـاة هـذه المـرة؟» قـال الأستاذ: «اعتذر عن المناقشة. . هذه هرطقـة. وصاح طـالب، كان متعاطفاً مع ديمتريو: «إنما نحن طـلاب فلسفة يـا أستاذ، ونـريد أن نعرف. .» وقال ديمتريو متشجعاً: «هناك فلسفة غايتها تفسير العالم، وأخـرى تـريـد تغييـره، فمـع من أنت؟» قـال الأستـاذ: «أنـا أنهي الـدرس. انتهى النقاش». علت ضجـة في الصـف، وخرج ديمتـريو منتصراً، وهذا ما قاده، بعد ذلك، إلى فكر خالف الأسـاتذة، وهـو مـا سبب تركـه الدراسـة، ومقـاومتـه الفـاشيـة. لكن هـذا كله من الماضي. كان ممن يحبـون الحوار، وسحبـه الزمن من قـدميه، فسقط على ظهره، ومنذ ذلك الحين لم يقم ثانية. هذه الأيام حدثت المعجزة وقام. . السيد واصل، يخاف الفلسفـة. من حقه أن يخـافها، ولكن أية فلسفة يخاف؟. هو نفسـه، أيام الشقـاء، أيام الـوحدة، يعـزف «المـارسلييـز»، ولن يخفى على والـد تلميـذه أن عـزف هـذا النشيـد فلسفـة. . الشمعة لا تـوضع تحت المكيـال، وهو، هنـا، غـير معني بوضعها على سطح البيانو، وسيكون أميناً، شريفاً، كعهده مع كـل تلامذته، لكنه أبداً لن يعلمهم ولا معزوفة تجانب الانسانية. إنمـا ،

عليه، قبل أن يدخل للتعليم، أن يقتحم الغرفة على السيدة، أن يقول لها، قبل أن تخفي كمانها: لقد سمعتك، لا جدوى من الهرب. . اليعازر الذي قام فيّ، قام فيك أيضاً. . هذه المعزوفة، لو خيّرت في إطلاق اسم عليها، لكان اسمها «النهوض من العدم» العدم لا ينتج عدماً بالضرورة، ثمة شيء، لكنني لا أدري ما هو. .

فتح الباب. خرجت راجعة. كانت قد وضعت الكمان في علبتها فسألت:

- هل أنت هنا منذ بعض الوقت؟

- منذ بدأت معزوفتك. .

- وهل سمعتها؟

- كلها. .

- يا الله! وبكل ما في عزفي من سوء. . ؟

- ليس هذا هو المهم. . عزفك جيد، لكننا بصدد المعزوفة نفسها، عمنّ أخذتها؟

- لا أدري. .

- كنت تعزفينها قبل الآن؟

- من حين لآخر. .

- هذا توافق عجيب. .

- لماذا؟

- لأنه عجيب.

- وما العجب فيه؟

- إنه مثل لقائنا، مثل صداقتنا.

قالها واستدار ليخرج. لحقت به:

ـ والدرس؟

ـ أي درس؟

ـ درس الموسيقى.

ـ لست قادراً اليوم.. معزوفتك أذهلتني.. ليست هذه مصادفة.. أكثر من ذلك.. شيء غريب لا أعرف له تفسيراً.. كيف يمكن أن نعزف مقطوعة نحن الاثنين، ولا نعرف مَن وضعها، ولا متى، ولم نسمعها قبلاً.. علام يدل هذا؟

ـ يكفينا ما تكلمنا حول دلالته.. بقي أن نتقبل الواقع.. أن نرتب أمورنا، أن نبقى، أمام استحالة التخطي، صديقين.. أعرف أن هذا صعب، وأعرف ان كلاًّ منّا سيتعذب، ولكن لا خيار أمامنا، إما أن نتقبل الواقع، أو نفترق.. وسيكون الفراق مؤلماً.. لقد انتظرنا طويلاً الريح التي حملت أحدنا إلى الآخر.. انتظرناها بلهفة، كريّس المركب الشراعي، الذي ينتظر الريح المؤاتية، لكنه، بعد أن يقلع، يجد نفسه مضطرباً في البحر.. لا يعرف كيف يقود مركبه إلى شاطئ السلامة.. ولكن، يا ديمتريو، أرجوك، أعط تمريناً لناهض، وعد إلى الصالون نتحدث، فلديّ ما أقوله لك..

أطاعها، كان، أمامها، كعبد أمام سيده. كانت الطاعة لما تطلب فرضاً بالنسبة له، لكن أفكاره لم تكن مركزة بحيث يشرح لتلميذه، نظرياً، ما هو ضروري قبل التمرين.. كان ناهض في مرحلة الصولفاج بعد، وكان تعليمه قراءة «النوطة» تحتاج إلى وقت، وجهد، وصبر، وهذا كله غير متوفّر له، بعد الارتباك الذي أصابه اثر سماع المعزوفة. كان قد أيقن، الآن، أن حدود الزمن رجعت بهما إلى وراء، وأنهما، في ومضة الاسترجاع، تعرّف أحدهما إلى

الآخر، بل انجذب، وبدقة أكثر انخطف، وكانت هذه المعزوفة من ذلك الزمن الذي لا يعرف له تاريخاً. إنها معزوفتهما المشتركة، ولم يبق من شك لديه حول ذلك. .

حين عاد إلى الصالون وجدها بانتظاره. كانت جالسة تدخن. كانت تفكر. كان مزيج من فرح ورهبة يلوحان على محياها، وكانت، في أعماقها، مرتاحة لأنه سمع المعزوفة، ولعلّها عزفتها في وقت مجيئه ليسمعها، وكان جديراً، بكل منهما، أن يصرخ باسم الآخر، ليسمع الجميع أن معجزة قد حدثت، لكن كلاً منهما، في سريرته، قرر أن يكتم الصرخة.

سألته:

ـ هل تعرف قصة أهل الكهف؟

ـ لا أعرفها يا سيدتي. . ويشوقني أن أسمعها. .

ـ هي قصة ثلاثة أشخاص، وكلبهم رابعهم. . . ناموا في كهف ثلاثمائة سنة، ولما أفاقوا وخرجوا وجدوا الدنيا كما هي.

ـ تقصدين أننا، نحن أيضاً، نمنا ما لا أدري من السنين؟

ـ ربما. .

ـ نحن لم ننم، ولم نتقمص، بل رجعت بنا حدود الزمن. .

ـ ووجدنا الدنيا كما كانت؟

ـ بل تغيرت كثيراً. .

ـ ومع ذلك لم يتغير جدار الاسمنت بيننا. .

ـ في الأصل، في التاريخ، لم يكن هذا الجدار، ثم وجد، وسيزول. .

ـ ننام، إذن بانتظار زواله؟

فكر ديمتريو، قال في نفسه: «إنه لشيء مغر. . كيف خطرت لها هذه الفكرة؟ ننام، ونستيقظ لنجد كل شيء قد تغير، حتى جدار الاسمنت».

سألها:

ـ قال لي زوجك إن والدك كان من المهتمين بالفلسفة. . ولا شك أنه سمع بقصة أهل الكهف. .

ـ طبعاً سمع. .

ـ ما رأيه فيها؟

ـ كان يقدرها، لكن رأيه أن الحياة تغيرت خلال نوم أهل الكهف. .

ـ وتمنى أن ينام هو الآخر ريثما تتغير الدنيا. .

ـ لا. . تناقشنا في هذا. قال لو نام الجميع، فمن يغير دنيانا؟

ـ أنا من رأي والدك. .

ـ ترفض أن ننام. .

ـ هذا لن يحدث، لكنني، في الأمنية، أرفضه. . أرفض ما هو مستحيل الحدوث، ونرفضه لو كان محتملاً أيضاً. . لقد وقفت ضد الفاشية، أنا، وسأقف ضدها، ولي قضية. . إنني أعزف «المارسلييز». . أعبر عن أفكاري موسيقياً.

ـ أنت غريب ولا أفهمك.

ـ وما وجه الغرابة فيّ؟

ـ لا تريد السعادة، تهرب منها. .

ـ أريد سعادة من صنعي. .

ـ وإذا كنت عاجزاً؟

ـ أنا بالفعل عاجز. . هذا السور الذي بيننا. . ولكنني سأظل كما

أنا. . لا أريد أن يطبخ الآخرون، أو يبنوا، أو يغيروا، وآتي أنا، بعد نوم هو الموت، لأستفيد مما صنعوا.

ـ لو سمعك زوجي؟

ـ أستطيع أن أقول له هذا. . وماذا أخسر؟

ـ تخسرني أنا. .

ـ الإنسان يخسر ما يربحه، ما عنده، أنا لم أربحك، ولست معي، ومنذ رأيتك قلت «لا يمكن» وأنا أعيش قناعتي هذه. أعيشها لأنك أنت، في وضعك هذا، تصنعين عجزي. . أنت لن تستطيعي تقطيع الحبال التي تلفّك. ولا فك الأطراف الأخطبوطية التي تلتفّ على عنقك تمتص شبابك. . عرفت الآن لماذا أنا عاجز؟ المجتمع يواجهنا. . هل أنت مستعدة للوقوف في وجه المجتمع؟

ـ وهدم كل شيء؟

ـ نعم. .

ـ قد يقتلوننا معاً!

ـ لا بأس. .

ـ أنا لا أريدك أن تموت. .

ـ أنا ميت على كل حال. .

ـ لا تقل هذا. .

ـ سأقوله. . وأتمنّاها. .

ـ وأنا؟

ـ أنت شيء آخر. . لك زوجك، وأولادك، وبيتك ومجتمعك. .

ـ بودّي لو أترك كل هذا وأمضي بعيداً. .

ـ لن تتركي شيئاً. . المجتمع يواجهك، وأنت تخافين مجرد تخطّيه. . هذا ما فهمته منذ اليوم الأول. .

ـ لماذا قتلت أملي وهو لما يبرعم؟

ـ أنا لا أقتل شيئاً. . المجتمع هو الذي يقتلك ويقتلني . .

ـ نستطيع أن نبقى صديقين اذن؟

ـ هذا ما سوف نحاوله، ولكن إلى متى؟

ـ إلى النهاية.

ـ النهاية موعد مع الغيب. إنني أفهم وضعنا تماماً. . نريد أن نكون. . لكن لن نكون. . المسألة هكذا: امرأة ورجل، التقيا، تكاشفا، عزفا مقطوعة ردّتهما إلى وراء في الزمن، عرف أحدهما الآخر، لكن المرأة كانت قد تزوجت، وهو كان قد تزوج، كلاهما تزوج دون حب. كلاهما أخطأ، لكن الخطأ يتطلب ثمنه. . ما هو الثمن؟ أن نقاوم أو نسقط.

ـ أنا سأقاوم . .

ـ إلى متى، مرة أخرى؟

ـ إلى النهاية، أقول لك، مرة أخرى.

ـ وأنا أقول النهاية موعد مع الغيب. . إننا صديقان. حسناً، قد ننجح لبعض الوقت في حفظ هذه الصداقة وحمايتها، ولكن ما ثمن ذلك؟ الكبت. . المرجل البخاري الذي لا صمام أمان له. . اذن سيحدث الانفجار. . وعندما يحدث، فكري أنت. . إنني، منذ عرفتك، وفي داخلي صرخة: «لا يمكن» وتستطيعين، في هذه اللحظة، أن تسمعي الصرخة ذاتها: «لا يمكن. .».

ـ إنما أنت عاجز إذن.

ـ ليست مسألة عجز وحدها. . مسألة منع أيضاً. . نحن مُحبان ممنوعان من الحب . .

ـ هذا فظيع . .

ـ وسيقودني إلى الجنون . . وداعاً، ولن تري وجهي بعد الآن . .

ـ لكنني أرفض، لا أريد . . إبق إلى جانبي يا ديمتريو . .

ـ ديمتـريو تقـرّر مصيره . . الـرحيل . . أمـا أنت فكوني سعيـدة، إبقي إلى جانب زوجك وولديك، وليحفظك الله!

■▯■

حين خرج ديمتريو من بيت راجعة، كان يحسب أن العقل قد انتصر نهائياً. لكن القلب، في الكمون الذي يتخذه أمام هجمة العقل، كالنار إذ تكون خبيئة في الحطب، أو كالبرق، إذ يكون، قبل لقاء غيمتين، وهماً نارياً في خاطر العاصفة.

سار ديمتريو على بساط يأسه. اليأس، كما خيّل اليه، يؤدي إلى الراحة التي بعدها لن تكون راجعة، أو الابتسامة، أو المعزوفة، أو الشطر الضائع. «ما أجمل، في الحب، أن نيأس» فكر كذلك وهو يسير، لكن ديمتريو آخر، انبثق من داخله قائلاً: «يا توأمي، اليأس بحر، والأمل بحر» قال ديمتريو: «لم أفهم.. ما علاقتي بالبحر؟» قال ديمتريو الآخر «علاقة النوء بمركب يضطرب في لجته». صاح ديمتريو حاسماً: «انتهى كل شيء.. استسلم المركب للموج وغرق» ضحك ديمتريو الآخر وقال: «ما كل موجة عاتية تغرق مركباً، وإلا ما بقي في البحر مراكب.. أنت تتمنى ذلك. تفكر رغبياً، ترغب

أن يغرق المركب، أن ينتهي. . أنت تنشد الراحة، ولكنها بعيدة. . الراحة، أيضاً، أمنية، والأماني، كما تعلم، تتحقق باقتحام معركتها لا بالهرب منها».

لزم ديمتريو الصمت. كان، أمام الآخر، يلتزم الصمت دائماً، يعرف، من تجربته، أن الآخر هو الأقوى، لأنه الذات، لأنه الداخل، لأنه اللاشعور، العقل الباطني، وفي الصراع مع هذا الداخل، يكون ما هو خارج أضعف، إلى أن يصير داخلاً، قناعة.

مشى إلى خمارة قريبة، بائسة، يؤمها الفقراء، فوجد طاولة فارغة، مقشرة الطلاء، في الركن القصي، شبه المظلم. اختارها وجلس اليها. كان يريد أن يختبئ من شيء، كان كبعض الزواحف التي لا تجد الطمأنينة، إلا في عتمة أوكارها. هنا، في هذا الوكر، في الركن المظلم، يستطيع الاختباء من الفشل، من العجز، من المنع الاجتماعي. ويستطيع كمانه، الراقد في تابوته الخشبي، أن يخرس منبوذاً من أنامل آثمة، تجرأت فاستعادت الزمن، وارتدّت، في ومضة الذكرى، مع حدوده المتراجعة. تلك المعزوفة كانت إثماً. كانت إثمه كما كانت إثمها. لكن الزمن، في سيلانه، لا يحفل بالآثام، وبما يرتد من وهم فعلها فينا. للزمن إضافته، وهذه هي المعزوفة، وكانت تملك بقية حياة، فقدر لها أن تحيا. سارت مع الناموس. وكان كل شيء سيكون طبيعياً، مريحاً، مبهجاً، لو سار، هو وهي، مع الناموس، لكن ناموس الحياة، يجب، أولاً، أن يخترق ناموس الموت. دون نقض الماضي لا يقوم مستقبل، ديمتريو وراجعة احترما الناموس، خضعا له، وكان عليهما، في الدفاع عن حبهما، ذاتهما، حياتهما، أن ينقضا الناموس القائم، ليصنعا الناموس

الذي سيقوم، الناموس البديل.

ـ أيها الخمار العجوز!

ـ نعم يا سيد ديمتريو..

ـ زجاجة نبيذ.. لتكن جيدة..

ـ أنت تعرف أنه لا يوجد سوى نوع واحد، وهذا ما أحضرته لأجلك.. أنت زبوني الوحيد الذي يشرب نبيذاً..

صاح عامل نصف ثمل، في ثياب عتيقة، مفككة الأزرار عن صدر ذي شعر أشيب:

ـ أعطه يا رزوق خمراً جيدة.. دعه ينتشي ليعزف لنا شيئاً..

قال زبون آخر:

ـ تلك المعزوفة.. آه.. كم أحب سماعها.. أحس، عندئذ، أنني أطير، أسبح في الجو، أغوص في البحر.. مع زرقته وعكره، مع هدوئه وهيجانه..

لم يرد ديمتريو.. قال في نفسه: «انتهينا جميعاً، أنا والكمان والمعزوفة» لكن ديمتريو الآخر، الذي جلس قبالته على جانب الطاولة، قال بنبرة حكم مبرم: «لم ينته شيء.. اشرب واسقني.. بعد الشرب ستكون على ما يرام، وقد تعزف شيئاً ما، كرمى لأخوانك هؤلاء، وعندئذ تبتهج لأنك أدخلت البهجة إلى قلوبهم.. المرء، وحده، حزين، يفرح مع الجماعة.. كن معي على الأقل، أنا أحبك يا توأمي، فلماذا تكرهني أنت؟».

لم يجب ديمتريو، جاء الخمار رزوق بزجاجة نبيذ رديء، دون أن يمسح غبارها، فتحها وصب في القدح أمام ديمتريو. كرع هذا الكأس دفعة واحدة، قال ديمتريو الآخر: «ألن تسقيني؟» حدجه

ديمتريو بنظرة عداء ملتهب ولم يقل شيئاً. ملأ كأسه وجرع جرعة انكمشت لها عضلات وجهه، صاح رجل وهو يرفع كأسه:

ـ كأس صديقنا الطيّب ديمتريو. .

ارتفعت الكؤوس، علا رنينها، ممزوجاً بالقهقهات، ولم يتكلم ديمتريو، اكتفى بشرب النخب. كرر ديمتريو الآخر: «ألن تسقيني؟ حسناً، أنت تعرف أنني الشارب دون أن أشرب، غير أن إفراغ الكأس دفعة واحدة يؤذينا معاً. . يجعل التفاهم بيننا، ونحن في حالة السكر، مستحيلاً. . أتسمعني؟»

قال ديمتريو في أول صوت أطلقه في الخمارة، وبنزق حاد:

ـ أغرب عن وجهي. .

ـ إنما أنا وجهك. .

ـ الزم الصمت إذن. .

ـ لديّ ما أقوله.

ـ لقد قلته تلك الليلة. . أتذكر؟

ـ تلك الليلة، في أول يوم رأيت راجعة، كنت أحمق. وقد نصحتك، فما أصغيت إلى نصيحتي. . بقيت تصرخ في ذاتك «لا يمكن» حتى مرّ أسبوع، وفي خاتمته، في تلك الليلة الرهيبة، التي أردت فيها أن تمحو الابتسامة، جننت. . اشتعلت باللهب وهربت. .

ـ أنت الذي دفعتني إلى الجنون. .

ـ أنا كنت منطقياً فقط. .

ـ ليذهب منطقك إلى الجحيم. .

ـ وإلى هناك ستذهب أنت أيضاً. . بل إنك الآن في الجحيم. .

ـ هذا بسببك. .

ـ أنا لم أتسبب في شيء، أنت الذي رأيتها. . كانت في نهاية الصيف، في الزمن الذي ينضج فيه العنب والتين، وكالخوخة الصفراء، في عز الاستواء.

ـ أنت الذي صوّرتها لي كذلك.

ـ هذا لا يغير من الواقع شيئاً. . فتنتك ابتسامتها. .

ـ حاولت أن أمحو تلك الابتسامة. .

ـ «ماذا ينفع الانسان أن يمحو إذا كان ثمة من يكتب».

ـ لكنه «لا يمكن».

ـ «كل شيء ممكن حين تريده ممكناً. .»

ـ أنا لا أريد. .

ـ «أنت تريد ولا تعرف أنك تريد».

ـ كنت أعرف، لكنك عاندتني. .

ـ «أنت عاندت نفسك. . أنفقت عمرك في طلب هذا الحب فلما صار لك خفته».

ـ أردت الهرب فحلت بيني وبينه.

ـ «وكيف تهرب بذاتك من ذاتك؟».

ـ وكنت أشتعل فلم تطفئني.

ـ «أنت تشتعل من الداخل، ومن الداخل تنطفئ».

ـ اليوم أطفأت داخلي. .

ـ تزعم ذلك لنفسك. .

ـ ماذا؟ أنت لا تريد أن تتكرر تلك الليلة؟. أليس كذلك أيها الوغد؟

ـ لا تقل وغداً. . الشتائم لا تفيد. .

ـ لكنك وغد . .

ـ أنا وغد مثلك . .

ـ أنا إنسان طيّب . .

ـ وأنا طيّب مثلك . .

ـ إذن دعني أمح الابتسامة من صفحتي . .

ـ فات الأوان . .

ـ اليوم محوتها . .

ـ اليوم جددت كتابتها . .

ـ لقد افترقنا . .

ـ أنت واهم . .

ـ وسأرحل . .

ـ وهي في داخلك . .

ـ لقد أخفقت . .

ـ إخفاقك انتصار للحب، وهو الأكبر.

ـ سأقتل هذا الحب . .

ـ لا تكن عجولاً، سيقتل لذاته . .

ـ متى؟

ـ حينما يهزم . .

ـ وفي أيّ عمر هو الآن؟

ـ في عمر الشباب . . إنه وليد، ومحال قتل الوليد . . دعه يمت لنفسه . .

ـ ولكن متى؟ متى؟

ـ قلت لك حين يهزم . .

ـ لا يمكن الانتظار . . إنني أتعذّب يا توأمي . .

ـ تحمّل عذابك بشجاعة . .

ـ وهي؟

ـ كذلك ستفعل . .

ـ وزوجها؟

ـ سيخرج من حياتها دون أن يدخلها . . وهذا عقابه!

ـ عقابه؟

ـ أجل . . تعرف ما هو أصعب شيء في الدنيا؟ أن تخرج من قلب الآخر وتظل معه . .

ـ لكنهما يلتقيان وهذا يكفي . .

ـ لا لقاء بينهما . . عقل كل منهما يختلف . . إنهما يمثلان . .

ـ من تمثل هي؟

ـ احزر!

ـ ومن يمثل هو؟

ـ احزر!

ـ قل لي أنت . .

ـ افتح عينيك تر . .

ـ ها أنا أفتحهما . .

ـ لكنك لا تبصر . .

ـ أنت أضعت بصري . .

ـ أنا اعطيتك بصراً . . وما تبقّى عليك . .

ـ علّمني كيف أبصر إذن . .

ـ ستتعلم لذاتك . .

ـ تتركني أتعذب؟

ـ لا أحد ينهي عذاب أحد . . كلٌ ينهي عذابه . .

كانت الزجاجة قد فرغت.. احمرت عينا ديمتريو. وقف وهوى بقبضته على الطاولة صائحاً:

ـ إنما أنت وغد..

ـ التفت الذين في الخمارة فلم يجدوا أحداً أمام ديمتريو. ركضوا إليه.. حاولوا تهدئته، لكنه راح يواصل الضرب على الطاولة بقبضته، وهو يصيح: «وغد! وغد! وغد!» فأمسكوا به، وأخرجوه، حاملين له الكمان، إلى الباب وهناك التفت اليهم وصاح:

ـ لقد قتلني الوغد...

* * *

وبعد اسبوع، عثروا في اللاذقية على جثة منطرحة على الشاطئ، وبجانبها كمان.

ـ انتهت ـ

بودابست ٢٧/ ٤/ ١٩٨٤

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائرًا
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!
حين مات النهد
شرف قاطع طريق



صورة الغلاف لمان راي
تصميم الغلاف رنم الجندي

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت